الواجبات الزوجية للمرأة في الإسلام

الدكتور رضا باك نجاد

ترجمة: لجنة الهدى





الواجبات الزوجية للمرأة
في الإسلام

الواجبات الزوجية للمرأة في الإسلام

الدكتور رضا باك نجاد

ترجمة

لجنة الهدى



للطباعة والنشر والتوزيع

شكر وتقدير

نتوجه بالشكر والتقدير إلى الأخ خليل العصامي على ترجمته لهذا السفر القيّم وإلى سائر الأخوة اعضاء اللجنة الذين ساهموا في المراجعة والتصحيح والتدقيق ونسأل الله التوفيق الدائم في نشر الكلمة الطيبة.

لجنة الهدى

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارىء كتاب شيّق يعالج موضوعاً في صميم حياتك، ويُعنى بمسألة تحتلّ حيّزاً واسعاً في ذهنك، أعني: العلاقات الزوجية ويتناول بالتفصيل أدقّ شؤونها وشجونها.

ما مِن أحد منّا إلاّ ويشعر بين الفينة والأخرى بوجود عنصر أو عناصر غامضة ـ في إطار علاقاته الزوجية ـ لا يعرف لها تفسيراً ولا يتقن كيفية وصفها والتعبير عنها، تتغلغل أحياناً بين طيّات علاقاته الزوجية وتعكّر صفوها. وهذا الكتاب يستجلي تلك العناصر الغامضة، ويزيح عنها الغبار ويضع أسبابها بين أيدينا، ويقدّم لنا سُبل معالجتها بعيداً عن الدعوات المثالية أو الخيالية الثقيلة. ولو نظرنا إلى هذه المعالجات لوجدناها بسيطة وفاعلة. ولو عملنا بها لعاد إلى حياتنا صفوها.

لا يقتصر هذا الكتاب على تقديم الإرشادات الكفيلة بتفادي وقوع أي خلل مستقبلي في العلاقات بين الزوج والزوجة، وإنّما يتعدّاه إلى معالجة ما وقع من أخطاء في الماضي وظلّت نتائجها ماثلة إلى الوقت الحاضر، بل وحتّى إلى ما تجذّر منها واستفحل. وهذا الوصف للكتاب لا يأتي انطلاقاً من كونه كتاباً سحرياً، ولكن لأنّه يعيد العقد المستعصية إلى مسبباتها الأساسية التي غالباً ما تكون بسيطة أو تافهة، فيسهل عند ذاك علينا تقويم ما اعوجّ منها

وإصلاح ما فسد، منطلقاً في كل رؤاه من نظرة إسلامية عميقة تتوائم مع نمط حياتنا الشرقية.

من الطبيعي أنَّ بيت الرجل هو ملاذه ومأواه الذي إليه يلجأ للاستراحة من متاعب الحياة وما يكتنفها من ضجيج وتعقيدات، ليستعيد فيه أنفاسه، ثم يعاود الكرّة بروح توّاقة منطلقاً في ربوع الأرض ومناكبها للعمل وكسب الرزق. وجدير بالمرء أن يُعنىٰ أول ما يُعنىٰ بتوطيد أركان ذلك الملاذ وترسيخ أُسسه وإرساء علاقات سليمة بين أفراده وعلى رأسهم الزوج والزوجة.

لعلَّ أوَّل إشكال يثار ضدّ هذا الكتاب هو أنَّه ينزل بالمرأة ـ الزوجة ـ إلى مستوى الخادمة الطيّعة أو إلى درجة الأَمة الذليلة. وأقول ـ في معرض الدفاع عن أطروحة الكتاب ـ إنَّ المعايير التي ينطلق منها في رؤيته هذه لا تشذّ عن مضامين أحاديث كثيرة مروية عن الرسول ﷺ في هذا المعنى، ومنها على سبيل المثال قوله ﷺ: «**لو أمرتُ أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها**». هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ المسألة لا تقف عند هذا الحدّ، بل إنَّ الإرشادات الواردة في هذا الكتاب يقابلها من جانب آخر كتاب ثانٍ للمؤلّف نفسه حشد فيه إرشادات للرجل بالإحسان إلى المرأة ومداراتها، وهي إرشادات لا تقلّ كمّاً وكيفاً عمَّا ورد في هذا الكتاب من إرشادات. هذا فضلاً عن أنَّ هناك شعوب أخرى تقفو هذا المنحىٰ كما هو الحال بالنسبة إلى هذا الشعب، وتحثّ المرأة على تقديس زوجها إلى درجة العبادة.

إذاً فالميزة الأساسية لهذا الكتاب هو أنَّه يسلّط الأضواء على الجذور الخفية التي منها تنبت المشاكل والخلافات العائلية وتنمو وتتفرّع، وتفضي إلى النفور والكراهية والمشاجرات... إلى آخر ذلك. ثم إنَّه لا يتوانى عن تقديم الإرشادات الوقائية والعلاجية.

وأخيراً فإنَّني آثرت نقل هذا الكتاب من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية رغبة مني في إثراء ثقافة القارىء العربي في جانب حيوي نابض من جوانب حياته. ولا أجدني مبالغاً لو قلتُ في وصف هذا الكتاب إنَّه يموج بلمسة سحرية توائم بين التراث الآثر والمستقبل الزاهر، وتجعل المرء يستقي بدلوه من ماضيه لري شجرة الحاضر.

مع أمنياتي للجميع بحياة زوجية هانئة

خليل العصامي

ثناء

سبحان الله

التوحيد الخالص الذي تتطلّبه الأفكار العلمية اليوم موجود لدى المسلمين دون سواهم؛ فهم يؤمنون بالله عقيدة ويعبدونه عملاً.

وسلام على الرسول الكريم الذي أوصى أُمّته أن تدعو الله عشر مرّات في اليوم لهداية جميع المسلمين إلى الصراط المستقيم الذي سلكه الواصلون إلى الكمال، وليس صراط العلماء المجرّدين من الدين ولا صراط المتديّنين الجاهلين.

وسلامٌ على أوصيائه الاثني عشر وخاصة إمام العصر الحجّة ابن الحسن العسكري ـ محمّد المهدي ـ أرواحنا فداه، الذي سيقيم حكومة العدل الإلهية الواحدة.

لما بلغ أمير المؤمنين نعي مالك الأشتر، بكى واستغفر له وقال في ما قال: «**وهل قامت النساء عن مثل مالك. . .**»[1].

لا بدّ للإنسان ـ قبل انعقاد النطفة وبعدها ـ من أبوين صالحين، ولا بدَّ له منذ الولادة حتّى الوفاة من معلّم صالح، ووالدين صالحين كي ينشأ على

---

(١) بحار الأنوار، ج٣٣، ص٥٩١.

النحو الذي يريده له أمير المؤمنين عليه السلام. فقد ورد عنه أنّه عليه السلام قال: «**إنّ أفضل خدمة تقدّم للولد هي المرأة الصالحة والمعلّم الصالح**».

تعدّ إلى جانب غرفة الزفاف، وإلى جوار موضع ولادة الطفل، المكوّنات الأساسية لروحه الإنسانية المتفوّقة على الروح الحيوانية، من قبل الأب والأُم، وخاصّة الأم الفاهمة، وتستكمل مقوّماتها على يد المعلّم.

السلف رهينون بعملهم، والخَلَف رهينون بعملنا. وهذا يعني أنّ مسؤولية كلّ واحد منّا أمام الأجيال واضحة وضوح الشمس. أي أنّ كل ما يقع اليوم هو نتيجة حتمية لما وقع بالأمس، والغدُ أيضاً رهين بأحداث اليوم.

إهداء إلى مَن ليسوا من العلماء الفسقة ولا هم من المتديّنين الجَهلة

لقد حقّق العلماء المادّيون تطوّراً بارزاً في علاقة الإنسان مع الطبيعة، ولكنّهم في الوقت ذاته كدّروا صفو علاقة الإنسان بأخيه الإنسان. أمّا المتديّنون الجهلة فلا حَظَّ لهم في تلك المفخرة، ولهم نصيب في إيجاد هذه الكدورة. ونحن نلاحظ أنَّ الإسلام وصف العالِم الفاسق بالحمار. والأكثر ظلماً من كلّ أولئك هو المشرك الذي يهبط بمستوى معبوده إلى مستوى الإنسان أو إلى مستوى شيء من صنائع الإنسان. بينما يريد الله للإنسان أن يسمو إلى حدّ يصل فيه إلى درجة الله. (المشرك ينزل بمستوى الإلّه، والله يصعد بمستوى الإنسان). أو لنقل بعبارة أخرى إنَّ الإنسان في صراعاته الأربعة: مع الطبيعة، ومع الآخرين، ومع ذاته، ومع ربّه، قد أحرز انتصاراً نسبياً في الصراع الأول، ولازال منهمكاً في الصراع الثاني، وهُزم في الصراع الثالث، ولازال يعيش حرباً باردة في الصراع الرابع.

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾[1] وقد وصف رسول الله ﷺ فضل تلك الآثار بالصدقة الجارية وعين الماء التي تفيض منها الحياة، والكتاب النافع الذي يضمّ علماً يستفيد

(١) سورة يس، الآية ١٢.

منه الناس، والولد الصالح. ولا شيء أنفع لابن آدم من عمل يكون سبباً لهداية الناس وإصلاحهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

تربية الأبناء

لم يَدخل مصطلح «تربية الأبناء» حتّى الآن إلى الميادين الفنية للكتاب الذين يحرصون على استكناه علل الحياة كي يتسنّى لمعلولاتها النشوء في أجواء صالحة.

ولكن يوجد بين أيدينا دليل موثّق بأنّه لو دُوِّنت كتب تعلّم الزوج أصول مداراة الزوجة، وتتعلّم منها المرأة آداب مداراة الزوج ليكونا راضيين عن بعضهما ولا يستخدمان العنف، ولا يأذنان للتجبّر بدخول دارهما. وكلّ ذلك من أجل أن يكون الأب والأُم والبيت والآداب التي تحكم هذه العناصر الثلاثة، كوسيلة أو وسائل من أجل بلوغ النتيجة والغاية، وهي تربية الأبناء.

ولهذا السبب يلاحظ أنّهم مهما أكثروا من تدوين الكتب في حقل التربية يدركون بأنَّ الكثير من القِيم الإنسانية لم تنعكس من القلم على الورق ومن الورق إلى العقول. بيد أنَّ كلّ ما كُتب حول آداب مراعاة الزوجة، وآداب مراعاة الزوج، كان له تأثير ملحوظ في تقريب كلّ من الأب والأُم إلى مستواهما ودورهما الحقيقي، ويؤدّي بالمرأة إلى الانصياع إلى سلطة الرجل لأنّها تجد فيها تجسيداً لأمومتها، وتحقيقاً لدورها في تنشئة الأولاد وتربيتهم، وفي كل ذلك تجسيد لأحلام الأب الوردية القديمة في تربية الولد الصالح الذي يرى فيه انعكاساً لكامل شخصيّته.

يختص هذا الكتاب بالحديث عن آداب مداراة الزوج أو ما يُسمّى بحسن التبعّل. ويأتي في أعقابه كتاب آخر مكرّس لآداب مداراة الزوجة. ويتضمن كلا الكتابين ملامح عامّة عن التربية، ويعتبران ـ إلى جانب سائر الكتب ـ مقدمات تُعنى بأساليب التربية.

صرّح رسول الله ﷺ بأنَّ سعادة المرء رهينة بالزوجة الصالحة، واعتبر من جهة أخرى العمل الصالح في ما يخلّفه المرء وراءه من علم يُنتفع به (على اعتبار أن العلم الذي يودع في الكتب هو مادّة الحياة) وفي ما يخلّفه من صدقة جارية، وفي ما يخلّفه من ولد صالح، معتبراً تعاون هؤلاء الثلاثة وتظافرهم كتظافر النحلة والزهرة والإنسان؛ فسرّ بقاء هؤلاء الثلاثة يكمن في ما يوجد بينهم من دواعي التعاون، ويؤثر كلّ واحد منهم في الآخر تأثيراً طيّباً. أمّا الكائنات الخالية من روح التعاون من أمثال: الفهد والنمر. فهي معرّضة للفناء والزوال.

رغم أنَّ الفتاة أكثر انفصالاً عن ماضيها من الفتىٰ؛ وذلك بسبب تعلّقها بالمستقبل أكثر من الفتىٰ، ولأنَّها أكثر شوقاً منه إلى الزواج، وتعلم أنَّها تاركة دار أبيها وأهليها وملتحقة بزوجها، ألا تعوّض عن هذه العلاقة بعلاقة وثيقة جديدة مع البيت الجديد وأهليه ومن سيولد فيه؟ من الطبيعي أن أعباءً كثيرة تلقى على كاهل الفتى، ويجب عليه النهوض بها، ولا يفوّض شيئاً منها إلى الفتاة إلاّ عرضاً. يقول فرويد في هذا المضمار إنَّ الفتاة إذا لم تعثر على فتى أحلامها، فإنَّها تتقبّل هذا الزوج الذي وهبته لها الحياة كبديل عن فتاها المحبوب. وإذا لم يحصل الفتى على فتاة موافقة لما يهوى، فإنَّه يلقي بتبعات ذلك على الدهر، ويعزو ذلك إلى سوء حظّه وإلى خسرانه لما كان يأمل فيه النجاح. وهكذا يستسلمان للحياة ويقسّمان بينهما واجبات الحياة الزوجية، فيصبحان شخصاً واحداً، وإن كانا في الخارج اثنين. مثلما أنَّ الشخص وثيابه واحد، لكنهما في الحقيقة شيئان مختلفان. فقد قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1].

وقال عزَّ وجلّ في موضع آخر: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾[2].

يذهب بعض المعاندين ـ سهواً أو عمداً ـ إلى اعتبار «سخرياً» دلالة على إرادة الله في هيمنة بعض الناس على بعض، في حين أنَّ أوّل الآية وآخرها يرجعان «رحمة ربّك» إلى داخل الآية بشكل يرغم المرء على الاعتراف بأنَّ الاهتمام انصبَّ على ظاهر الآية فحسب، ولا علاقة للمسألة بما تصوّره المعاندون. فالباري تعالى يسأل هنا: هل يتدخّل هؤلاء في تقسيم رحمة الله؟ ثم يقول: نحن نقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ونسخّر بعضهم لبعض، ورحمة ربّك خير من كل ما ينالون.

روي أنَّ النبي موسى، على نبيّنا وآله وعليه السلام سأل الله أن يؤدّي كل إنسان عمله بنفسه بحيث لا يحتاج أحد إلى أحد. لكنّه أدرك بأنَّ الإنسان لا يتسنَّى له قضاء حاجاته لوحده من قبيل: تحضير الخبز واللحم والثياب وما شابه ذلك. ولهذا السبب فإنَّ بني الإنسان مضطرّون لتسخير بعضهم بعضاً. وهذه المعيشة من معالم رحمة الله؛ فهو عزَّ وجلّ ينسب تقسيم المعيشة في الحياة إلى نفسه. ومن الطبيعي أنَّ جميع الناس يطمحون في أن يكونوا في المقدّمة من حيث الجاه والمقام والثروة. ولكن بما أنَّ الناس غير متساوين في القدرات والحظوظ، فهم ينسبون ما لديهم من نواقص إلى طبيعة التقسيم. ولكن بما أنَّ أوّل الآية يشير إلى الرحمة الإلهية، ويجعل الشؤون المعاشية في معزل عنها، فهو عندما يذكر الرحمة الإلهية في آخر الآية، يجعلها خارج إطار

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٣٢.

ذلك التقسيم. ولو أننا تأمّلنا دقيقاً في هذا المعنى لعلمنا بأنّه يتطابق مع الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام: **«لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين»**(١). والشيعة يعلمون بأنَّ الحياة تسير في اتجاه يقع بين تياري الجبر والاختيار.

اليهود يعتبرون أنفسهم مخيّرين ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾(٢). أمَّا النصارى فيعتبرون أنفسهم مجبرين. فأولئك يتصوّرون الله مغلول اليد ومسلوب الإرادة، وهؤلاء يتصوّرون وكأنَّ أيديهم مكبّلة. أمَّا الشيعة فيصوّرون الأمر وكأَنَّ إحدى أيديهم بيد الله والأخرى طليقة، بل وكأنَّهم يضعون أيديهم في أيدي بعضهم حيث يقسم الله معيشتهم بينهم، ويتداولون في ما بينهم ما قسَّمه الله لهم، ويستخدمون قواهم وطاقاتهم في إدارة شؤونهم المعاشية. أي ليست يد الله مغلولة، ولا يد الإنسان مقيّدة. ويتلخّص هذا المعنى عند الشيعة في القول بأنَّ الإنسان مفوّض في إطار الجبر.

وهذا المعنى الذي مرَّ ذكره ينطبق على قبول الزواج أيضاً؛ فالقبول بالزواج سواء مِن قِبل الفتى إذا لم يجد الفتاة كما كان يتصوّرها في مخيّلته، أو من قبل الفتاة التي وجدت في زوجها بديلاً عن فتى أحلامها، يعتبر كمثال على قبول معنى الآية الشريفة حيث ينصاع الإنسان بالإجبار إلى القسم المتعلّق منها بأصل الزواج والمعيشة، على اعتبار أنَّ الإنسان مجبور على الزواج، أمَّا اختيار الزوج المحبوب فيتوقف على مدى اختيار الإنسان، فإذا ما روعيت شروط الاختيار الصحيح، ينال عند ذاك ما تشتهي نفسه من درجات المحبّة.

وإنَّما أوردت هذه المقدّمة لكي لا يقول قائل بأنَّ الرُسل أتوا في وقت

---

(١) بحار الأنوار، ج٥، ص١٧.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٤.

كانت فيه أكثرية النَّاس معرضة عن أحكام الله، فما الفائدة المتوخّاة من إرسال الأنبياء؟ وما مدى نجاح معلمي العلوم الأخلاقية والتربوية في تهذيب سلوك النَّاس؟ وهل ينبغي إغلاق الجامعات الأخلاقية والتربوية والتفريط بمعلّميها بذريعة أنَّ أحداً من النّاس لم يُهذّب أخلاقه؟

المودّة والرحمة نتيجة الزواج

لو كان عند الله لبني الإنسان شيء خير من الدين لأرسله إليهم عن طريق الأنبياء بدل الدّين. ومن جملة ما يدلّ على أنّ الله تعالى أرحم الراحمين هو أنّه عزّ وجلّ لا يحرم الإنسان - الذي يجلب لنفسه المصائب ويقترف الآثام بيده - من رحمته، وما من أُمّة إلاّ وقد أرسل الله إليها نذيراً. فقد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1]. وما من أُمّة إلاّ وقد جاءها معلّم أخلاق ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2]. فليس هناك من جماعة أو قوم إلاّ وقد حمّلهم الله عبئاً من الأمانة بما يتناسب مع ما منّ به عليهم من فيضه. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[3]، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.. وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[4]. وأرسل الإنسان الظلوم إلى ميدان الوجود؛ فهو ظلوم من حيث أنّه إذا لم يخن الأمانة فليس بظالم، وجهول على اعتبار أنّ الأمين يبقى قدره مجهولاً.

وهذه الأمانة ليست إلاّ الدّين الذي لو كان عند الله سواه لمنحه للإنسان. ولا يمكن للإنسان أن ينال أكثر من هذا التكريم. ولو كان غيره أكثر منه كفاءة وأمانة، لانصرفت هذه الأمانة إليه. أجل إنّ الدين أمانة. ومن جملة الفقرات التي يتألّف

(١) سورة فاطر، الآية ٢٤.

(٢) سورة الرعد، الآية ٧.

(٣) سورة الحجر، الآية ٢١.

(٤) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

منها العمود الفقري للدّين هو: رسول الله، والقرآن، والولاية، وشهادة سيّد الشهداء الحسين. ومن جملتها أيضاً: الأمانة الملقاة على عاتق الزوج واسمها: الزوجة. والأمانة المُسمّاة باسم: الزوج. ويجب على الزوجة أن تبذل قصارى جهدها في صيانتها والحفاظ عليها. فثمرة الزواج هي المودّة والرحمة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1]. وقيمة كل شجرة، بل وكلّ شيء يتوقف على ما يعطيه من ثمار. وثمرة الزواج تتوقّف على مدى ما يحققه من مودّة ورحمة. والثمرة التي تتمخّض عن صيانة الأمانة وحفظ ما يؤتمن المرء عليه هي جنّات تجري من تحتها الأنهار وينال المرء كل الطيّبات في الفردوس الأعلى.. ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[2].

كلّ هذه النعم الأبدية التي ينالها الإنسان في جنّة الخُلد إنّما يحصل عليها بما يتناسب مع حفظه للأمانة. أمّا المودّة والرحمة التي تتحقق في ظل الزواج فالمراد منها هو أنّ الزواج إذا سار على نفس الوتيرة الطيبة المقدسة، والجذّابة التي كان عليها من قبل، فذلك يعني أنّ الرجل قد نال ما كان يصبو إليه من أمر الزواج، وأنّ المرأة حصلت فيه على ما كانت تحلم به، وإلاّ فستشعر المرأة حينذاك بأنّها قد فقدت الجوانب الإيجابية التي كانت تستشعرها في الحياة مع والديها، وأخذت تتجرّع حالياً غصص الحياة الزوجية. ويرى الرجل أنّ الحياة التي كان يحلم بها قد أمست سراباً، وإذا بالزوجة التي كان يأمل منها أن تكون بمثابة الأم قد بدت زوجة أب، ولم تتحقق هناك الأمانة ولم يحصل أي رباط مقدّس في هذه الحياة الزوجية.

ومع أنّ القرآن الكريم يؤكّد على أنّ الله تعالى أرسل الأنبياء مبشّرين ومنذرين، يبشّرون الأخيار وينذرون الأشرار، ولكنه في الوقت ذاته ينصّ

---

(١) سورة الروم، الآية ٢١.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٧١.

على: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1]. وهذه الآية تشير فقط إلى جانب التخويف والإنذار فقط. وهذا المطلب ينطوي على معنى جدير بالتأمّل:

روي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: **«اللّهمّ إنّي لم أعبدك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك، لكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»**[2]. ولكن يستدلّ من الدراسات والتحقيقات التي أجريت في هذا المجال أنّ أكثر الناس المتديّنين يعبدون الله خوفاً من ناره، وهناك عدد أقلّ منهم يعبد الله طمعاً في جنّته، ولا يوجد إلاّ عدد قليل من أمثال الإمام علي، ممّن يعبد الله انطلاقاً من كونه أهلاً للعبادة. ويفهم من هذا أنّ معظم الناس يخافون، ولهذا يجب تقديم النذير على البشير. وعلى كلّ الأحوال فإنّ عدم مداراة الزوج بالشكل الصحيح، وعدم رعاية الزوجة كما ينبغي لا مكان لهما إلاّ في جحيم الحياة الدنيا، وهو مكان لا وجود فيه للمودّة والرحمة، ولا ينالهما منه في الآخرة إلاّ نار الغضب الإلّهي.

لا شكّ في أنّ المرأة المسلمة تلتزم بالأحكام الإسلامية حتّى في حياتها الاجتماعية، وهي حتّى وإن اضطرّتها الظروف إلى مجاراة العادات الاجتماعية السائدة بين الآخرين؛ فإنّها لا تتخلّى عن موقفها الإسلامي. والإسلام ثروة تأخذها المرأة معها إلى دار الزوجية، وتشترك مع زوجها المسلم في تكوين أسرة مسلمة، وتحافظ على طابع الاعتدال في المهر وفي سائر القيم الإسلامية كمّاً وكيفاً.

عندما تذهب المرأة المسلمة إلى بيت الزوجية يجب أن لا يتعلّق قلبها بزوجها فقط، وإنّما يجب أن يتعلّق بالإسلام أيضاً. وكذلك الرجل يجب عليه أن ينظر إلى هذه الحقيقة وهي أنّه إذا كان من المقدّر أن تكون هناك علاقة مودّة ورحمة بينه وبين زوجته، فلا بدّ أنّ هناك بينه وبين الإسلام علاقة

---

(١) سورة فاطر، الآية ٢٤.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٠، ص١٨٦.

أخرى على غرار هذه العلاقة. وهذه المحبَّة ليست ذات جانب واحد. لأنَّ المحبّة ذات الجانب الواحد لا قيمة لها، بل إنَّ كل مَن يحب الإسلام، فإنَّ الإسلام يحبّه أيضاً. وهذه المعادلة ذات الطرفين موجودة في كلّ مكان؛ فمن يتوب يتوب الله عليه، ومَن ينصر الله ينصره، ومَن يحبّ الله يحبّه الله. ومن هنا قال رسول الله ﷺ: **«أنا وعلي أبوا هذه الأُمّة»**[1]. وكلّ مَن يحب الإسلام فهو من أبناء الأُمّة الإسلامية. والإنسان مجبول على حبّ كلّ من يربّيه ويوصله إلى الكمال، ومثله في ذلك كمثل الأب الذي يحبّ أبناءه ويحبّونه. ومحمّد وعليّ أبوا هذه الأُمّة.

وحتّى إذا لم تتحقق بين الرجل والمرأة المودّة والرحمة ولم يكن زواجهما من ذلك الطراز الذي يجلب عليهما المودّة والرحمة؛ فإنَّهما لا يخرجان عن الإطار الإسلامي؛ لأنَّهما متزوّجان بعقد إسلامي ولا يفترقان إلاّ بطريق إسلامي، بل ويبكيان على شهداء الإسلام قبل بكائهما على وفاة ذويهما، ويحرصان على تسمية أبنائهما باسم أعلام الدين، ويقضيان عمرهما سوية في حبّ الإسلام، ويحثّان أسرتيهما على هذه المحبّة حتّى في وصيّتهما. أمّا إذا لم تكن العلاقة بين الزوج والزوجة علاقة حسنة، فمعنى ذلك أنّهما لا يراعيان أحكام الإسلام، ولا يطبّقان تعاليمه في حياتهما، وحتّى إذا كان للإسلام في حياتهما ثمّة وجود؛ فلا يعدو أن يكون مزيجاً من تعاليم الإسلام وآرائهما الشخصية.

جاء في القرآن الكريم أنَّ الله تعالى خاطب الرجال بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[2].

---

(١) كنز الفوائد، ج١، ص١٣؛ معاني الأخبار، ص١١٨.

(٢) سورة الروم، الآية ٢١.

أودّ أن ألفت انتباهكم هنا إلى النكات التالية: إنَّ الباري تعالى لم يقل في هذه الآية: آيات لقوم يعبدون، أو لقوم يعملون صالحاً، أو يقاتلون في سبيل الله، أو يتاجرون؛ بل قال لقوم يعقلون.

إنَّ الأشخاص الذين يستعملون المخدّرات لاستجلاب السكينة لأنفسهم يتصفون بروح مبدعة؛ فهم بعدما يعجزون عن تطبيق إبداعهم في البيئة التي يعيشون فيها، وبعد ما يتّضح لهم ضعفهم عن مجاراة الأجواء التي يعيشون فيها، ينقلبون إلى أنفسهم، فيتخذون منها خصماً لهم. ولهذا نلاحظ أنَّهم في الحقيقة لا يحققون لأنفسهم السكينة. نلاحظ أنَّ أرذل القوى الشيطانية تظهر النساء أحياناً بشكل مخدّر للرجال. والواعون من أصحاب الفكر فقط يدركون أنَّ تلك القوى إنَّما تسلب من النساء ـ بواسطة هذه الأساليب ـ مقدرتهنّ في الخَلْق والإبداع. والموضوع الذي يشير إليه القرآن بقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ هو الذي يفهم أصحاب الفكر ما هو المقصود منه؛ المقصود منه علاقة الرجل والمرأة في إطار الخَلق والإبداع. ويفهم من هنا أنَّ المرأة ـ في رأي القرآن ـ كائن قادر على الإبداع وبناء الحياة.

وصف الله الجنَّة بأنَّها موضع للسكينة التي تنال بعد العمل. وهذا المعنى ينسجم إلى حدّ بعيد مع قول الرسول ﷺ: «**الجنَّة تحت أقدام الأمهات**»[1] إذ أنَّ الجنَّة والمرأة كليهما تُشعران الإنسان بالسكينة، لأنَّ عملهما يصبّ في إطار رضا الله.

من الطبيعي أنَّ الرجل يحتاج إلى المنزل. وقد ورد في القرآن الكريم أنَّ موسى عليه السلام دعا ربّه قائلاً: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾[2]. موسى هنا يطلب

(١) مستدرك وسائل الشيعة (طبعة آل البيت) ج٥، ص٢٨٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٢٩.

من الله بيتاً يأوي إليه، وآسية تدعو الله أن يبني لها بيتاً عنده في الجنَّة في قولها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾[1]. فكلاهما بحاجة إلى منزل يستشعران فيه السكينة والاستقرار. ويقول الباري تعالى لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[2]. وهذه السكينة يحصل عليها الرجل بواسطة المرأة.

يجب أن يكون للرجل موئل يمنحه السكينة، وتلك هي امرأته. وإذا لم يشعر الرجل، ولم تشعر المرأة بالسكينة في المنزل؛ فإنَّ ذلك المنزل يتحوّل من جنّة إلى جحيم عليهما. ونلاحظ أنَّ القرآن يتحدّث ـ بعد ذكر السكينة ـ عن موضوع المودّة والرحمة؛ لأنَّ السكينة تستجلب من ورائها المودّة ومن بعدها الرحمة. وهذا على غرار إشارة القرآن الكريم إلى أن منازل الجنَّة ذات مدارج متفاوتة.

إذا لم يحصل الرجل على السكينة لدى المرأة ـ التي تتّصف عادة بالإبداع والخَلْق والمقدرة على تسكين الرجل ـ قد يلجأ إلى المخدّرات أو إلى النساء اللائي يتّصفن بالمقدرة على تخدير النساء بالرجال والرجال بالنساء.

يشير القرآن الكريم إلى أنَّ الذكر والأنثى خُلقا من جنس واحد لكي تتكوّن بينهما مودّة ورحمة. ولم يحصر المودّة بالرجل ولا الرحمة بالمرأة، وإنَّما جعلها مقاسمة بينهما «بينكم». فالمودّة هي الحبّ الذي يحمله أحدهما تجاه الآخر، ويكون على درجة من الفاعلية بحيث يبقى تأثيره موجوداً أثناء غيابهما وحضورهما، ويكون مبعث سرور لهما عندما يلتقيان، ولا يحمل أحدهما في قلبه للآخر إلاّ الخير. ويستشف من الأحاديث الشريفة أنَّ هذه المحبة موجودة في القلب وجارية على اللسان، والجانب الكامن منها أقوى وأكثر من الظاهر. وفي مقابل هذه المودّة هناك: الشجار والصراع والعداء والبغي والتمرّد. وأوضح دليل على ذلك هو تلك الأحاديث الواردة عن

---

(١) سورة التحريم، الآية ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٥.

الأئمة عليهم السلام. فقد روي أنَّ الإمام علي عليه السلام قال:

«البشاشة حبالة المودّة»[1].

«لا تظهر مودّتهم إلاّ بسلامة صدورهم»[2].

«استُعملت المودّة باللسان، وتشاجر النّاس بالقلوب»[3].

«اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد وآل محمَّد وأبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبّة، ومن حسد أهل البغي المودّة»[4].

«وأرِقُّ على أهل البلاء منهم رحمة، وأسرُّ لهم بالغيب مودّة»[5].

أمَّا كلمة الرحمة التي تعني ـ من قبل الخالق ـ: الفضل والإحسان والكرم، وتعني ـ من قبل الإنسان ـ: الرأفة والعطف، فقد وردت إلى جانب كلمات أخرى في القرآن الكريم مثل (صلوات ورحمة، مغفرة ورحمة، هدى ورحمة، وإماماً ورحمة، ورحمة ورضوان، ورحمة الله وبركاته، شفاء ورحمة، ورأفة ورحمة). وتختلف الرحمة عن المودّة في أنَّ الرحمة عندما تحلّ تدفع كلّ الضرّاء والسوء والعذاب والنقمة، وتحلّ محلّها. ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾[6]. ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾[7]. ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[8].

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٦.

(٢) نهج البلاغة، الرسائل، ٥٣.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨.

(٤) الصحيفة السجادية، الدعاء العشرون.

(٥) الصحيفة السجادية، الدعاء السادس والعشرين.

(٦) سورة يونس، الآية ٢١.

(٧) سورة الأحزاب، الآية ١٧.

(٨) سورة الحديد، الآية ١٣.

وفي ضوء ما مرَّ ذكره فإنَّ الزواج يعني الربط بين جسمين منفصلين كلياً من أجل أن يحصلا على اللذّة والراحة ويشعرا بالاستقرار والسكينة، وهذه السكينة لا تتعدّى طبعاً ذلك النوع الحيواني المؤذي. أمّا إذا كانت هذه العلاقة الجنسية مقرونة بالحبّ، ينتفي تلقائياً مفهوم الإثم المرتبط في عرفنا بالعلاقات الجنسية. وتصبح المرأة ذات معنى آخر بالنسبة للرجل، ويزداد الكمال الجنسي مع تزايد الجماع، ويتحقق عندئذٍ كلّ ما يطمح الإنسان إلى تحقيقه من خلال الزواج، وهو: المودة والرحمة. وهناك معنىً خفياً يكمن في تقديم القرآن لكلمة المودّة على كلمة الرحمة؛ وذلك لأنَّ المودّة بمثابة الوضوء والطهارة والاستعداد، والرحمة بمثابة الصلاة والعروج. وما لم يكن قلبا الرجل والمرأة مليئان بالحبّ والمودّة لبعضهما الآخر سواء في الغياب أو في الحضور، من المستحيل أن يرتبطا بأواصر المنفعة العملية الاجتماعية والأخلاقية، أو ينجحا في تحقيق السعادة المنشودة. ومن هنا فقد اعتبرت الآية الكريمة المذكورة آنفاً الرجل والمرأة متساويين في حصيلة السكينة والمودّة والرحمة التي يجنيانها في ظلّ الزواج. فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال:

«ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزَّ وجلّ خيراً من زوجة صالحة؛ إذا أمرها أطاعته، وإذا أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»[1].

المودة أرض خصبة لإنبات بذور الرحمة، فإذا انعدمت المودّة فليس من رحمة. والرحمة تأتي كحصيلة للمودّة. والمودّة ـ التي هي بمثابة الغرس ـ يجب أن يكون موسمها معلوماً كما هو الحال بالنسبة للفلاّح الذي يعلم متى وأين يبذِر البذور، ومتى يسقي كي يحصل على خير جنى. وكما أنَّ

(١) مستدرك وسائل الشيعة (طبعة آل البيت) ج١٣، ص٢٩٩، الحديث ٥٣٨٨.

تحت حائر سيد الشهداء، ودعاء السَّحر، وآخر يوم الجمعة، وعند هطول المطر هي أفضل الأوقات والأماكن للدعاء، أي كما أنَّ لظروف الزمان والمكان أثر في الدعاء، كذلك الحال في ما يخصّ المودّة التي تعطي نتائج أفضل من المحبّة والرحمة.

فإذا عرفت أنَّ المودّة تعني المحبّة التي تضطرم في القلوب وتكون متبادلة بين الجانبين؛ أي أنَّ الجانبين يحب أحدهما الآخر، وقد جبل عليها كلاهما بشكل متساوٍ، وهي دائمة لا انقضاء لها، تنبّه أيضاً إلى المودّة التي وصفها الرسول بأنَّها الوشيجة بين أهل بيته وبني أُمّته، وذكر في آية المودّة في القربى أنَّهما يحبّ أحدهما الآخر.

إذا كان هدف الزواج هو قضاء الشهوة الحيوانية، وإيجاد السكينة بمعناها الحيواني؛ فهو مجرّد علاقة بين أجساد ميّتة. بيد أنَّ مراحل المودّة والرحمة تأتي كنتيجة للتواصل المبارك بين القلوب؛ وهي على درجات ومراتب تبدأ من المودّة بين الزوج والزوجة حتّى تصل إلى المودّة بين الربّ وعبده الذي يكون قلبه خالياً إلاّ من حبّ الله. والمودّة ـ كما سبقت الإشارة ـ تكون ذات جانبين، وهنا تكون بين العبد وربّه، والرحمة تكون مقرونة بالهداية والرضوان وما شابه ذلك. وهذه الرحمة لها مراتب ودرجات أيضاً تبتدىء من الرحمة بالأسرة وتتدرّج إلى مرحلة رحمة للعالمين، وهي مرحلة خاصّة بالرسول الكريم. وقد تجلّت هذه الرحمة في الغزوات والمعارك؛ حيث يروى أنّه لم يَقتُل في جميع الغزوات والمعارك إلاّ شخصاً، أو شخصين على بعض الروايات.

إنَّ في قول الرسول ﷺ: **«أنا وعليّ أبوا هذه الأُمّة»** ووصف القرآن للرسول بأنّه «رحمةً للعالمين» وتخصيص «المودّة في القربى» للإمام علي، تحمل معنىً عميقاً ودلالة رفيعة على مدى المودّة والرحمة لدى أبوي هذه الأُمّة. إذ لا يوجد ثمّة حاجز يفصل البُعد الحيواني والإلهي للإنسان أقرب من

كونه رحمة للعالمين، ويكون في الوقت ذاته جديراً بمودّة أُمّته له، ومودّته لها. وقد وعد الله من يؤمن ويعمل صالحاً أن يجعل له ودّاً. وهل من ودٍّ خير من عليّ؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾[1].

إذا انعدمت المودّة لا يبقى سبيل للوصول إلى الرحمة. وقد ورد إضافة إلى قوله ﷺ: «**أنا وعلي أبوا هذه الأُمّة**»[2] حديث آخر مروي عنه ﷺ وهو: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها**»[3].

فما من سبيل لدخول المدينة إلاّ بابها، ولا طريق للوصول إلى الرحمة إلاّ بالمودّة. ولا يمكن تصديق وجود مودّة بلا رحمة، أو رحمة بلا مودّة، مثلما لا يمكن التصديق بالنبوّة بدون الولاية، أو الولاية بدون النبوّة. وهذا يعني أنَّ طليعة الولاية لا بدّ وأن يكون رأسه في وقت ولادته، في حجر حامل لواء الرسالة، ويأخذ صاحب الولاية رأس رسول الله في حجره أثناء رحلته التي تعتبر بمثابة حياة أبدية له ولكلّ المؤمنين بالتوحيد الحقيقي.

كان رسول الله ﷺ يقول: «**أشهد أنّي عبد الله ورسوله**» والإمام علي عليه السلام يقول: «**أنا عبد من عبيد محمّد**»[4]. وكلاهما يجسّدان مدينة العلم، وبابها التمسّك بالولاية. ولا يمكن للموالين دخول مدينة العلم إلاّ من بابها. أي لا يمكنهم تسلّق جدارها ولا ثقب سقفها، كما جاء في بعض الكتب من قولهم إنَّ عليّاً إذا كان مدينة العلم، فإنَّ فلان سقفها وفلان قواعدها! ولكن حبّ الإسلام لا ينفصل عن العلم ويدفع المؤمن إلى البحث

---

(١) سورة مريم، الآية ٩٦.

(٢) كنز الفوائد، ج١، ص١٣؛ معاني الأخبار، ص١١٨.

(٣) بحار الأنوار، ج١٠، ص١٢٠، ح١٠.

(٤) التوحيد، للشيخ الصدوق، ص١٧٤، ح٣.

عن سبيل لدخول مدينة علم الإسلام عن طريق علي. ومودّة ذوي قربى الرسول رائحة يشمّ منها عطر الإذن بدخول مدينة علم النبيّ.

لا بدَّ من الالتفات إلى إقرار الخلفاء الراشدين الثلاثة بأعلمية عليّ، وعلاقة ذلك الإقرار بقول الرسول ﷺ: **«أنا مدينة العلم وعليّ بابها»**.

يجب على المرأة أن تحثّ زوجها على السير في طريق الهدف الواضح والغاية الجليّة، وتنتشله من حالة القلق والاضطراب الفكري. وطالما لم يحصل الرجل على العمل الذي يرضيه، يجب على المرأة أن تأخذ هذا الجانب بنظر الاعتبار وتحثّه وتساعده على العمل الذي يرضي طموحه.

تقديم الكتاب إلى الوالد والوالدة وليس إلى الأب والأُم

إنَّ عدم تكليف الرجل بكلّ شؤون البيت، وعدم ترك الأعمال الشاقّة الثقيلة خارج البيت إلى المرأة، هذا ما يقول به حتّى دعاة المساواة التامّة بين الرجل والمرأة، يدلّ على أنَّ تكوين الأسرة والحياة الزوجية المشتركة لا يمكن أن ينهض بها الرجل لوحده ولا يمكن أن تؤدّيها المرأة بمفردها. ولا شكّ في أنَّ هذه المشاركة في الحياة الزوجية تشبه إلى حدٍّ بعيد شركة يحتاج الشركاء فيها إلى بعضهم الآخر؛ فأساس هذه الشركة هو: أسرتي الفتى والفتاة، والمهر الذي يدفعه الخطيب يمثّل رأسمال هذه الشركة، والذريّة التي تولد منهما هي إنتاج هذه الشركة. وإذا كان لكلّ شركة نظام داخلي مثل شركات الأحذية والسجّاد وصناعة العطور، فلا معنى أن تكون المشاركة الزوجية خالية من مثل هذا النظام.

الأم التي لا تعرف أصول الحياة الزوجية هي أُمّ وليست والدة، والأَب الجاهل بأصول مراعاة الزوجة هو أبٌ وليس والد. وقد ميَّز القرآن الكريم بين الأُمّ والوالدة، وبين الأَبّ والوالد، وميَّز كلّ واحدة من هذه التسميات وفقاً لما تنطوي عليه من بُعد إنساني. فالوالد والوالدة لهما نسل أو مجموعة من الأولاد الذين لا يصيبهم أي ضرر من والديهم ﴿...لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾[1]. والإنسان بحاجة إلى أن يكون مولوداً وولداً، ويجب أن يكون له

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٣.

كفؤ ونظير؛ وذلك لأنَّ الصمد الذي لا يحتاج إلى غيره هو الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾[1]. إنَّ عظمة الإنسان تكمن في كونه كفواً لزوجته وأولاده، وفي كونه مولوداً ووالداً، وإذا كان الباري قد قال إنني لم ألد ولم أُولد وليس لي أم وكفو فإنَّه يكون قد جرّد الإنسان من صفة الحاجة هذه، والحاجة لا تعتبر كمالاً وعظمة في الإنسان. ولكنه عندما يقول بأنَّه لم يلد ولم يولد وينسب صفة الحاجة للإنسان فهو إنَّما يصفهُ بأنَّه كائن عظيم بعظمة كلمة الوالد والوالدة ولم يلد ولم يُولد.

كلمتا الوالد والوالدة تعطيان معنى الأب التكويني والأُم التكوينية من جهة، ومعنى الأب التشريعي والأُم التشريعية من جهة أخرى. وحيثما يأتي اسم الباري تعالى في القرآن الكريم يستتبعه اسم الرسول (لا إله إلاّ الله، محمَّد رسول الله) أو اسم الوالدين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[2] ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ...﴾[3]. وهذا أوضح استكمال لعظمة الإنسان بحيث يأتي الذي يلد ويولد في أعقاب مَن لم يلد ولم يولد. ولكن ماذا لو جاء اسم وراء اسم ولم يحمل أيّة دلالة أو تعبير؟ الله الذي لم يلد ولم يولد، والأب والأم والوالد والوالدة في مصاف واحد. ولكن إذا لم يطلب المحتاج من المستغني أن يقضي حاجته، أو إذا طلب ذلك ولم يضعه موضع التنفيذ فهو يكون قد ارتكب بذلك ظلماً. وهذا المعنى يصدق على جهل الوالد أو الوالدة بأصول الحياة الزوجية في ضوء التعاليم الإلهية.

إذا سلَّم الزوج بعدم إمكانية العثور على حورية لكي يتزوجها، أو أنَّ الحورية التي تزوجها لم تنزل إليه من السماء، وإذا اقتنعت الزوجة بعدم وجود

---

(١) سورة الإخلاص، الآيتان ٣ ـ ٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٢٣.

(٣) سورة لقمان، الآية ١٤.

ملاك لكي تصبح زوجة له، أو أنَّ الملاك الذي أرادته لم يكن ملاكاً، فإنَّهما يصبحان على الأقل مجبورين على الصبر ريثما يتسنَّى لكلّ واحد منهما تقويم سلوك الآخر. وإذا لم يصبرا فإنَّهما يقصّران عمر أحدهما الآخر، ويلحقان ضرراً فادحاً بأولادهما. فنحن نعلم أن الاختلافات ـ حتّى وإن كانت ضئيلة بين الأب والأُم المرضعة ـ فهي تؤدّي إلى شعور الطفل بالغضب والذلّ وانقطاع الشهية، ويُصاب الطفل على أثرها بحالة نفسية خاصّة تُسمّى «ماراسموس» ومن أعراضها النحول والذبول والإعياء. وإنَّما جئت بهذا المثال في هذه المقدّمة لنفهم بعضنا الآخر على نحو أفضل، ولكي نبحث أكثر في سبيل استكناه حقيقة الأحكام الإلهية.

أشير إلى أنَّ النساء أكثر رغبة من الرجال لمطالعة أحد سلسلة كُتبي وهو كتاب «الواجبات الزوجية للرجل في الإسلام»، ويلاحظ في مقابل ذلك أنَّ الرجال أكثر ميلاً لمطالعة «الواجبات الزوجية للمرأة في الإسلام»، وهو هذا الكتاب الذي بين أيديكم؛ وذلك لأنَّ معرفة سلوك الزواج إذا نظر إليها برؤية فلسفية يستخلص منها أنَّ الرجال يميلون إلى أن تكون زوجاتهم متقنات لأصول مداراة الزوج، والنساء يرغبن في أن يكون أزواجهن ملمّين بأصول مداراة الزوجة. وهذه قاعدة عامَّة أشرت إليها مرّات عديدة وهي أنَّ كلّ شخص يحبّ أن يكون الآخرون جيّدين وصالحين، ولكن حينما يصل الدور إليه نراه يسلك جميع السبل ويختلق أنواع التبريرات لتنزيه ذاته وتبرئة نفسه من كل ما يقترفه من معاصٍ وآثام. وتشتدّ رغبة المرأة في معرفة واجبات الزوج، ورغبة الزوج في الاطلاّع على واجبات المرأة، في حالة الزواج خاصة؛ على اعتبار أنَّ الرجل والمرأة يعيشان في ظلّه إلى نهاية العمر. وتحرص المرأة حرصاً فائقاً على أن يتعلَّم زوجها أصول مداراة الزوجة، والزوج يرغب كذلك في أن تتعلَّم زوجته مبادىء مداراة الزوج.

خُلق الرجل والمرأة من نصفي الوجود؛ أحد هذين النصفين هو روح

الله، والآخر هو الحمأ المسنون. وأراد الله من الإنسان ـ بواسطة الإرادة التي أودعها فيه ـ أن يجاهد من أجل الارتفاع بنصفه الثاني إلى مستوى الإله. وبما أنَّ الرجل والمرأة مكمّلان لبعضهما الآخر، وكل واحد منهما نصفاً من عالم الوجود ومكمّلاً للنصف الآخر، فهما بحاجةٍ ماسّة إلى التعاون في ما بينهما. من الطبيعي أنَّ الخصال النفسية تكون أكثر وأنضج لدى الموجود الأكمل، وهي بلا شك أعمق وأوسع لدى الشخص الأكثر ثقافة ومدنية، وهي بطبيعة الحال أنضج وأكمل لدى الرجل والمرأة الأكثر مدنية.

لو نجح الإنسان يوماً ما في التوليف بين البويضة والحيمن وتصنيع الإنسان في ظروف جديدة، فإنَّ هذا العمل يُعتبر بمثابة إساءة إلى النوع الإنساني لأنَّه يؤدّي إلى قطع التكامل بين هذين الجنسين، ويحدث خللاً في روابطهما ويفضي بالنتيجة إلى إضعاف علاقتهما.

نظراً إلى أنَّ الطبقة الأُميّة من الناس لا تقرأ هذا الكتاب، وبما أنَّ الكثير من المتعلمين لن يقرأوه، فإنَّه أكثر ما سيكون موضع اهتمام من قبل النساء المثّقفات اللاتي يحملن شعوراً قوياً لمعرفة كيفية علاقات الناس مع بعضهم وخاصة العلاقة بين الزوج والزوجة، فإنَّ هذا الكتاب يُعنى بعوامل الجذب الموجودة بين الجنسين، والتي كانت تُسمّى إلى الأمس القريب باسم الحب، وتُسمّى اليوم بالحاجة الخاصّة. وخلاصة القول هي أنَّ هذا الكتاب معنون إلى النساء اللاتي يجب أن يقرأنه، وإلى الرجال الذين يحتاجون لمطالعته ولهذا يجب على جميع المثّقفين الذين يهتمون بشأن العلاقات الإنسانية أن يقرأوا أصول مداراة الزوجة وأصول مداراة الزوج على حدّ سواء. عسى أن يستفيدوا من الإسلام والعلم بحيث تتكوّن لديهم الجرأة يوماً على قول: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[1].

---

(١) سورة الفجر، الآيتان ٢٧ـ ٢٨.

إنَّ كلمة النجاح تعني الانتصار. ولكن كيف يتحقق الانتصار في الحياة؟ الشخص الناجح هو ذلك الذي يشعر بالرِّضا والسرور للعمل الذي يؤدّيه والواجب الذي أخذه على عاتقه. ويعود القسم الأعظم من هذا الشعور إلى ما يمكن أن يوفّره الزوج والزوجة من تسهيلات وظروف مناسبة لبعضهما الآخر في ضوء معرفتهما للأصول الواجب عليهما مراعاتها في هذا المجال.

صحيح أنَّ الحاجة والشوق إلى الأطفال يشدّ الرجل والمرأة إلى بعضهما ويدفعهما إلى تشكيل الأسرة ومواصلة الحياة سوية، إلاَّ أنَّ دخول الدّين في نطاق الأُسرة يضفي على الرجل والمرأة نوعاً من القدسيّة التي تجعل من بداية تواصلهما لله رضاً، ويكون لنهايتها جاذبية تملأ جميع الفراغات التي قد تتسبب في إيجاد عقد لدى الجيل الجديد، وتفتح عند الختام ملفاً حافلاً بذكر ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)﴾ لحياة أخرى أبدية زاخرة بالبهجة.

المرأة والرجل اللذان لا يعرفان أصول مداراة الزوج وأصول مداراة الزوجة يبقيان محرومين من سهم وافر في الحياة. فكيف يمكن للرجل الذي لا يعرف كيفية العيش مع زوجته، والزوجة التي لا تتقن كيفية معايشة زوجها أن يعيشا سوياً ويربّيا أولادهما؟ وكيف يتسنّى لهما الاعتناء بالطفل في أيام ولادته الأولى وفي أيام طفولته؟ وكيف يتاح للمرأة أن تربّي طفلها في البيت بدون أن تكون على معرفة بالأصول الواجب مراعاتها في تربيته من غير أن تسبب له أذى أو عقدة نفسية؟

المرأة التي لا تتقن أصول مداراة الزوج لا يمكنها التغلغل إلى أعماق روح طفلها؛ وذلك لأنَّ حالة الفوضى التي تعيشها في علاقتها مع زوجها تهدر طاقاتها ووقتها. فضلاً عن أنَّ أعمالها الأخرى التي تؤدّيها غريزياً ابتداءً من الحيض والولادة والإرضاع وحتّى تربية الطفل على أساس الأساليب الموروثة عن الأب والأم، لا تتيح لها فرصة الحركة في بعد آخر ذي أهمية بالغة من أبعاد الحياة. وكما أنَّ أكثرية النساء في مجتمعنا يقضين أعمارهن

على وتيرة واحدة في الحياة قلّما تؤدّي بهنَّ إلى التكامل، والرجال لا يختلفون كثيراً عن النساء، فالنساء أمهات لا يعرفنَ مبادىء وأصول الأُمومة، والرجال آباء لا يفهمون آداب الأُبوة. فالنتيجة التي تتمخّض عن ذلك هي أنَّهم يكونون آباء وأُمّهات يأتون إلى الدّنيا ويأخذون بمقاليد الحياة بدون أن يتعلّموا شيئاً من أصول تربية الأطفال، ويقضون حياتهم على هذا المنوال ويسلمونها إلى غيرهم ويذهبون.

إنَّ علاقة الرجل والمرأة وزواجهما وتمتّعهما على قدر من الأهمية بحيث أن المرء مضطرّ إلى اتخاذها كأساس لتدوين تعاليم تجعل كمنطلقات لمشاريع تربوية تُعنى بتربية جيل جديد في ظلّ ظروف أفضل، بحيث يمكن اختصار المسافة إلى الله بين كلّ جيل والجيل الذي سبقه. لأنَّ الإنسان سائر نحو الله وراجع إليه. وهذه حقيقة نصّت عليها جميع الكتب السماوية والكتب المرتبطة بها. وهنا يكمن سرّ أهمية الجيل.

لا يمكن الفصل بين أصول مداراة الزوج أو مداراة الزوجة، وبين تربية الأولاد؛ لأنَّهم يولدون وينشأون ويكبرون بين أمواج المدّ والجزر التي تكتنف حياة أبويهم، وفي ظلّها يجب أن يترعرعوا ويتكاملوا.

من جملة الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**الجنَّة تحت أقدام الأمّهات**»[1]، وورد عنه أيضاً أنَّه قال: «**الجنَّة تحت ظلال السيوف**»[2]، أي السيوف التي يضعها الإسلام بيد الآباء، والمقصود بالأُم هي ذات المرأة التي كانت بالأمس فتاة، والمقصود بالأب هو الرجل الذي كان بالأمس فتى.

أي بمجرد أن يكبر الفتى والفتاة ويتزوّجا ويصبح لديهما أطفال حتّى تصبح الجنَّة تحت أقدام الأُمّهات، وتحت ظلّ السيف الذي يحمله الأب

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٨٠، ح١٧٩٣٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٣٣، ص١٤، ح٣٧٥.

البالغ دينيّاً، سواء كان متزوجاً أو غير متزوّج. ومن المعروف أيضاً أنَّ رسول الله ﷺ وصف المرأة الحامل كالمجاهد الشاهر سيفه في ميدان الجهاد. أي أنَّها إذا كانت حاملاً فهي أُمّ، والجنَّة تحت قدميها. ومعنى هذا أنَّ الأولاد مرتبطون بمجاهدة الأم والأب ـ التي يكون موضع ظلّها في الجنَّة ـ ومن البديهي أنَّ ظلّ الشيء لا ينفصل عنه ويبقى ملازماً له على الدوام. والأولاد يعيشون في ظلّ جنَّة الأب والأُمّ الملتَزِمَيْن المُعتَنِقَيْن لمبدأ المجاهدة. والنتيجة المترتبة على ذلك هي أنَّ كلاً من أصول مداراة الزوجة، وأصول مداراة الزوج تكون مقدّمة لتربية الذريَّة، بل حتى أنَّ أصول إدارة البيت تصبّ في إطار تربية الذريَّة. وبما أنَّ الكتاب الحالي وما جاء فيه يدخل في عداد العلوم التربوية، فهو قد ورد هنا بمثابة مقدّمة لأصول مداراة الزوج، وأصول مداراة الزوجة، وأصول إدارة البيت.

أصول مداراة الزوج

مثلما أنَّ مداراة الزوجة عمل لا يتقنه الصبي والرجل الجاهل، فكذلك أصول مداراة الزوج (التبعّل) لا تحسنها المرأة البليدة. ويمكن استكناه حقيقة مداراة الرجل لزوجته، وحُسن تبعّل الزوجة لزوجها من خلال حديثين نبويين يصف الأول منهما حُسن تبعّل المرأة لزوجها بأنَّه جهاد في سبيل الله، وذلك في قوله ﷺ: **«جهاد المرأة حُسن التبعُّل لزوجها»**[١].

أمَّا الحديث الآخر فهو يحثّ الزوج على ابتداء كلّ عمل بذكر اسم الله، معتبراً كلّ عمل لا يبدأ بذكر اسم الله أبترَ. ولكن لمن يُؤدّى العمل الذي يبدأ باسم الله؟ يؤدّى من أجل الأهل والعيال طبعاً، وهذا ما يفهم من قوله ﷺ: **«ابدأ بمن تعول»**[٢] وقوله ﷺ: **«الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله»**[٣]. ومن هنا يُفهم بأنَّ مداراة الزوجة، وحُسن التبعّل للزوج يُعتبران كلاهما جهاداً في سبيل الله.

إنَّ الرجل الذي يخوض معترك الحياة، ويخرج منه غالباً أو مغلوباً، لا بدَّ أن يكون له ملاذ آمن يأوي إليه ويستشعر فيه الطمأنينة والراحة والسكينة.

---

(١) البحار، ج١٠٣، ص٢٤٥.

(٢) البحار، ج٩٦، ص١٤٧.

(٣) فقه الرضا، ص٢٠٨؛ الكافي، ج٥، ص٨٨.

وليس ثمّة ملاذ أكثر أمناً من الأسرة، على أن لا يكون زمام الرئاسة فيها بيد المرأة، ومن هنا فقد اعتبر الرسول ﷺ ذلك الملاذ بداية لاستراحة الرجل ومنطلقاً لجهاد المرأة.

فَتَحِيَّة من كلّ السائرين على طريق الحق إلى مَن نطق بهذا الكلام، وإلى المرأة التي اعتبرت حُسن التبعّل أهمّ تكاليفها وأدّته خير أداء، وإلى الرجل الذي جعل نفسه مثالاً عمليّاً للحديث القائل: «**ابدأ بمن تعول**»[1] ووضعه نصب عينيه واعتبر نفسه ملزماً بتطبيقه، وكان إذا خرج من بيته فإنّما كان يخرج بنيَّة أن «**الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله**»[2].

كانت بضعة الرسول فاطمة الزهراء عليها السلام مثالاً لحُسن التبعّل، إلى درجة أنَّ عليّاً عليه السلام متى ما كان يعود إلى تلك الدار المتواضعة، كان يستنشق فيها أنفاس الطمأنينة والاستقرار، ويعوّض فيها عن كل ما كان يلقاه من تنكيل الأعداء وما يسمعه من زفرات الأصدقاء. لقد كانت فاطمة تجسيداً لمبدأ حُسن التبعُّل لزوجها، ونادراً ما كان يمضي يوم إلاّ والرسول ﷺ يثني على هذه المرأة التي كانت تؤدّي فريضة جهادها على خير وجه. أمَّا عليّ عليه السلام الذي كان في بداية الأمر ربيباً لرسول الله ﷺ، ثم أصبح في ما بعد صهره، ثم وصيّه وخليفته من بعده، وكان ثاني أسوة ومصداق لقول الرسول ﷺ بأنَّ الكاد على عياله...، فقد كانت يده قد تصلَّبت واخشوشنت من كثرة العمل وقسوته إلى درجة أنَّ الرسول ﷺ كان يشعر ـ عندما يضع يده بيده ـ وكأنَّه يمسك خشبة.

أخذ رسول الله ﷺ بيد ذلك الرجل واعتلى المنبر وسأل جموع المسلمين الذين كانوا محتشدين أمام المنبر: ما أكرم الأيدي عند الله؟ فصاحوا

---

(١) البحار، ج٩٦، ص١٤٧.

(٢) الكافي، ج٥، ص٨٨.

كلّهم: يد رسول الله. قال: لا. ثم سألهم ثانية: ما أكرم الأيدي عند الله؟ فقال بعضهم: يد جبرائيل. فقال: لا. ثم سألهم ثالثة: ما أكرم الأيدي عند الله؟ فقال عدد منهم: يد أبي الأنبياء إبراهيم. وعندها رفع الرسول يد الرجل، وأراهم ما فيها من آثار العمل والكدّ، وقال: هذه اليد أفضل وأكرم الأيدي عند الله. وقبّلها. وهذه هي الطريقة التي يكرّم فيها رسول الله ـ وهو خير الناس وخاتم الأنبياء ـ العمل والعامل. ولا يذكر التاريخ أنَّ رئيساً أو سلطاناً أو وزيراً أو مديراً عامّاً أو أي شخص يعتبر نفسه أفضل من العامل، أو أحد رؤساء العمّال أو أصحاب النظريات العمّالية، قبّل يد عامل.

فما هو أفضل جهاد المرأة؟ أفضل جهاد المرأة حُسن التبعّل.

وما أفضل جهاد الرجل؟ تقحم ميادين الحياة كي لا تكون زوجته وأبناؤه في ضيقٍ من العيش؟

لقد أوصى المرأة بحُسن التبعّل، وأوصى الرجل بأن يبدأ بمن يعول. لأنَّ المرأة لو قالت لزوجها يوماً: لم أجد في دارك خيراً. لن تشمّ رائحة الجنَّة. وإذا ترك الرجل زوجته وأولاده في عَوَزٍ وفاقة، فلن يكون في مأمن مِن ضغطة القبر، وإن كان كثير الصوم والصلاة والعبادة.

إنَّ سعادة الأسرة رهينة بكفاءة المرأة وتدبيرها. وإنَّما قال الرسول ﷺ: **«الجنَّة تحت أقدام الأُمّهات»**[1]؛ وجعل الجنَّة حيثما تضع الأُم أقدامها؛ فلأنَّ الولد يقتفي آثار أُمّه، ويضع قدمه حيث تضع قدمها. فيا لها من منزلة رفيعة تكون فيها الجنَّة إكليلاً على رؤوس الخلائق، وتكون في الوقت ذاته تحت أقدام الأمّهات. وإلاً فإنَّ جَهنَّم فاغرة فاها تستقبل أيّاً كان؛ أباً كان أَم أُمّاً أَم ولداً.

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٨٠، ح١٧٩٣٣.

على المرأة أن تلتفت إلى قول الرسول الكريم ﷺ: «**قسط ساعة تعدل عبادة سنة**»[1]. وذلك لأنَّ السلطان لا يُراد منه كلّ هذه العبادة وكثرة الصلاة والأوراد؛ وإنَّما يراد منه العدل بين النَّاس وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه. وأنتِ أيّتها المرأة، عليك أن تحسني التبعّل لزوجك بحيث تجعلينه يدعو لك في شيخوخته ويقول: جزاكِ الله خيراً يا زوجتي العزيزة، فأنتِ لم تتركي في قلبي ذكرى سيّئة، وأنا الآن بعدما جاوزت السبعين من عمري حينما أَلْتَفِتُ ورائي وأنظر إلى الماضي منذ عهد الطفولة حتّى يومي هذا، أرى حياتي حافلة باللؤلؤ والمرجان، ولا أجدها زاخرة بالرماد أو التراب. فأنا لم أخلف رماداً، وإنَّما خلّفت ورائي جواهر.

إذا كان لديك زوج كفوء ودّعيه عند الخروج من الدار خطوة أو خطوتين، وحثّيه ـ بالأسلوب المقبول لديه ـ على الإحسان إلى الناس وأن يعاملهم مثلما يرجو منهم أن يكرموا أولاده ويعاملوهم.

وإذا كان زوجك ربُّ عمل، ودّعيه وأوصيه بالعمّال خيراً، وذكّريه بالله وحضّيه على أن يكون للعلمّال أباً عطوفاً.

وإذا كان زوجك عاملاً، ذكّريه عند توديعك إيّاه بأنَّك إنَّما تودّعينه امتثالاً لأمر الله، وادعيه إلى ذكر الله على كل حال، وأن لا يهمل عمله، ولا يلحق الضرر بأدوات صاحب العمل وأجهزته.

استقبلي زوجك عند مجيئه إلى البيت وسلّمي عليه واستطلعي أحواله، فإن وجدتِه مسروراً أظهري الانشراح والانبساط، وإن وجدتِه كئيباً محزوناً واسيه. فقد روي أنَّ رجلاً جاء إلى الإمام وقال له: لدي زوجة كلَّما رأتني مكروباً تقول لي: إن كنت مكروباً لأمر الدنيا... لا جعلها الله

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٥٢.

من القدر بحيث تغتمّ لها، وإذا كنت مكروباً لأجل الآخرة زادك الله كرباً على كربك. فقال له الإمام: «**والله إنَّ لله في هذه الدنيا موكلين، وزوجتك واحدة منهم**».

عندما تستقبلين زوجك خذي بيده إلى المكان الذي أعددتِه لراحته وأجلسيه فيه، وامسحي رجليه المتعبتين، واسأليه ما يشتهي من الفاكهة والطعام، وانظري هل يريد طعاماً أم يميل إلى الراحة؟ فإن وجدتِه راغباً في أن تنامي إلى جانبه، لا تمانعي. وإذا كان الأطفال يثيرون الضجيج والصراخ، اسأليه إن كان ضجيج الأطفال يؤذيه؟ وإنَّما يجب أن توجّهي إليه مثل هذا السؤال لأنَّ بعض الرجال يرون في ضجيج الأطفال دواءً لدفع السأم من ضجيج الحياة، ويحبّون ضجيج الأطفال.

لا ترفعي صوتَكِ في البيت إلاَّ ساعة مداعبة وملاطفة الأطفال. فالرجل في مثل هذه الحالة لا يزعجه علوّ الصوت ولا الإكثار من ملاطفة الأطفال، بل ينظر إلى كلّ ذاك بلذّة وارتياح. عليكِ أن تهيّئي له مستلزمات الغسل؛ فقد أوصى بذلك رسول الله ﷺ.

وبعد أن يستقرّ زوجك ابدئي بالكلام معه، فإذا رأيتِهِ قليل الجواب فاعلمي أنَّه لا رغبة لديه في الاستماع أيضاً. ولا تغفلي أنَّ كثرة كلام الزوجة تشويش للزوج وإزعاج له. وكان القانون في الصين إلى ما قبل فترة وجيزة يتضمن مادّة قانونية تنصّ على أنَّ من جملة الحالات التي تبيح للزوج طلاق زوجته هي كثرة كلام الزوجة. ولا شكَّ في أنَّ الغرفة الواحدة والحدّ الأدنى من مستلزمات الحياة إذا كانت مرتّبة وكل شيء فيها موضوع في المكان المناسب بحيث يمكن العثور عليه وقت الحاجة أفضل من قَصر لا يمكن العثور فيه على الطاولة عند الحاجة إليها إلاَّ بعد ساعات من البحث والتنقيب بين الوسائل الأخرى.

النظافة أصل في غاية الأهمية يجب على الأب والأُمّ رعايته. وقد نهى رسول الله عن رمي النفايات في موضع ما، معتبراً إيّاه موضعاً لتجمع الميكروبات وحثّ على عدم ترك خيوط العنكبوت عالقة في زوايا الدار. ومن الطبيعي أنَّ الدار المليئة بالقاذورات تصبح بؤرة لتجمّع الذباب والحشرات وتصبح بالنتيجة مركزاً لنقل الأمراض.

على المرأة أن تسعى غاية جهدها دون إتلاف شيء من المواد أو رمي شيء منها خارج الدار. وقد سمعت أحد كبار العلماء مرّات عديدة يثني على زوجته قائلاً بأنَّها لا تترك شيئاً يذهب هدراً، وحتّى أنَّها تحلّي بذور الدرّاق ولا ترميها في النفايات.

من الطبيعي أنَّ الشاب يبحث عن دور أُمّه في زوجته، والشابَّة تبحث عن أبيها في مرآة زوجها، وكلّ أب وكلّ أُمّ يحبّان أولادهما بالفطرة. ويجب الالتفات إلى المحبّة بين الزوج والزوجة، وإدراك مغزى الآية الشريفة: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[١].

يجب على المرأة أن تلتفت إلى ما يميل إليه زوجها من الهوايات والأعمال؛ فالرجل الضعيف البنية الذي لا يوجد بين أقاربه شخص مفتول العضلات لا يمكنه التسجيل في نادي كمال الأجسام. وإذا لم يكن لدى الشخص الاستعداد الكافي، فلا فائدة من السعي والجهد. وإذا كان هناك استعداد وكفاءة ولكن لم تقترن بالجدّ والعمل فلا أمل في أن تكون الحياة ناجحة. ولا ريب في أنَّ إدراك المرأة لمدى قدرات زوجها هو أفضل وسيلة لتمهيدِ سُبل الرقي والنجاح أمامه.

وصف رسول الله ﷺ الكاسب بقوله: «**الكاسب حبيب الله**»[٢].

---

(١) سورة الروم، الآية ٢١.

(٢) يبدو أنَّ هذا القول ليس حديثاً شريفاً.

ومتى ما جاء في كلام الله أو حديث الرسول ذكر لعمل ما، يُشار عادة إلى ثوابه وعقابه. ولهذا أشير إلى أنَّ الكاسب حبيب الله؛ أي أنَّ عمله هذا مدعاة لمسرّة الله، وهو أيضاً يأنس بالعمل الذي يجعل منه حبيباً لله. والكسب لا يقتصر على العطارة والبقالة وما شابههما من الأعمال؛ فكلّ ما يكتسب في هذه الحياة بالعمل فهو كسب. وكلّ مَن يمارس عمل الطب أو الهندسة أو العطارة أو أي عمل آخر، ويجعل الله نصب عينيه ويمتثل لأوامره ونواهيه، فكسبه هذا يُعدُّ عملاً صالحاً. ومن الطبيعي أنَّ كلّ من لا يرغب في عمل ما ولا يستسيغه ولا يميل إليه ولا يؤدّيه على الوجه الصحيح؛ لا يكون بالنتيجة كاسباً.

إنَّ الاندفاع والحرارة التي يثيرها العمل في مَن يرغب فيه يحفّزه على اكتساب مزيد من المعلومات عنه، كي يؤدّيه على أفضل وأكثر نحو ممكن. وهذه القدرة أكثر ما تتوفّر لدى المرأة. فالمرأة قادرة على إقناع الرجل بالاهتمام بخدمة الآخرين؛ فكما أنَّ أفراد عائلته يتوقّعون منه أن يقدّم لهم خدمة، فكذلك يتوقّع منه أبناء جنسه أن يقدّم لهم ما يقدر عليه من الخدمة؛ وذلك لأنَّ النَّاس ـ وحتَّى الحيوانات، بل وجميع الكائنات ـ بحاجة إلى بعضها الآخر. وإذا تخلّف أحد منها عن أداء ما عليه، تتخلّف على أثره سائر الكائنات.

وعليها أن تبيّن للرجل بأنَّ خدمة الآخرين مدعاة لزيادة الحماس والاندفاع لدى الإنسان. وسبق لي أن ذكرتُ مرّات عديدة بأنَّ الإنسان يحصل على نوعين من العطاء إزاء فضيلتين كبيرتين من فضائل الحياة، وهما: الإيمان والعمل الصالح؛ فإذا كان الإيمان قويّاً وألزم المرءُ نفسه بأقصى درجات الطاعة والخدمة، يصبح قادراً على خلق الكرامة بإشارة واحدة. وإذا انتهج منهج الصلاح في أعماله؛ أي أن يؤدّي أعماله بنظم وترتيب وبما ينسجم مع ناموس الكون، تستجيب له آفاق الحياة. إذ أنَّ خدمة النَّاس تعتبر في الواقع خدمة للذات. ويؤكّد القرآن على هذه الحقيقة بقوله:

﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[1]، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[3]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

نلاحظ أنَّ القرآن متى ما يحضُّ الغني على البذل للفقير، ويدعو الثريَّ إلى الإنفاق على المملق، ويرغّب المتمكّن في الإحسان إلى المعوز، ويذمّ البخيل واللئيم ويتهدده بأشدّ العذاب فإنّه في الوقت ذاته يدعو الفقير إلى الصبر على فقره، ويثني على هذه الصفة الكريمة فيه، ويعده بمنزلة في اليوم الآخر إلى جانب الأنبياء والشهداء، حيث يستطيع أن يتشفّع للآخرين. القرآن الكريم يلعن العلماء إذا كتموا البيّنات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ...﴾[5].

ويجعل لمن يرشدون الجهلة إلى مجالس العلم والعلماء أجراً جزيلاً، ولكلّ مرتبة من هذه المراتب مثوبة أكبر من سابقتها.

ويجب على المرأة أن تستوعب هذه القاعدة الإسلامية وهي أنَّ زوجها إذا كانت له علاقات صداقة مع أشخاص غير صالحين عليها أن تسعى لمنعه عنهم بأساليب وطرق ليّنة ومقبولة. وفي مقابل ذلك تقوّي لديه الرغبة في مجالسة العقلاء والمتديّنين.

وبنفس القدر الذي ترى المرأة نفسها أضعف من الرجل بسبب بعض الأحوال والأوضاع من قبيل الحمل والحيض والرضاع، فهي تتحلّى أيضاً

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩٥.

(٢) سورة يوسف، الآية ٥٩.

(٣) سورة الكهف، الآية ٣٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٧١.

(٥) سورة البقرة، الآية ١٥٩.

بنقطة قوّة تعوّض عمّا بها من نقاط الضعف، ألا وهي القدرة على الكيد. ولهذا فإنَّ الزوج يرغب في أن يبثّها همومه قبل أن يتوجّه إليها بالنصح، ويميل إلى أن تواسيه زوجته في مصائبه. أمّا إذا لم تدرك المرأة أنَّ زوجها بحاجة إلى مستمع ينصت لهمومه وآلامه حتّى يشعر بالراحة، فإنّها لن تكون مثقّفة ولا محبوبة في نظره.

إذا كُنتِ قد قرأتِ الكتب التي تتحدّث عن كيفية التأثير في الآخرين، فلا بدَّ وأنَّكِ تعلمين كيفية الإصغاء إلى كلام زوجك؛ يجب أن تنظري إليه أثناء الكلام فإذا وصل إلى جملة مثيرة ابرزي الحركة المناسبة أو المظهر المناسب وكأنَّك متفاعلة معه بكلّ جوارحك، وأنَّك على استعداد للإقدام في سبيل دفع أسباب الأذى عنه. وإذا وجدت أثناء كلامه بأنَّه ينتظر منك أن تتكلّمين، بادري إلى مواساته في الكلام واطلبي إليه أن يعتقد بأنَّ المرء يجب عليه أن يبذل أقصى مساعيه في الحياة، أمّا إذا لم تتحقق بعض أمانيه، فذلك أمر ليس بيده وإنّما منوط بمشيئة الله، وكما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم**»[1]. وإيّاك وإفشاء ما يبثّه إليك زوجك من هموم ولا تُفشي ذلك حتّى لأُمّك وأبيك ولا حتّى لأُمّ زوجك وأبيه.

احذري من إظهار مثالب زوجك؛ إذ أنَّ ذلك سيرسخ في أعماق نفسه، واعلمي أنَّ الشيطان متى ما شاء أن يوسوس لك للاستهانة بزوجك والحطّ من قدره، ليس عليك إلاّ أن تذكري أمامه أنَّك يجب أن تكوني امرأة أفضل وأرفع ممّا أنت عليه حالياً. لا تقارني بين زوجك وبين أحد من الرجال الآخرين على الإطلاق، وخاصة بينه وبين زملائه في العمل. ونبّهيه على الدوام إلى أن الامتثال لأحكام الإسلام هو أفضل مناهج الحياة. ولو أنَّ الباري تبارك وتعالى كانت لديه أُعطية لبني الإنسان أفضل من الدّين لبعثها إليهم بواسطة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم

(١) قصار الحكم، الحكمة ٢٥٠.

وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام. وبما أنَّ بني الإنسان تلاعبوا بالكتب السماوية التي أرسلها الباري إليهم وحرّفوا مضامينها بالشكل الذي يحقق لهم مصالحهم الشخصية، فقد أنزل الله عزَّ وجلّ على خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً ضَمَنَ صيانته وحفظه من التحريف والتزييف. وهذا يعني أنَّ الزوج إذا اتّبع تعاليم الإسلام فإنَّه يكون قد وفّر أسباب الراحة والكمال. ولهذا السبب لا نجد مذهباً أو مسلكاً يبيح للمرأة مقارنة زوجها مع رجل آخر أو رجال آخرين.

يجب على المرأة أن لا تقول لزوجها إنَّك رجل أبله وعديم الكفاءة وإنني لم أر في بيتك خيراً، وإلاَّ فإنَّها لن تشمّ رائحة الجنَّة كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أَستَشِفُّ من مجمل المعارف الإسلامية أنَّ الله تعالى يأمر المرأة أن لا تتكلَّم مع زوجها بكلام قبيح أو كلام فيه إساءة إليه. وعلى العكس، يجب على الرجل أن لا يتوانى عن الثناء على زوجته والإشادة بها. ويكفي في هذا المجال أن نعلم بأنَّ علماء النفس في القرن الأخير أقرّوا ما جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرناً وهو أنَّ المرأة إذا قالت لزوجها إنني أحبّك. وعرف الرجل أنَّها كاذبة تتوارد على خاطره حينذاك أفكار سيّئة وهواجس مؤذية، أمَّا إذا قال الرجل لزوجته كذباً إنَّه يحبّها فإنَّ ذلك يترك تأثيرات إيجابية في نفسها حتّى وإن كانت على بيّنة من كذب ادّعائه. ويجب على المرأة أن لا تقول لزوجها: إنَّك لم تقدّم لي شيئاً، ولم أحصل على شيء منك، ولم أذق طعم السعادة في بيتك، وعليها أن لا تصف حياة زوجها بالسلبية.

وكما أنَّ كلّ ذرّة من ذرّات كيان الرجل لا تتصف بالرجولة الكاملة، وهكذا الحال بالنسبة للمرأة أيضاً، ولا كل الإفرازات التي تولّدها غدد الرجل رجالية تماماً، ولا كل ما تفرزه غدد المرأة نسائي بالكامل، ممَّا يعني أنَّ الذكورة والأُنوثة أمرٌ نسبي ذو مدارج متفاوتة؛ فما كُلّ فتاة عروس بمعنى الكلمة، ولا كل فتى عريس بمعنى الكلمة، لهذا لا بدَّ لكلّ زوج أن يكون

ملمّاً بأعمال ربّة البيت ويساعدها فيها، وكذلك المرأة يجب أن تكون خارج دار زوجها بمثابة رجل. وقد قدّمت في هذا الكتاب التوضيحات الكافية في هذا المضمار؛ بحيث لو عامل الرجل زوجته بالشكل الذي بيّنته، وتبعّلت الزوجة لزوجها على النحو الذي رسمته، لكُتِب لكلّ واحد منهما أن يكون زوجاً صالحاً، وينجحان بالنتيجة في تكوين أسرة صالحة.

أفضل عمل للمرأة

إحدى الصفات المتميّزة في المرأة الصالحة هي أنّها لا تتنصّل عن مؤازرة زوجها في أقسى الظروف. وهذه الصفة تجد مصداقيّتها في موقفين:

الأول: عندما يتوجّه إليه الجميع بالذمّ والقدح، فهي تناصره وتقف إلى جانبه.

الثاني: عندما يفتقر زوجها ويصل إلى أدنى درجات الإملاق، فهي تصمد إلى جانبه بكلّ صلابة وثبات مثلما كانت عليه مواقفها ومشاعرها في أيّام الرخاء والنعمة، وهكذا تزيل بموقفها هذا عن زوجها شعوره بالانكسار والإحباط.

هل عرضت لكم يوماً ما نعمة أدّى خوف فقدانها إلى إيجاد الرعب في قلوبكم؟ نعم إنَّ أفضل مثال على تلك النِّعمة هي المرأة الصالحة التي يقول زوجها أحياناً في نفسه: ماذا عساني أفعل مع الحياة ومع الأولاد لولا وجود مثل هذه المرأة؟ وإذا وصلت المرأة في حياة الرجل إلى هذه الدرجة من الأهمية بحيث يشعر بالرهبة لإمكانية فقدانه إيَّاها، فهذا يعني أنَّه يعيش حياة هانئة طيِّبة، وهنيئاً له جنَّة الخُلد.

إذا كان وقت زَوْجُكِ مزدحماً بالعمل يجب أن يرى المائدة جاهزة أمامه عند دخوله إلى الغرفة، لأنَّ رؤية مائدة الطعام جاهزة يخلق لديه شعوراً بأنَّ زوجته تساعده على عدم إهدار وقته.

وإذا كان زوجك من النّوع الذي يجب أن يكون مع الجماهير دوماً ولا وقت لديه لمجالستك إلاً في القليل النادر، يكفي أن تعتقدي بأنَّ ذلك يُعزى إلى أهميته وأنَّك على درجة أكبر من الأهمية بسبب كونك زوجته. وهذا ما يوجب عليك التطابق مع عمل زوجك وتنسيق حياتك مع نمط حياته، حتَّى وإن تطلَّب ذلك افتراض عدم وجوده في البيت ولو كان موجوداً فيه في الواقع. واعلمي أنَّ أفضل عمل للزوجة هو مساعدة زوجها على الرقيّ والكمال. ولعلَّ المرأة لا تجد مكسباً لها خير وأفضل من التخلّي عن أهوائها النفسية في سبيل تحقيق مصالح زوجها.

إذا وصلت المرأة إلى درجة تحمد الله على أنَّ الصفة الفلانية المفقودة فيها متوفّرة في زوجها، تكون قد حازت بذلك منزلة رفيعة في الحياة؛ لأنَّها والحال هذه أصبحت على استعداد لتكون هي وزوجها بمثابة كيان واحد.

يتمنَّى الرجال على الدوام التخلّص من بضعة أشياء؛ من جملتها الدائن ـ وهو مرض مزمن ينوأون تحت وطأته ـ والكبت الذي يسلبهم حرّياتهم، وتقف على رأس كل تلك الأماني أمنية التخلّص من صياح المرأة التي يرتفع صراخها على الأطفال أو لأمور تافهة، وخاصّة إذا كانت تلك المرأة قد قالت لزوجها ذات مرّة، يا ليتني كنت تزوّجت فلاناً واستشعرت السعادة. لأنَّ الرجل يشعر بعد هذا الكلام بحالة من الانفصال والابتعاد الدائم عن زوجته. ولا تتخذ حالات الجماع التي تقع بعد هذه الطعنة النَجلاء سوى طابع المتعة العابرة؛ أي أنَّ الرجل يضطرّ تحت ضغط الغريزة الجنسية إلى ممارسة نوع من الجماع الحيواني.

هذا الكلام المهين الذي يسمعه الزوج في تمنّي زوجته بأنَّها لو كانت تزوجت من رجل غيره، يدفعه إلى الفرار من البيت والارتماء في أحضان امرأة أخرى لأنَّ انحصار الجماع في قالب المتعة الحيوانية وتوقّفه عند تلك المرحلة، يَخلق لديه شعوراً بالحرمان من الحب، وهو أمر لا وجود له عند الحيوانات.

المرأة التي تندم على قولها لزوجها: يا ليتني كنتُ زوجة لفلان، يمكنها التعويض عن ذلك بأساليب أخرى ولكن بشرط أن لا تذكر اسماً لرجل آخر غير زوجها. فالمرأة التي تفكّر تفكيراً عقلانياً يمكنها أن تفهم بسرعة نوعية الأعمال والكلمات التي تثير غضب زوجها، وتثير فيه الحنق أكثر من غيرها. وهي ما أن تدرك الغضب الذي أثارته في نفس زوجها حتّى تسارع إلى الاعتذار منه طالبة منه الصفح عنها، وأنَّ مثل هذا الكلام لن يصدر مرَّة ثانية منها. ولكنَّها إذا لم تجد في نفسها القدرة على الإقدام على مثل هذا العمل ـ الذي يعدّ في الحقيقة كنوع من الجهاد الأكبر ـ يمكنها أن تقول له: يمكنك إن آذيتك مرَّة أخرى على هذا النحو أن تحاسبني. ولا شكّ في أنَّ الإفصاح عن هذا المطلب ومفاتحة الزوج بمثل هذا الاقتراح، يدفعه بدل الغضب، إلى استشعار أحاسيس طيّبة ونزيهة، ويقول في نفسه: إنَّ امرأتي عاجزة عن تغيير سلوكها والإقلاع عن هذا العمل. فيرضى عنك وينظر إليك نظرة اعتزاز ومودّة.

كل اقتراح تعرضه الزوجة على زوجها ولا يُقدم عليه عملياً رغم تكراره مرّات متعددة من قبلها، عليها أن تعلم بأنَّه غير راغب فيه، وأنَّها يجب أن تفكّر بشيء آخر وتمتنع عن إغضاب زوجها، فتقول له مثلاً: كنت أتصوّر الاقتراح الذي عرضت عليك كان اقتراحاً جيّداً، ولكن تبيَّن لي الآن بأنَّني كان ينبغي لي أن أكون على نحو آخر ولا أتسبّب في مضايقتك وإزعاجك.

يجب على المرأة أن تقف موقف التأييد من العمل الذي يميل إليه زوجها. لأنَّ المرء لا يستطيع الصمود إزاء العمل الذي يفرض عليه رغم إرادته إلاَّ بضع ساعات ويشعر بعدها بالتعب والملل، والأسوأ من ذلك أنَّ الحصيلة الناتجة عن ذلك لا تتصف بجودة التنفيذ ولا تقترن بسلامة وراحة المنفّذ. وعلى العكس من ذلك يمكن الاستمرار في العمل المرغوب فيه ساعات طويلة ويُنجز على النحو المطلوب ولا تنجم عنه أيّة أضرار على جسم الشخص ونفسه.

هناك مسألة تتعلّق بالزوج والزوجة يجب مراعاتها إلى أبعد الحدود وتختصّ بالنساء ذوات الأزواج كثيري المشاغل. فهؤلاء الرجال غالباً ما يكونون قليلي النوم، وحتّى أنّ اللّيل والنهار يقصران عن استيعاب مشاغلهم، ولا يكادون ينتهون من عمل حتّى ينشغلوا بعمل آخر. فإذا كانت لأحدهم زوجة جاهلة بقيمة الوقت أو كسولة، فإنّ الزوج يعيش في عذاب منها. فقد تتصل به زوجته أثناء عمله وتطلب إليه أن يأتي فوراً إلى البيت كي يوصلها إلى دار إحدى قريباتها. فيأتي الرجل على وجه السرعة، لكن المرأة تتأخّر ساعتين في البيت ويبقى هو في الانتظار. وهاتان الساعتان من الانتظار تشكّلان عبئاً باهظاً وعذاباً مريراً للرجل كثير المهام والمشاغل. ولهذا السبب تصبح معرفة أهمية الوقت بالنسبة للمرأة التي لها زوج كثير العمل والنشاط، من أهم الأمور التي يجب مراعاتها في الحياة الزوجية.

يجب على المرأة أن تلتفت إلى الوقت الذي يجب عليها أن تترك زوجها طليقاً ولا تتعلّق به، والظرف الذي يجب أن تصغي فيه ولا تتكلّم، والوقت الذي يجب أن تمتنع فيه عن استقبال ودعوة الضيوف. ولكن الأمر الذي يجب أن تجعله نصب عينيها على الدوام هو قول رسول الله ﷺ: **«ما استفاد امرء مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة، تسرّه إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله»**[1]. أي أن يكون مرآها مدعاة لسرور النفس واستقرارها وسكينتها، وأن تكون باسمة وبشوشة على الدوام وأن تكون دارها نظيفة ومرتّبة وسبباً للراحة والشعور بالأمن.

على الزوجة أن تلتفت إلى الأمور التي تثير حساسية الرجل. وهذا هو سرُّ النجاح والعثور على مفتاح السعادة. ولا فرق في ذلك بين ما يرغب فيه

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة (طبعة آل البيت) ج١٣ ص٢٩٩، ح٥٣٨٨.

وما يثير استياءه. فهو لا يحب مثلاً أن يُكنس البيت مادام هو موجوداً، أو يرغب في رؤية أحد أطفاله ليدفع عن نفسه السأم والملل. هذان الأمران يجب رعايتهما كليهما. وبما أنَّ شخصية المرأة تستقطب وتجتذب الرجل إليها، فهذه الصفة يجب أن تكون بحدّ ذاتها وسيلة لاستقطاب الرجل واجتذابه إلى البيت، وهو ما يؤدّي إلى إكبار شخصية المرأة. وعلى كلّ حال فإنَّ إدخال السرور على الزوج يعتبر نوعاً من توفير الراحة النفسية والجسدية له، وتوفير الراحة للزوج يعني تزويده بالقوة اللازمة لعمل أكثر وحياة أفضل.

لو استطاعت المرأة أن تدخل السرور على زوجها من خلال إظهار الاهتمام بعمله، تكون قد عَثَرت على طريق جديد لإدخال السرور عليه، فإذا كان كاتباً تقرأ أحياناً صفحة من كتبه، وإذا كان عطّاراً تقترح عليه طريقة لتنظيف العناب، وإذا كان معلّماً تسأله عن ردود فعل التلاميذ ازاء دروسه. وإذا كانت تريد توفير أجواء المطالعة، فما عليها إلاَّ أن تدعو الأطفال إلى الهدوء.

قد يتودّد الرجل إلى امرأته بوضع يده على كتفها أو أن يقرصها قرصاً خفيفاً، أمَّا المرأة التي لا تجيد إلقاء الكلمة المناسبة في موضعها المناسب فلا تستثمر هذه الفرصة للتحبّب إليه، بل قد تصرخ أو تتلفظ بكلام مستهجن، ممَّا يزيد من أُفق قبحها وبلادتها في نظر زوجها.

يقول علماء النفس: إنَّ الرجل الذي ينهمك بهوايات فرعية أكثر من انهماكه بعمله الأساسي فتلك علامة دالّة على أنَّ عمله الأساسي لا يشبع الجوانب الفنيّة والذوقية في نفسه. ومن هنا فإنَّ المرأة التي ترى زوجها في مثل هذا الوضع يجب أن تدرك بأنَّ حرمان زوجها من هوايته يُعدُّ بمثابة انتكاسة كبرى له. لهذا يجب أن لا تتصوّر بأنَّ فسح المجال أمامه لممارسة هوايته الفرعية يعتبر تخلّياً عنه، وإنَّما يعتبر عملها هذا بمثابة مساعدة نفسية له للترويح عن نفسه.

تؤكّد تعاليم الإسلام على جلوس أفراد الأُسرة على مائدة الطعام سوية ولا شكّ في أنَّ تناول الطعام سوية يساهم في تقوية البناء النفسي للأفراد؛ وذلك لأنَّ الكلمات العائلية التي تبعث البهجة في النفوس تؤدّي إلى تقوية آلية الهضم في الجسم، بل وحتَّى إلى فهم البيئة المحيطة على نحو أفضل. وبالنتيجة فإنَّ سلامة البدن يمكن أن تساهم في سلامة البيئة الاجتماعية.

تسود في بداية الزواج عادة علاقة حميمة وترابط وثيق بين الرجل والمرأة، بحيث تكثر الحموات في مثل هذه الحالات بالإلحاح على الزوج بالإكثار من شراء الوسائل والمستلزمات من أجل سدّ النواقص والتعويض عن نقاط الضعف. ولكن سريعاً ما تتكشّف الأمور وتخرج الحقائق من تحت الأقنعة وتطفو اختلافات الزوجين إلى السطح، فتؤدّي تلقائياً إلى صياغة الطفل الأول صياغة تختلف عن سائر الأولاد.

وعلى المرأة أن تدرك بأنَّه كلَّما طال المكوث تحت قناع التستّر كان ذلك أشدّ خيانة ونكاية للعلاقة الزوجية؛ لأنَّ ردّ الفعل يكون أشدّ وأعنف كلَّما ازدادت الفترة الزمنية الفاصلة بين وقوع الاختلافات؛ وذلك لأنَّ الرجل يشعر وكأنَّه لم يفهم الأمور طوال هذه الفترة المديدة.

يجب أن يدير الشخص محلّ عمله على أفضل نحو ممكن. وليس هناك من عمل للمرأة أفضل وأشرف وأكثر قيمة من ترتيب محلّ عملها وهو بيتها. فالرجل عليه أن يسعى لتوفير حاجات ومستلزمات زوجته وأولاده، وعلى المرأة أن لا تعتبر أي أمر آخر أكثر أهميَّة من تربية الأولاد تربية صحيحة. وانطلاقاً من هذه الرؤية التي تقدّس عمل المرأة في البيت، تكون لربّة البيت قيمة أكثر من سائر النساء. وقد كشفت الإحصائيات التي أُجريت في هذا المجال بأنَّ أغلب النساء؛ سواء كُنَّ من ربّاتِ البيوت أم من صاحبات المشاغل، عندما يسألن في سنّ التقاعد عن العمل الذي سيمارسنه فيما لو عُدنَ إلى سنّ الشباب وتزوّجنَ من جديد، فكان جواب أغلبهن بأنَّهن يفضلنَ

عمل ربّة البيت؛ لأنّهنّ وجدن حصيلة العمل الوظيفي عبارة عن مرتبات في مقابل ما لرؤسائهن عليهن من حقّ، وحصيلة الخدمة في البيت هم الأولاد، بل وكلّ الحياة وما تريده منها من حقوق.

عندما يسألني بعض الناس عن الكيفية التي يفهمون بها في أيّة مرحلة من الإيمان هم؟ أقول لهم: خذوا القرآن الكريم وانظروا في آياته واحصوا ما تعملون به منها وما لا تعملون به، وعند ذلك تفهمون في أيّة مرحلة من الإيمان أنتم. وإذا أرادت الزوجة أن تعلم في أيّة مرحلة من مراحل الزوجية هي، أقول لها: خذي ورقة وقلماً واكتبي: عندما يخرج زوجي إلى العمل صباحاً أو عصراً يخرج مسروراً ـ عندما يعود إلى البيت يرتاح ويستعيد قواه ـ لا يتجرّأ أحد عليه في البيت ولا يصرخ فيه والكل يحترمونه، وحتّى الأطفال يضعون أنفسهم تحت أمره بسبب كثرة ما رددته الأُم في آذانهم عن جهود الأب وما يتحمّله من مشاق. ويكفي تعيين درجة لهذه المطالب الثلاثة من أجل تحديد مدى نجاح الحياة الزوجية. وإذا كان المرء يحتاج إلى مراجعة ألف وخمسمائة آية من القرآن الكريم (ولا أدري عددها بالضبط، وإنّما قلتُ هذا الرقم من باب المثال فقط) لمعرفة درجة إيمانه، فإنَّ هذه المطالب الثلاثة وحدها كفيلة بتعيين مدى نجاح الحياة الزوجية.

لديَّ عيادة صغيرة توجد فيها عدّة كراسي بسيطة وطاولة عادية شبيهة بالطاولات المستخدمة في المعسكرات، وهذه البساطة تشجّع المريض المراجع على دفع أجور فحص أقلّ، أو عدم دفع أيّة أجور. فأنا أحبّ أن يراجعني الأشخاص الذين لا يستطيعون مراجعة الآخرين لإزالة الألم عن أجسامهم بسبب عدم حيازتهم على الورقة المسمّاة بالعملة النقدية. والمرضى الذين يراجعون عيادات فخمة وفيها أثاث راقٍ يخجلون من دفع مبلغ فحص قليل، ولعلَّ بعض الأطبّاء إذا طلب منهم تخفيض ثمن الفحص الطبي يقولون إنَّ الطبيب يجب أن يأخذ من حقّه على قدر عِلمه. (في حين أنَّ عيادتي تعجّ

بالمراجعين طوال الوقت). أمّا في ما يخصّ شؤون البيت فيجب الالتفات إلى مطلب آخر إضافة إلى بساطة وسائل الدار، وهو النظم والترتيب. فإذا كانت جريدة الأب ملقاة في وسط الغرفة، أو سرواله ملقياً على درج الثياب ففي ذلك دلالة على فوضى المرأة أيضاً؛ وذلك لأنَّ الغرفة إذا كانت مرتبة ومنظمة ونظيفة فإنَّها تدفع الزوج إلى رفع الجريدة من وسط الغرفة ووضعَها في مكانها الصحيح حتَّى لو ألقاها أحدٌ غيره.

ومن أعمالي الأخرى في هذا المجال، هو لصق لوحة على الحائط، ووضع ورقة تحت زجاجة طاولتي؛ الأولى مكتوب عليها: اقتصد في لحظات العمر التي تذهب هدراً، والثانية كُتبت عليها الآية الشريفة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾[1] ويعود سبب ذلك إلى كثرة مشاغلي، وهذا أمر يعرفهُ جميع الأصدقاء والمعارف وينصحونني على الدوام بأن أكفّ عن هذا الوضع في العمل. والمرأة أيضاً إن شاءت معرفة مقدار ما تبذله من وقتها للعلاقة الزوجية، فلتأخذ ورقة وقلماً وتدوّن اليوم أو الأيام التي تتصوّر بأنَّها كانت فيها ملاكاً، لتدرك بأنَّ النتيجة جاءت مذهلة، ثم تقرّر في ضوء ذلك أن تكون زوجة أمثل.

ويمكن أيضاً اتّباع طريقة أخرى في الحساب، واستشعار الخجل من بعد رؤية المعادلات والمعايير المستخلصة منها، وتلك الطريقة هي عبارة عن احتساب الأوقات التي لم تكن فيها مداراة الزوج إلهيّة، أو لم تكن حتّى إنسانية. ويتمثّل انعدام الصبغة الإلهية في عدم سير الحياة الزوجية في ضوء التعاليم الدينية والعلمية، أمّا افتقادها للصبغة الإنسانية فيتمثّل في عدم مراعاة أدنىٰ ما يجب مراعاته من الأحاسيس والمشاعر.

إذا كان تبعّل الزوجة لزوجها يحمل صبغة إلهية يتمخّض عنه ما لخّصه

---

(١) سورة الشرح، الآية ٧.

القرآن بمعنى المودّة والرحمة. أجل إنَّ الأسرة التي تسود بين أعضائها روابط ودّية ومحبّة خالصة تكون العلاقات الزوجية فيها ذات طابع إلهي، وهذه هي الصفات الإيجابية فيها وهي تتضمن في الوقت ذاته نفي الصفات السلبية مثل: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[1] ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾[2]. وتشير الأولى منهما إلى النبي عيسى عليه السلام، والثانية إلى النبي يحيى عليه السلام. فبما أنَّ العلاقة بين النبي زكريا وزوجته كانت مبنية على الحسنى والمحبّة فقد ولد لهما مولود كان برّاً بوالديه، ولم يكن عصياً؛ أي أنَّه لم يأت كنتيجة لأسلوب سيادة الأب، ولم يكن جبّاراً؛ أي لم يأت كنتيجة لأسلوب سيادة الأم. وبما أنَّ النبي عيسى لم يكن له أب، فقد كانت المسألة المطروحة بشأنه هي مسألة سيادة الأم.

ورد في الحديث الشريف: «**إنَّ الله يغضب من الرجل والمرأة، لا يرفق أحدهما بالآخر**»[3]. وعدم الرفق يعني العنف؛ فإذا كان العنف من قبل الأب فهذه الطريقة هي طريقة سيادة الأب، وينجم عنها حبُّ الابن لرجل آخر بدلاً من محبة الأب القاسي، وهذا يعني في الواقع شذوذ الابن جنسياً. أمَّا في حالة تسلّط الأُم، فالنتيجة هي ظهور شبّان مصابين بانفصام الشخصية سواء من البنين أم من البنات.

---

(١) سورة مريم، الآية ٣٢.

(٢) سورة مريم، الآية ١٤.

(٣) مكارم الأخلاق، ص٢٦٤.

الفتاة وعلاقاتها العائلية

إنَّ الفتاة التي تسلّم قيادها للشاب، والشاب الذي ينفصل عن الجميع وَينقاد للفتاة كلاهما متعطِّش للحب والحنان. فإذا انعدم الحب والحنان في الأُسرة، تبحث الفتاة عن عطف أبيها في زوجها، ويبحث الفتى عن حنان أُمّه في شخص زوجته. في مثل هذه الأُسرة تضيع جميع المعايير والقواعد الأُسرية، وسنبيّن لاحقاً ما هو السبب الذي يدفع الأولاد الذين يعيشون نزاعات الوالدين، إلى أن يكونوا ـ عند الزواج، وخاصة أثناء الجماع ـ مرآة تنعكس فيها تصرفات الوالدين؛ أي تصبح قواعد وأسس الأُسرة الجديدة كانعكاس لسلوك الأسرة السابقة.

كان الناس في عهد النبي نوح عليه السلام، حتّى من آمن به منهم، أدنى فهماً من الذين آمنوا بالأنبياء اللاحقين. وقد ورد في القرآن الكريم أنَّ المؤمنين من قوم نوح قالوا لنبيّهم (نوح) هل نعطيك مالاً لقاء هذه المتاعب والمشاق التي تحمّلتها في سبيل إبلاغ الرسالة، فقال لهم: إن أجري على الله. أمَّا الَّذين آمنوا بالأنبياء الذين أرسلوا بعده فلم يذكروا كلمة المال؛ وإنَّما ذكروا كلمة الأجر، وكان جواب كل نبي هو: إن أجري إلاَّ على ربّ العالمين. أمَّا خاتم الأنبياء فقد قال قولاً فيه دليل ساطع على خاتمية رسالته؛ إذ قال للمؤمنين الذين عرضوا عليه فكرة تقديم الأجر: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]. ويتّضح من خلال

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

هذا القول أنَّ لمبدأ المودّة بُعداً إلَهياً يستدعي تنمية هذه الخصلة في نفوس النَّاس. وزواج الشاب والشابة يجب أن تتمخّض عنه مودّة ورحمة، لا أن يكون مصدراً للثروة والجمال. وإذا كان بدافع الثروة والجمال ولم يكن مصدر مودّة ورحمة فهو يستوي عندئذٍ مع ما كان يحمله قوم نوح من أفكار.

الرجل الذي يبحث عن ملاذ يأوي إليه للاستراحة من متاعب الكفاح في ميدان الحياة، ويجد ذلك الملاذ خالياً من الحبّ والحنان ومليئاً بالضجيج والتذمّر، يحاول البحث عن ملاذ آخر ولا يكون هذا الملاذ الجديد سوى مجالس اللهو والشراب والقمار سواء بالنسبة للأشخاص المتديّنين أَم غير المتديّنين. وإذا توجّه الرجل إلى مثل هذه المجالس يكون قد تلقّى حينذاك ضربة قاضية من زوجته.

أدرك العالم كلّه اليوم أنَّ السبب في زيادة معدّل أعمار الرجال والنساء في اليابان وتفوّقها على نظائرها من أعمار الرجال والنساء في سائر أنحاء العالم وحتّى في الدول الاسكندنافية، يعود إلى الدرس الذي يعطيه اليابانيون للفتيات في المدارس تحت عنوان آداب معاشرة الزوج. ولهذا السبب يُنظر اليوم إلى الفتاة اليابانية كأفضل فتاة للزواج فضلاً عمّا تتّصف به من طول العمر. بيد أنَّ الإسلام قد جاء في ذلك الوقت بكل ما توصّل إليه البشر بعد أربعة عشر قرناً. وأفضل مثال على ذلك هو أنَّ كلّ ما تقرأونه من كتاباتي مستقى من الإسلام. والشخص المتخصص في مثل هذه الأمور يمكنه أن يعكس الإسلام على نحو أفضل.

بمجرّد أن تلاحظ المرأة بأنَّ زوجها قد تأخّر في العودة إلى البيت عن الوقت المعتاد، عليها أن تسارع للاستخبار عنه بواسطة الهاتف أو أيّة وسيلة أخرى. ويعتبر هذا السلوك أسلوباً مهمّاً ومدعاة لإيجاد المحبّة.

ورد عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إذا اغتبت شخصاً وأسأت فيه القول خفية، إذا تلاقت الأعين تشعر بكراهية لبعضها البعض**».

على المرأة أن تثني على زوجها في غيابه، وإذا اغتابه أحد أو انتقص منه، عليها أن تدافع عنه دفاعاً مستميتاً؛ إذ كلّما كان الزوج أرفع مكانة وأعلى منزلة، فإنَّ خيره ينعكس على الزوجة نفسها. ولتعلم المرأة أن الوجه الجميل لا يأسر الرجل بقدر ما يأسره القلب الودود الذي يحبّه. وقد وصف الإمام الرضا عليه السلام مثل هذه المرأة بقوله:

«النساء شقٌّ؛ فمنهنَّ الغنيمة والغرامة وهي المتحببة لزوجها والعاشقة له»[1]
ووصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل هذه المرأة بأنّها أفضل النساء وذلك في قوله:

«إنَّ من خير نسائكم الولود الودود الستيرة العزيزة في أهلها، الذليلة مع بعلها المتبرّجة مع زوجها، الحصان مع غيره، التي تسمع قوله وتطيع أمره، وإذا خلا بها بذلت له ما أراد منها ولم تبذل له تبذّل الرجل»[2]. ويجب أن لا تكون محبّة المرأة لزوجها أثناء غيابه فقط وإنّما يجب أن تخبره بحبّها إيّاه؛ فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: **«إذا أحبَّ أحدكم صاحبه أو أخاه فليعلمه»**[3] فإنَّ إظهار المحبّة في غياب الشخص دليل على نوع من الألفة القوية التي لا تستطيع أيّة قوّة أن تنال منها. أمّا إعلام الشخص حضورياً بمحبّته فينطوي على نوع من الاحترام لشخصيّته على اعتبار أنَّ كلّ إنسان يميل إلى سماع التكريم والثناء والمحبّة من الآخرين وقِس على ذلك لو أنّه علم بأنَّ زوجته لا تحبّه.

أي رجل هذا الذي لا يواجه أثناء عمله اليومي إهانة من الآخرين. إذاً فالشخص الذي يَلقى الإهانة خارج الدار، يأمل أن يلقى الاحترام في داره على الأقل. فما بالك لو أنّه لم يحترم في داره، وبأيّة شخصية وطاقة يمكنه أن يواصل

(١) مستدرك الوسائل: طبعة المطبعة الإسلامية، ج٢، ص٥٣٢.
(٢) بحار الأنوار، ج١٠٣، ص٢٣٥.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٤، ص١٨١.

عمله؟ فيا أيّتها المرأة إذا دخل زوجك إلى الدار استقبليه وافتحي له الباب وسلّمي عليه، وافسحي له المجال ليقول ما يريد، واسأليه عن أحواله، ولا تصيحي في وجهه، وأكرميه واحترميه أمام الآخرين. والأهم من كلّ ذلك هو الوقوف إلى جانبه ضدّ الأولاد. وهذا الجانب إذا لم يُراعَ حقّ رعايته، تكون له آثار هدّامة.

الأب يربّي ولده على أمل أن يكون له عوناً في غده إذا ما أصابه عارض من مرض أو شيخوخة أو عمى، فإذا ما رأى ابنه يعارضه ويصيح بوجهه ويرفع صوته عليه أو حتّى أن يقول له: «أفٍ» حسب تعبير القرآن، تنهار كلّ آماله ويتلقّى طعنة قاتلة في سويداء قلبه، وتساوره هواجس مخيفة من الغد؛ حيث يصبح هو أكثر ضعفاً ويصبح ابنه أكثر قوّة. وإذا ما وقفت الأُم إلى جانب الابن في مثل هذه الحالة، فإنَّ الموقف يؤثّر حينئذٍ في الأب تأثير مريراً لا نظير له؛ لأنَّ موقف الأُم هذا يتضمن تأكيداً على صحّة الغد الموحش؛ غد عجز الأب أمام قوّة ابنه الذي يجب عليه رعاية أبيه. والأبعد من ذلك هو أنَّ الأب يدرك من خلال هذا الموقف وضاعة وحقارة زوجته، ويحاول البحث عن جذور موقفها هذا في أسرتها. وهذا يعدّ بحدّ ذاته مشغلة أخرى تشغل بال الأَب. أعرف أسرة تتألّف من أب وأُم وابن. وفي أحد الأيّام قال أبو الزوجة لحفيده (ابن بنته) إنَّ أباك لا يرعاك ولا يعطيك شيئاً من أمواله الكثيرة وعليك أن تأخذ حقّك منه. وكانت نتيجة كلامه هذا أن أصبح هو الذي يتولّى رعاية ابنته وأصبح حفيدَه مشرّداً ضائعاً.

إنَّ استقبالكِ لزوجكِ وفتح الباب له، يبعث على الحب ويطيل العمر، ويدفع الأمراض الكامنة للأُسرة بالمرصاد. وسعادة الدنيا والآخرة رهينة بهذه الخطوات القلائل التي تخطوها المرأة نحو الباب وتفتحه لزوجها؛ لأنَّ فيها إطاعة لله ورسوله، وامتثالاً لأمرهما بفتح الباب للزوج واستقباله «**وأن تستقبله عند باب بيتها**»[1].

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٥٥١.

الأمر الآخر المهم هو حفظ سرّ الزوج؛ وإذا لم يُحفظ سرّ الرجل، فلن يتورّط بالإباحة بسرّه في داخل البيت مرّة أخرى، ويضطرّ إلى التكتّم عمَّن ينبغي البوح له بسرّه. ويجب على المرأة خاصّة أن لا تعيّر زوجها يوماً بما تعرفه عنه؛ لأنَّه سيضطرّ في مثل هذه الحالة إلى التخفّي عن زوجته حيثما ذهب.

إنَّ التذرّع على الزوج ومؤاخذته على الدوام يُثير في نفسه الاشمئزاز والملل. وينبغي عدم إعلام الزوج بكلّ المعاناة الطفيفة والآلام البسيطة التي تمرّ بها الزوجة وأطفالها. وخلاصة القول هي: يجب عدم إيذاء الزوج باللسان؛ وذلك لأنَّ رسول الله ﷺ قال:

«مَن كانت له امرأة تؤذيه، لم يقبل الله صلاتها ولا حسنة من عملها حتَّى تعينه وترضيه، وإن صامت الدَّهر، وقامت وأعتقت الرقاب وأنفقت الأموال في سبيل الله، وكانت أوَّل من يرد النار»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: **«ملعونة ملعونة امرأة تؤذي زوجها وتغمّه، وسعيدة سعيدة امرأة تكرم زوجها ولا تؤذيه وتطيعه في جميع أحواله»**[2].

كلّ امرأة ينبض في جسدها شريان من العاطفة، وتعلم أنَّ معدّل أعمار الرجال في العالم كلّه أدنى من معدّل أعمار النساء، وتدرك أنَّ ذلك يُعزى سببه إلى كيفية تعامل الرجل مع رؤسائه ومرؤوسيه ومع الدوائر والمؤسسات والزبائن وما إلى ذلك، فإنّها تجتنب الإساءة إليه قطعاً. وهذا الإدراك على درجة عالية من الأهمية بحيث أنَّه يحتلّ مرتبة بعد مرتبة الإيمان؛ فقد قال رسول الله ﷺ:

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٦، ص٣٦٣.

(٢) بحار الأنوار، ج١٠٣، ص٢٥٣.

«ما استفاد رجل بعد الإيمان بالله أفضل من زوجة موافقة»[1].

الزوجة إذا كانت على مستوى عالٍ من الفهم لا تضحك من غير سبب، ولا تضحك ضحكة تثير استياء زوجها. وأحمق النساء هي المرأة التي تضحك استهزاءً بزوجها، أو تلك التي تبكي بكاءً في غير موضعه ويثير غضب الزوج. وعليها أن تراعي حال زوجها فإذا كان غاضباً يجب أن لا تردَّ عليه في تلك الساعة كلّ ما يقول، وستفهم عندما يسكن غضبه أنَّها أمام رجل إن كان عاقلاً يعتذر إليها، وإذا لم يعتذر فبإمكانها أن تطلب منه الصفح عن زلاَّتها. وقد قال رسول الله ﷺ:

«شرّ نساؤكم التي لا تقبل من زوجها عذراً، ولا تغفر له ذنباً»[2].

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٥٣٢.

(٢) بحار الأنوار، ج١٠٣، ص٢٣٥.

المرأة وعمل الرجل والمرأة

يجب على المرأة أن لا تعيّر زوجها على الدوام بعمله؛ كأن يكون طبيباً فتقول له: طبيب وما من ليلة تمضي إلاّ وبابنا يُطرق ويوقظوننا من النوم، إنّني سئمتُ هذه الحياة، ولو كنت أعلم أنّك حارس تتولّى الخفارات الليلية ما رضيت بك زوجاً. وإذا كان بنّاءً تقول له: بَنّاءٌ ومليء بالتراب على الدوام، أو يبيع النفط وثيابه مليئة بالزيت، بيّاع فحم ووجهه أسود، بيّاع عطور وأتحسّس من رائحتك، معلّم وتنظر إليّ كتلميذة في البيت، مدير وتتصوّرني كأحد أفراد دائرتك، كاتب وعينك على الدوام على الورق لا عليّ، سائق وجالس على الدوام إلى جانب الآخرين، أو يسير في البراري. وهذه المشاغل يمكن للمرأة أن تؤاخذ زوجها عليها وتعيّره بها. وأي شغل يخلو من مثل هذه المعايب. ولكن على المرأة أن تعلم لو كان زوجها عاطلاً عن العمل لاتّجه نحو مجالس الخمر والقمار، ولانعكس سوء سمعته على أُسرتها.

يجب أن لا تطلب المرأة من زوجها تغيير عمله، وحتّى إذا عرضت عليه مثل هذا الاقتراح بأدب، يجب أن لا تصرّ عليه؛ لأنّ تغيير العمل ليس أمراً سهلاً.

لا شكّ في أنّ عمل المرأة في الدوائر الحكومية إذا كان يوقعها في الحرام فهو حرام. وقد تحدّث القرآن الكريم عن موقف آسيّة زوجة فرعون من وجودها في أجهزة الدولة الرسمية، ومع أنّ زوجها كان هو الرجل الأول

في البلد وكان مطلق الصلاحيات وهو الذي يسنّ القوانين (في ضوء كلمة الربّ التي يستخدمها القرآن الكريم للإشارة إلى معنى المشرّع الذي يضع القانون) ويعتبر شؤون البلاد كلّها حكراً لنفسه، وينادي بأعلى صوته ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] وكان يخضع له وعّاظ السلاطين وعلماء البلاط مثل: بلعم بن باعوراء، ومَصّاصي دماء الأُمّة مثل: هامان وقارون. ولا شكّ في أنّ زوجة مثل هذا الشخص يقف تحت خدمتها عشرات العبيد والجواري ـ حتّى بدون أن تؤدّي عملاً إدارياً في أجهزة الدولة ـ ولكننا نجد امرأة مثل هذا الرجل المتسلّط الطاغي يأتي رسول الله ﷺ على ذكرها إلى جانب ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام وزوجته خديجة الكبرى، ومريم العذراء أُمّ عيسى.

فقد استشهد القرآن الكريم بذكر شرّ خلقه وهو فرعون إلى جانب زوجته التي كانت أفضل نساء عصرها مشيراً إلى ضجرها واستيائها لوجودها في بلاط مثل هذه الحكومة، مشيداً بموقفها ودعائها ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾[2] ورغبتها في التخلّص من تلك الأوضاع التي لا تراعى فيها الأحكام الإلهية. فهي تدعو ربّها أن يجعل لها بيتاً عنده (عوضاً عن فقدانها للبيت في هذه الدنيا). ومن الواضح أنّ البيت هو مكان المبيت والسكينة، ويجب أن ينسجم مع ذوق المرأة. أمّا الدوائر الحكومية وأي مكان آخر يتردّد عليه الناس فلا ينسجم مع ذوق المرأة ولا يجديها نفعاً. المرأة ترجح أن تكون سيّدة بيتها لا سيّدة الدوائر الحكومية.

وعلى كلّ الأحوال فحتّى لو كانت أفضل امرأة ـ كآسية ـ تعيش في دائرة تحكمها قوانين غير إلّهية وتوقعها في الحرام والمعصية، يجب عليها أن تنسحب وتعمل كربّة بيت. ونحن إذا نظرنا إلى الأحكام الإلّهية التي تجعل

---

(١) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٢) سورة التحريم، الآية ١١.

نفقة ومخارج المرأة على الرجل، وتكلّفه بأن يوفّر لها ما يتناسب مع شأنَّها من أسباب الرفاهية، نجد أنَّ هذا المعنى ينسجم مع فكرة عدم وجود راتب شهري لها.

الإسلام الذي يُلقي بمهمة إدارة الأُسرة وتأمين حياة وحاجات الزوجة والأولاد ـ إلى حين وصول البنين منهم إلى سنّ التكليف، وإلى حين زواج البنات ـ على عاتق الرجل، كيف يوافق على عمل المرأة خارج البيت بدوافع الحاجة المادية؟

على المرأة أن تزن الأمور، بل يجب أن تأخذ ميزان العدل الإلهي بيدها لترى هل الدين الذي يجعل الجنَّة تحت أقدام الأُمّهات، استناداً إلى قول رسول الله ﷺ: «**الجنَّة تحت أقدام الأُمّهات**»[1] يرى تلك القدم خليقة بأن تطأ الجنَّة فيما لو كانت أُمّاً صالحة، أَم فيما لو كانت تعمل إلى جانب المدير العام؟ وعليها أن تقيس هل أنَّ تربية أبناء خالين من العقد يتحقق من خلال وجودها في البيت أم في دوائر الدولة؟ وهل ينشأ أولادها نشأة أفضل ويعيش زوجها عمراً أطول، من خلال وجودها في البيت أَم في الدائرة؟ المرأة إذا كانت تعمل في الدوائر الحكومية يبقى بالها مشتتاً بين توبيخ المدير، وبين غليان الحليب وانسكابه في المطبخ، والقلق على الأولاد مخافة أن يتلاعبوا بالكهرباء. فهل هذه الأمور أكثر أهمية أَم الجانب الاقتصادي؟ أمّا إذا اضطرّت للعمل خارج البيت لصالح أُسرتها، فيما لو كان عملها لا يتطلّب الاختلاط بالرجال ولا يؤدّي إلى وقوع الفساد، فلا مانع من ذلك بعد استحصال الاذن من الحاكم الشرعي.

ثبت من خلال التجربة أنَّ المرأة إذا كانت ذات وضع اقتصادي جيّد فإنَّها ترجح شراء الأشياء الكمالية ووسائل التجميل والزينة على شراء

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١٥، ص٢٨٠.

المستلزمات الأساسية. وأغلب النساء إذا كان لديهنّ مبلغ من المال، لا تنقاد لزوجها ولا تمكّنه من نفسها، أضف إلى أنَّ التعب والإجهاد الإداري لا يترك لها قدرة الاهتمام بشؤون المنزل. هذا ناهيك عن أنَّ توفّر بعض الظروف والضمان الاقتصادي ووجود الراتب، قد يؤدّي إلى وقوع الخلافات والمشاجرات.

فرعون الذي كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كانت زوجته متبرّمة من وجودها في البلاط وتدعو الله أن يجعل لها بيتاً عنده في الجنَّة؛ أي أنَّها كانت تتمنّى الموت. وممّا يدعو إلى الدهشة أنَّ خاتم الأنبياء ﷺ أثنى على أربع نساء كانت كلّ واحدة منهنَّ تتمنّى الموت. وقد ذكرتُ في موضع آخر ما يتعلّق بخديجة الكبرى وفاطمة الزهراء وتمنّي كلّ واحدة منهما الموت. وهنا أشرتُ في هذا الموضع إلى تمنّي آسية الموت. أمّا مريم العذراء فقد ورد في القرآن الكريم أنَّها قالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[1]. وقد ذهب بعض المفسّرين إلى القول بأنَّ الآية الكريمة التي وصفت ظُلم آل فرعون بأنَّهم كانوا ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾[2] تعني أنَّهم كانوا يمنعون شبابهم من العمل، ويدخلون بناتهم في دوائر الدولة.

يمكن للمرأة أن تمتهن مهنة التعليم، ولكن بشرطين:

الأول: هو أن تتلمَّس في ذاتها القدرة على أداء هذا العمل؛ فتصبح عندئذٍ كمشعل ينير الدرب للأجيال وغرس الدين والعلم في قلوبهم وإيصالهم إلى مرحلة الكمال. وفي مثل هذه الحالة لن تكون على استعداد للجلوس خلف منضدة والتفوّه بما يتعارض مع دين الله من أجل الحصول على شيء من حطام الدنيا. والأسوأ من كلّ ذلك هو أن لا يكون كلامها المخالف لدين

---

(١) سورة مريم، الآية ٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآية ٤٩.

الله نابعاً من الرغبة في الحصول على مزايا دنيوية، وإنَّما انطلاقاً من الرغبة في إرضاء أعداء الله.

الثاني: أن تعمل كمعلمة في مدرسة للبنات أو للبنين في المراحل المبتدئة ممَّن لا ينتبهون إلى الأمور الجنسية، ولا ينظرون إلى المعلّمة كرمز يجسّد إغواء الشبّان وإيقاعهم في مهاوي الرذيلة والمعصية.

عندما كنتُ أسأل الفتيان في أوروبا عن أُمنيتهم في الحياة أجابني بعضهم ممَّن قارب الدخول في مرحلة السنّ القانوني بأنَّهم يتمنون بلوغ مرحلة السنّ القانوني ليتسنّى لهم اتخاذ محام لهم لإحقاق حقوقهم من والديهم. وفهمت أنَّ أُمهاتهم كنّ يعملن خارج البيت، والولد يريد استحصال حقّه منهما كليهما. وهكذا استخلصت بالنتيجة وجود علاقة بين موضوع العمل خارج البيت وحرمان الأولاد من العواطف وحنان الأم والأُسرة، وموضوع إحقاق حقوق الأولاد.

لقد ثبت من خلال الدراسات العلمية والقضائية بأنَّ الأطفال الذين ينشأون في دُور الحضانة والمراكز المشابهة يشكّلون لاحقاً الطابور الخامس في ذلك البلد. وينبغي الالتفات طبعاً إلى أنَّ دور رياض الأطفال قد أُنشئت لأطفال معيّنين. ولا يخفى أنَّ رياض الأطفال تعتبر مكاناً مناسباً جدّاً للمرأة المضطرّة للعمل خارج البيت؛ وذلك لأنَّ أداء المهام الثقيلة الملقاة على عاتقها في الدائرة أو المدرسة أو المصنع، وتكفلها بأداء مهمّتي الدائرة والمنزل يشلّ نشاطها ولا يجعلها قادرة على النهوض بكلا المهمّتين في آن واحد؛ مهمّة مداراة مدير الدائرة أو ربّ العمل، ومهمّة مداراة الأطفال.

المرأة على العموم لا يمكنها التخلّي عن إدارة البيت، والمرأة التي تتخلّى عن إدارة البيت لا تعتبر امرأة، وإنَّما كيان طفيلي. وعلى المرأة التي تعمل خارج البيت بحجة خدمة المجتمع، أن تدرك بأنَّ القرآن يعتبر الخدمة

والإصلاح عملان ينطلقان من داخل الأُسرة، وذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[1]. والتنصّل عن إدارة البيت أمر تأباه كلّ الأديان والمذاهب.

المرأة التي لديها طفل وتعمل خارج البيت، يجب عليها إمَّا أن تصطحب طفلها إلى محلّ عملها، وإمَّا أن توكله إلى جدّته أو إلى الخادم أو الخادمة، وهذه الحالات لا يبعث أي واحد منها على الرضا، لأنَّها لا تشبع الطفل بالحنان والعواطف والتربية السليمة.

يتّضح من خلال الدراسات النفسية أنَّ الرجل الذي لديه امرأة يُعتمد عليها في ضبط شؤون البيت، إذا تذكّر البيت أثناء وجوده في محلّ عمله، يؤدّي واجبه على نحو أفضل. وبالإضافة إلى ذلك فلو أنَّ واحداً من الأولاد نبغ غداً، فهل يعزو نبوغه إلى تربية وحنان الخادمة أو الخادم أو مدير دار الحضانة؟ أم بالعكس يلقي بتبعة آلامه وعذابه على قسوة أبويه؟

يبدو من المثير للأمر لو أنَّ أحداً توجّه بالسؤال التالي إلى الموظف أو الموظّفة: هل إنَّكَ راضٍ، لكونك موظّفاً؟

يجيب الرجال مطلقاً بالإيجاب على هذا السؤال، إلى جانب الإشارة إلى جور الدوائر أو بدون الإشارة إليه، وغالباً ما تأتي إجابة الرجال مقتضبة وتقتصر على كلمة «نعم» فقط. أمَّا النسبة الغالبة من النساء فلا يكتفين بإجابة مقتضبة؛ وإنَّما يبدأن باختلاق الحجج لتزكية أنفسهن معلنات بأنَّهنَّ مضطرّات للعمل خلافاً لرغباتِهنَّ.

لقد جاء عصر التجديد، ودفع المرأة إلى العمل خارج البيت بذريعة نقص الطاقات الوظيفية والأيدي العاملة. غير أنَّ هذه المزاعم كاذبة تماماً،

---

(١) سورة التحريم، الآية ٦.

وإلاَّ فلو أنَّها كانت صحيحة لتولّت المرأة أعمالاً كبرى وشركات وكارتلات، أو لأَخَذت نصيباً مساوياً للرجال في الأعمال الخطيرة كالوزارات والمحاكم وما شابه ذلك.

لو كان هناك مجلس يضم خمسين رجلاً، لأمكن تقسيمهم على صور وكيفيات متعددة، ولكن لو كانت هناك خمسين امرأة لأمكن تقسيمهن على مجاميع وكيفيات أكثر؛ وذلك لأنَّ التنوّع في النساء أكثر منه لدى الرجال. وهذا المطلب يتنافى مع فكرة الاختصاص. أي أنَّ لدى الرجال مقدرة أكبر على الانخراط في اختصاصات أكثر. وعلى العموم فإنَّهم أكثر مقدرة من الناحية الفطرية على التخصص. ويُفهم من هذا أنَّ التنوّع والتخصص لدى الرجال والنساء متعاكس. ولهذا يجب أن يستفيد الرجل من تخصصه والمرأة من تنوّعها؛ فالتخصص مفيد لما هو خارج البيت، والتنوّع يتناسب مع حاجة البيت.

الرجل الذي يعمل خارج البيت غير مستعد لمقارنة أخلاق أيّة امرأة أخرى مع أخلاق زوجته. وهو حتّى لو عشق امرأة أخرى وأرادت عشيقته النيل من زوجته فإنَّه يأبى ذلك. أمَّا المرأة إذا كانت تعمل في دائرة ما فلا يُستبعد أن تكون سبباً لإثارة المشاكل في البيت على أثر احتكاكها بالرجال، أو نتيجة لكثرة ما تسمعه وما تراه من الآخرين.

إنَّ عمل المرأة خارج البيت يقلّل من جاذبيّتها في عين الرجل؛ وذلك لأنَّها عندما تستشعر في نفسها الاستقلال الاقتصادي تفقد قابليّتها على مفاكهة الرجل وممازحته لاستدرار اهتمامه بشؤون البيت، وبهذا تكون قد فقدت جانباً من جوانب جمالها. والرجل الذي يعمل عادة على استمالة زوجته بتقديم الهدايا والثياب ووسائل الزينة، لا يجد هذا العمل ذا فائدة بالنسبة للمرأة المستغنية في الجانب المالي. ولهذا يضطرّ إلى اتباع أسلوب آخر لاستهواء المرأة، ويبدأ بالإكثار من الزينة والأناقة والاهتمام بمظهره. وهذا

يعني بالنتيجة تبادل الأدوار وحلول شخصية الرجل بدل شخصية المرأة، وشخصية المرأة بدل شخصية الرجل، ويتجه جمال المرأة وزينتها نحو الاضمحلال والزوال.

ويمكن القول بعبارة أوضح أنَّ بطالة الرجل بما يعنيه من تحلّل شخصيته الميّالة نحو التسلّط والتفوّق تتساوى مع عمل المرأة بما ينطوي عليه من زوال شخصيتها القادرة على استمالة الزوج.

من الطبيعي أنَّ الإنسان الذي يرغب في الانتقال من مرحلة القوّة إلى مرحلة الفعل (كأن يطبّق عملياً ما يحمله من معتقدات) عليه أن يتّبع واحداً من طريقين:

امّا أن يطبّق ذلك على صورة كلام يلقيه إلى الآخرين، وامّا أن يطبّقه على شكل ممارسة عملية. وهذا المعنى ينطبق على مفهوم الحب أيضاً؛ إذ يلاحظ أنَّ الحب يمكن أن يكون على نوعين: امّا أن يكون تابعاً للغريزة الجنسية، وامّا أن يكون غير تابع للغريزة الجنسية. وأبرز ما يشاهد النوع الأوَّل بين الزوج والزوجة، فيما يلاحظ النوع الثاني في علاقة الوالدين بالأولاد. والنوع الأول من الحب لا يسري ولا ينبغي أن يسري على الأجنبي؛ سواء الأجنبي على المرأة، أَم الأجنبية على الرجل. بينما يسري مفعول النوع الثاني منه على الأجانب أيضاً، وتتكوّن علاقات محبّة عادية بين الناس. والنوع الأول من الحب يخلو عادة من الدافع المصلحي، بينما يختلط النوع الثاني منه بدوافع مصلحية. النوع الأول من الحب تتحكَّم فيه أسباب الشهوة، بينما تتحكَّم في نوعه الثاني الميول العاطفية. وبما أنَّ المرأة التي تعمل خارج البيت يتداخل ويمتزج لديها دافع المصلحة، مع حافز الحب الجنسي، لهذا السبب يفقد كلا الدافعين فاعليتهما لديها.

مجموعة من الآداب الواجبة

على الأُمّ أن تدرك بأنَّ الأَب يحبّ أولاده بقدر محبّتها لهم. وكلّما ارتفع صوتها بمداعبتهم، ازدادت رغبة الأَب في البقاء في البيت. وبالعكس كلَّما تناهى إلى أسماع الأَب صراخ الأُم على الأطفال وتأنيبها لهم وتقريعها إيَّاهم، لا يجد الأَب في نفسه رغبة في المجيء إلى البيت. ومن المحتمل في مثل هذه الحالة أن يتّجه نحو القمار أو الزنا أو تعاطي المخدّرات أو المشروبات.

لو امتنعت المرأة عن النوم بعد صلاة الصبح، وحرصت بدل النوم على إعداد الطعام وتقديم وجبة الصباح للأطفال وإعدادهم للذهاب إلى المدرسة، فإنَّ عملها هذا يبعث الخجل في نفس الرجل لأنَّه يستحي أن يرى نفسه نائماً وزوجته منهمكة بإنجاز مستلزمات وحاجات الأُسرة.

حينما يقع أحد أطفال الأسرة في فراش المرض تزداد نسبة الترقّب لدى الوالدين وينتظر كل واحد منهما المبادرة من الآخر. فكثيراً ما يحصل أنَّ الوالدين حينما يمرض أحدهما لا يراجع الطبيب. إلاَّ أنَّ الأمر يختلف كليّاً فيما لو مرض أحد الأطفال، فهما يسارعان إلى أخذه إلى الطبيب. وهذا يتطلّب من الأُم أن تمارس دورها بشكل فاعل، وتأخذ على عاتقها مهمة تمريض الطفل وتقديم الدواء له في أوقاته المحددة.

وحينما يكون الزوج في محلّ عمله وتتصل به الزوجة هاتفياً، يجب أن

تكون في غاية الدّقة والحذر كي لا يتبادر إلى ذهنه لمجرّد سماع صوت زوجته بأنَّ حريقاً أو حدثاً مؤلماً وقع في بيته. ولهذا يجب على المرأة ـ بعد أن تتأكّد بأنَّ زوجها قد رفع سماعة الهاتف ـ أن تتحدّث معه بنبرة توحي إليه بعدم وقوع أي مكروه، ولا بدّ أن تبدأ كلامها بالسلام طبعاً. ويا حبّذا لو يكون أسلوب السلام والتحية بشكل يبعث الارتياح في النفس. وحتَّى لو كان هناك خبر مؤلم يجب أن تتصرّف المرأة أولاً على هذا النحو، ثم تُنمي إليه الخبر تدريجياً؛ كأن تقول له على سبيل المثال بأنَّ شيئاً مهماً لم يحصل، وإنَّما سقطت قطرات من الماء المغلي على جسم الطفل، وظهرت عدّة فقاعات على جلده وهو حالياً يبكي ويتألَّم.

على الزوجة أن لا تتظاهر بذمّ أصدقاء زوجها المقرّبين، وعليها أن تعلن عن استيائها من خصومه بدون توجيه الغيبة والتهمة لهم. فلو أنَّ علاقة زوجها بمدير دائرة الكهرباء مثلاً كانت سيّئة يجب أن تقول لأولادهما أسرعوا لإطفاء أي مصباح لا تحتاجون إليه، فنحن لا نريد التأخّر ولا حتّى لحظة واحدة عن إطفاء الكهرباء التي يرأس إدارتها فلان.

يميل الرجل بطبيعته إلى أن يكون فاتحاً ومهيمناً ومتسلّطاً، ومن هنا يجب على المرأة حينما تريد التحدّث عن السنة الأولى للزواج أو عن ليلة الزفاف، أن تأخذ مشاعر زوجها بنظر الاعتبار؛ فالرجل لا يريد أن يتصوّر زوجته كمفعولٍ به أو كطرف مغلوب. لأنَّها أصبحت في الوقت الحاضر جزءاً من كيانه وأصبحت لباساً له وأصبح هو أيضاً لباساً لها، وهو نادراً ما يتذكّر شيئاً عن ليلة الزفاف وشهر العسل. وهكذا يجب على المرأة فيما لو أرادت ذكر مطلب في هذا المجال، أن تذكره بإيجاز، على أن يكون كلامها في موضعه. وإلاَّ فمن الأفضل أن لا تتطرّق إلى ذكر هذا الموضوع.

إذا أبدت المرأة رغبتها في الأعمال الخاصّة بالرجال من تمارين الجودو والكاراتيه، لا يتلذذ الزوج عند مجامعته إيَّاها على النحو المطلوب. وكذلك

الحال فيما لو أبدى الرجل رغبة في الشؤون الخاصة بالنساء، يلاحظ أنَّ الزوجة تظهر حالة من التمنّع وعدم التمكين له، ومن أمثلة ذلك أن يدني طفله من صدره ويدعوه إلى الرضاعة، وما شابه ذلك من المسائل الخاصَّة بالمرأة.

على المرأة أن تحرص على أن لا يكون رأسها مكشوفاً في البيت؛ وهذا ممَّا يزيد وقارها. ويجب أن تكون على هذا الحال حتّى أمام زوجها باستثناء الأوقات التي تتفرّغ فيها، ويخلع فيها الجميع ثيابهم الزائدة استعداداً للجلوس سويّة، إذ يمكنها أن تجلس عندئذٍ مكشوفة الرأس إلى جانب زوجها وأولادها. ولكن إيَّاها أن تكون قذرة وشعثة الشعر. فقد قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله تبارك وتعالى يبغض الوسَخ والشعث**».

أَمَّا المسألة التي تحظى بأهمية بالغة فهي أنَّ المرأة يجب أن لا تتعرّى أمام أولادها. وحتّى عند الاستحمام يجب أن لا تنحني أمام زوجها لأنَّ الأعضاء التناسلية تظهر عند ذاك بشكل مثير للاشمئزاز.

وفي أثناء تناول الطعام، حيث تتولّى الأُمّ عادة توزيع الطعام على الأولاد، يجب عليها أن تبدأ بالأصغر ثم تتدرّج نحو الأكبر. وإذا كان هناك مستخدم أو فرّاش أو خادم، يجب تقديمه على الآخرين.

من الأفضل أن يكون لكلّ واحد من الأولاد خزانة منفردة تُخصص إحدى خاناتها للثياب، والأخرى للكتب، والثالثة لأشيائه الأخرى.

تميل المرأة مبدئياً إلى العيش في المدينة التي يوجد فيها والديها. ولكن الموظفين كثيرو التنقّل بين المدن، وتجدهم كلّ يوم في مدينة. وهنا يجب على المرأة أن لا تستشعر الغربة في مثل هذه الظروف، لأنَّها تستقي في كل مدينة نوعاً من التجربة، ولا ينبغي لها أن تلوم الرجل أو تقرّعه بسبب المجيء بها إلى هذه المدن التي تشعر وكأنَّها غريبة فيها.

أكّدتُ على الرجال ـ في المواضع التي بحثتُ فيها موضوع مداراة

الزوجة ـ بالتحمّل. ولكن توجد حالات لا يمكن للرجل تحمّلها، وعلى رأسها تحلّل الزوجة وتهتّكها. فهو إذا يتحمّل ذلك يكون قد جعل من نفسه ديّوثاً. ويأتي في المرتبة الثانية أي قول أو عمل يصدر من المرأة، سواء باللّسان أو باليد أو بالأعضاء الأخرى بحيث يحول دون تقدّم الرجل ورقيّه. كأَن يكون ميّالاً إلى المطالعة، وزوجته تفسد عليه أجواء المطالعة، أو أن يكون صاحب دكّان ويريد البكور إلى عمله، ولكن زوجته تبقى نائمة صباحاً، فيذهب إلى دكّانه بلا إفطار، وما شابه ذلك من الأمور التي تخيّل للمرء بأنَّ زوجته تقف مانعاً دون تقدّمه. وهذه واحدة من الحالات التي يشكو منها الأزواج خارج البيت.

إنَّ عدم تحمّل الرجل في مثل هذه الحالات لا يعتبر أمراً مجهولاً في نظر علم النفس السلوكي، وسبب ذلك يعود إلى أنَّ المرأة لا تدرك بأنَّ كلّ تقدّم يحرزه زوجها في مدارج الرقي يعتبر مفخرة لها وامتيازاً باهراً لصالحها. وعكس ذلك صحيح أيضاً. أي أنَّ الزوج الذي يرى زوجته تسايره وتحثّه وتعاضده على الرقي والتقدّم. تراه يعرب في كل مكان عن امتنانه لها. وهذا من الأمور العجيبة طبعاً؛ وذلك لأنَّ معظم الرجال لا يحمدون زوجاتهم إلاّ عندما يوجّه إليهم سؤال بهذا الخصوص. والأغلبية منهم لا يذكرونهنَّ بخير أو شرّ، وإذا سُئلوا يقدمون جواباً وسطاً بين هذا وذاك، أو يكتفون بقول: «الحمد لله ربّ العالمين»، والبعض الآخر منهم يعبّر عن عدم رضاه عن زوجته بإيماءَة أو إشارة. ولكن توجد حالات يبادر فيها الرجل ـ بمجرّد أن يرى الأجواء مؤاتية ـ إلى الثناء على زوجته والإشادة بها، ومن جملة تلك الحالات هي الحالة التي سبقت الإشارة إليها آنفاً.

كان أحد معلّمي درس الرياضيات يطالع في كتبه الدراسية ليلاً ليتسنّى له إلقاء دروسه في اليوم التالي باتقان. وكانت من عادة زوجته أن تنام مبكراً. ولكنّها لمّا رأت رغبة زوجها في المطالعة، قالت له سأخيّط بعض الثياب أو

بعض الأزرار لكي لا تشعر أنت بالنُعاس. وجاءت ببعض المستلزمات التي يحتاجها الزوج. ولمَّا رأى الزوج هذا التشجيع من زوجته نهض وتناول كتباً أخرى وطالعها. ومن الواضح أنَّ الزوجة تريد من خلال موقفها هذا أن تبيِّن لزوجها بأي نحو ممكن بأنَّها تحرص على أن يقف زوجها غداً شامخ الرأس أمام الطلاَّب.

وإذا كان زوج المرأة صاحب دكّان، يجب أن توقظه مبكراً وتهيّيء له كلّ شيء، وترغّبه في البكور إلى عمله وتأتي على ذكر بعض الروايات الواردة عن أئمة الإسلام في فضيلة النهوض ومزاولة العمل مبكّراً.

وعلى العكس من ذلك إذا كان الزوج راغباً في المطالعة ليكتسب القدرة على الإجابة على أسئلة الطلاّب في الغد، وكانت زوجته تعكّر عليه أجواء القراءة بصخبها أو بما تشيعه من فوضى في البيت، من الطبيعي أن يتبادر إلى ذهنه بأنَّ زوجته تجلب له الفشل والانحطاط. فتستقرّ قسوة زوجته في أعماق نفسه. حتّى تتغلّب هذه المشاعر على صبره يوماً ما. وعلى المرأة أن تشجع الزوج على الهوايات الثانوية التي تجتذبه إلى البيت وتبقيه فيه من أمثال ترتيب المكتبة، والمزهريات، وجمع الطوابع والصور وما شابه ذلك.

من جملة الأمور التي ينبغي للمرأة مراعاتها هو اجتناب الغيبة والنَميمة؛ لأنَّ كلّ مَن يكثر من غيبة الآخرين والنَّيل منهم لا بدَّ وأن يتبادر إلى ذهن السامع بأنَّ هذا الشخص يغتابه وينال منه أمام الآخرين. وهذا هو الحقّ؛ وذلك لأنَّ مَن يغتاب الآخرين أمامك لا بدَّ وأن يغتابك أمام الآخرين. فضلاً عمَّا يوجده ذكر مثالب الآخرين لدى الزوج من سوء ظنّ بهم، وهو ما يفضي بالنتيجة إلى فقدانه لمجموعة من أصدقائه.

عندما تلتقي النسوة قد يسوقهن الحديث إلى الغيبة أو حتّى إلى

الانتقاص من بعولتهنّ ونشر مثالبهم، وقد تلوم إحداهنّ الأخرى على قبولها بالزواج من بعلها، وهكذا فإنَّ مثل هذه الكلمات تقدح شرارة الاختلاف في الأسرة. والأسوأ من ذلك هو إكثار المرأة من مجاملة زوج صديقتها ومفاكهته ومضاحكته لأنَّ عملها هذا يوجد الشكّ في قلب صديقتها ازاء زوجها. وأفضل سبيل يحول دون اغتياب النساء لأزواج صديقاتهن هو أنَّ المرأة إذا سمعت صديقتها تغتاب زوجها تقول لها لا أدري لماذا تزداد محبّتي لزوجي كلّما أكثرت أنتِ من غيبته؟ وهكذا تكون المرأة قد كبتت هذه العادة النفسية القبيحة لدى صديقتها. بل ومن الأفضل لها أن تقطع علاقتها مع أمثال تلكنّ النسوة.

غضب أعضاء الأُسرة

يجب على المرأة أن تكثر من تمريض الرجل والعناية به عند مرضه. وإذا غادر البيت إلى محلّ عمله وهو متألّم أو محموم يجب عليها أن تتصل به هاتفياً للاستفسار عن صحّته. وإذا لزم الفراش في البيت ينبغي أن تقول له بين الحين والآخر هل تحسّن وضعك إن شاء الله، وعليها أن تحرص على تقديم الطعام له وإعطائه دواءه. وإذا أعربت له عن استعدادها لتقديم مهرها لمعالجته أو مداواته، يكون لكلامها وقع شديد التأثير في تحسّن صحته.

الآية الشريفة: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1]، والحديث النبوي الشريف: «**إن من خير نسائكم التي تسمع قول زوجها وتطيع أمره**»[2] وغيرهما من الآيات والروايات الأخرى تدلّ على أنَّ الأُسرة يجب أن تخضع لإشراف الأب من أجل تقسيم الواجبات والحقوق فيها وتسيير سائر شؤونها. إلاَّ أنَّ ذلك لا يحرم المرأة من حقّ القيادة أيضاً؛ لأنَّ الزوج يتولَّى عملية الإشراف، والزوجة تكون هي سيّدة البيت. فقد جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ما حقّ الزوج على المرأة؟ فقال لها: «**تطيعه ولا تعصيه...**»[3].

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.

(٢) البحار، ج١٠٣، ص٢٣٥.

(٣) البحار، ج١٠٣، ص٢٤٨.

وقال ﷺ أيضاً: «**شرّ نسائكم الهنفصة العنفصة**»[1]. وروي عنه ﷺ أنّه قال: «**ألا أخبركم بشرّ نسائكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إنَّ من شرّ نسائكم العقيمة الحقودة...**»[2].

ومعنى هذا أنَّ الرجل إذا تدخّل في الأعمال الخاصة بربّة البيت، يجب على المرأة أن تتظاهر بالانصياع لرأيه، أو أن تبيّن له بأدب بأنَّ الأمر كما تقول هي.

يتّبع قسم من النساء أساليب مختلفة للانتقام من الزوج وإيذائه كأن تغضب مثلاً أو تمتنع عن تناول الطعام وتكثر من التذمّر والدمدمة. وإذا لقيت زوجها في السوق أو في الشارع تعرض عنه كأن تشيح بوجهها إلى دكّان أو إلى جدار إلى أن يمرّ. وهذه السلوكية شبيهة بالمواد المخدّرة التي يزداد المرء تعطّشاً لها كلّما أكثر من تعاطيها؛ فيتحوّل التذمّر إلى عادة من العادات اليومية في الحياة، ويجلب على الأُسرة أضراراً قاتلة لا يقتصر تأثيرها على الأَب والأُمّ فقط؛ بل يمتدّ إلى الأولاد ويدعوهم إلى الفرار من هذه الأجواء المقيتة، والوقوع في فخّ من فخاخ الشرّ والضياع، أو أن ينحاز بعضهم إلى جانب أحد الأَبوين ويدخل في صراع مع مَن يلتزم جانب الحياد من إخوانه، أو يناهض من ينحاز منهم إلى أحد آخر من الأبوين، ليبقوا مختلفين مع بعضهم إلى آخر العمر.

والضرر الآخر الذي ينجم عن ظاهرة كثرة التذمّر في البيت هو عزوف الأولاد عن الزواج بنيناً كانوا أَم بناتٍ؛ لأنَّ البنت ترى أُمّها مظلومة وأباها ظالماً، أو بالعكس، وكذلك الابن يتصوّر أُمّه ظالمة وأباه مظلوماً، أو بالعكس.

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٥٣٢.

(٢) الشافي، ج٢، ص١٢٩.

إذاً مِن جملة الأمور الخطيرة في حياة الأُسرة هي ظاهرة التذمّر والتشكّي والاستياء، حيث يجب أن تقتلع منذ المرّة الأولى بِسلاح الإيمان. فالمرأة عندما تغضب تذهب إلى دار أبيها، أو يغضب الرجل فيتّجه نحو بيت أمّه، ممَّا يترتّب على ذلك وقوع صراعات لا يخمد أوارها بين الأُسرتين اللتين تجير إحداهما المُعتدي، فيما تُجير الأخرى المُعتدى عليه.

إنَّ الغضب والتذمّر يورثان أضراراً فظيعة قد يكتسبها الفتيان والفتيات الذين يتربّون في هذا البيت الذي يُعتبر بمثابة مدرسة لهم، وينقلونها بعد زواجهم إلى أُسر قد لا تعرف للغضب والتذمّر معنى. أمَّا إذا صادف وأن نقل أحد الفتيان أو الفتيات هذه العادة إلى أسرة تجيد هذا العمل فهناك يقع البلاء الأكبر الذي وصفه أهل البيت عليهم السلام بأنَّه الداء الذي لا يكون منه الجار ولا الأُسرتين في راحة. أو لِنَقُل بعبارة أخرى إنَّه الداء الذي يسوء الأصدقاء ويسرّ الأعداء.

يجب على الزوج والزوجة أن يعرضا ما لديهما من استياء وتذمّر حيال بعضهما الآخر، على انفراد وبأسلوب مؤدّب، كأَن يقول أحدهما للآخر: لماذا قصّرتَ في حقّي وفعلت معي كذا وكذا؟ ومن المؤكّد أنَّ كل من يتجنّب أهواءه النفسية في سبيل الله ينال درجة عالية من القُرب الإلهي. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أيّما مسلمين تهاجرا، فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان؛ إلاَّ كانا خارجين عن الإسلام، ولم يكن بينهما ولاية، فأيّهما سبق إلى كلام أخيه كان السابق إلى الجنَّة يوم الحساب**»[1].

وروي عنه أيضاً أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**مَن صبرتْ على سوء خُلُق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسية بنت مزاحم**»[2].

---

(١) البحار، ج٧٥، ص١٨٦.

(٢) البحار، ج١٠٣، ص٢٤٧.

من الطبيعي أنَّ الرجل الذي يتعامل يومياً مع مئات النماذج من الزبائن والمدراء والمسؤولين والعاملين، ويواجه في اليوم الواحد صنوفاً من التشجيع والتوبيخ والمساومات، ويأتي إلى البيت بأعصاب مرهقة، يأمل أن يتفهّم أعضاء الأُسرة غضبه وحالته النفسية، ويعطونه الحقّ فيما لو زعق أو صرخ على اعتبار أنّه متعب ومرهق. وبمجرّد أن يلاحظ بأنَّ أعضاء أُسرته متفهمون لحالته ويتجنّبون الردّ عليه حتّى يبادر إلى الاعتذار منهم، ويزداد على أثر ذلك حبّه لهم. وإلاّ فإنَّ الرجل الذي يأتي إلى بيته متعباً وغاضباً إذا صاح وردّت عليه زوجته بصيحة أعلى، ويردّ عليها الجواب، فتردّ هي عليه بصرخة أعلى، فإنَّ الأمر ينتهي بهما إلى ما لا يحمد عقباه. وعلى الرجل والمرأة أن يدركا بأنَّ هناك حالات تطرأ عرضاً، ويمكن لكلٍّ واحد منهما استغلالها للتقرّب نحو الآخر. وإحدى تلك الحالات هي هذه الحالة التي نتحدّث عنها. وقد قال رسول الله ﷺ **«خير نسائكم التي إن غضب زوجها تقول له: يدي في يدك لا أكتحل عيني بغمضٍ حتى ترضى عنّي»**[1].

إنَّ البيوت لا تقاس بكمية ما فيها من الأشياء، وإنَّما ينظر إلى كيفيتها. فلو كان زِرٌّ واحد من أزرار ثياب الرجل أو المرأة حرام لا يمكنهم الصلاة بذلك الثوب، ويُسألان عن ذلك الزر يوم القيامة. وإذا كان عليهما دين ولديهما بيت، يمكنهما الاحتفاظ بالبيت الذي يتناسب مع شأنهما، ودفع الدين عن طريق آخر. ولا يمكن لأحد دخول بيت آخر إلاّ بعد الإذن من الشخص الذي يعيّنه الشرع. وإنَّما تُعرف أهميّة البيت عندما يأوي إليه الرجل وهو مُتعب ومرهق الأعصاب، إذ يبدو البيت في نظره حينذاك وكأنَّه قُرْصٌ مهدّئ للأعصاب. ولكن ما أتعس الرجل الذي لا يرى البهجة خارج البيت ولا في داخل البيت. فمثل هذا الشخص يتراءى له في الساعة الأخيرة من

---

(١) البحار، ج١٠٣، ص٢٣٩.

عمله عندما يتذكّر البيت وكأنّه مستجيرٌ من الرمضاء بالنار. ولهذا تراه يحاول الفرار على الدوام ليعثر على ركن هادىء يأوي إليه. وإذا طال به البحث قد يجد نفسه مضطرّاً للإيواء إلى بيت امرأة أخرى يجد عندها السكينة لبعض الوقت. فالبيت بالنسبة للرجل بمثابة الأُمّ بالنسبة للطفل. فإذا كانت الأم تلاطف طفلها فهو يتّجه إليها ويرتمي في حجرها، وإذا كانت تضربه فهو يأتي صوبها ويرتمي في حجرها أيضاً. والرجل أيضاً عندما يملّ التجوال والنزهة يحنّ إلى البيت، وكذلك إذا تعب من العمل ومن معترك الحياة فلا بدَّ له من التوجّه نحو البيت، ولكن البيت الذي يرغب الرجل في الفرار منه يكون حكمه كحكم زوجة الأَب بالنسبة للطفل، وليس كحكم الأمّ.

مَن يريد الوقوف على أهمية البيت عليه بقراءة القرآن. أليس العلم عبارة عن مجموعة من المعلومات والمعارف التي تنبثق عنها أشياءَ يمكن إدراكها بواحدة من الحواس؟ وأليس باب العلم وموضع الدخول إلى مدينة العلم على جانب كبير من الأهمية؟ وهل المجتمع الإنساني قليل الأهمية، أَمْ أنَّ الإنسان ليس على درجة بالغة من العظمة؟ وهنا يؤكّد القرآن على أنَّ إصلاح المجتمع ينطلق من تلك النقطة المسمّاة بالفرد، ويرى أنَّ باب الدخول إلى مدينة العلم تلك يبدأ من البيت، ويؤكّد أنَّ الإصلاح يجب أن يبدأ منها، وذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ...﴾[1]. معتبراً البيت والأُسرة باباً للمجتمع ومدخلاً يمكن الولوج منه لممارسة عملية الإصلاح.

إذاً فالبيت على جانب كبير من الأهمية، وتحتلّ إدارته مركز الأهمية فيه. وهذا يعني أنَّ ربّة البيت تفوق في أهميتها المرأة التي تعمل على الآلة الكاتبة في الدوائر الحكومية.

---

(١) سورة التحريم، الآية ٦.

من دواعي السعادة أنَّ النساء المتعلّمات اللواتي يمارسن عملهن كربّات بيوت يدركن معنى كلامي أكثر من غيرهنّ، وأنا أشعر بالعجز عن وصف مناقبهنَّ؛ لأنَّ الإنسان كلَّما اتّسعت دائرة معلوماته، ازداد ثقل مسؤولياته. والمرأة المتعلّمة الفاهمة الملتزمة تدرك جيّداً أنَّ البيت ـ حتَّى وإن كان بسيطاً وقليل الأثاث، وكان مرتّباً ومنظماً ونظيفاً ومليئاً بالحيوية ـ يفوق في حُسنه دار الثري المليئة بالأثاث فيما لو كانت الأشياء فيه مبعثرة وغير منسّقة على ما يرام.

المرأة التي تعمل كسكرتيرة للمدير العام، أو كوزيرة، لا تجيد سوى التوقيع على الورق، أو أنَّها تتقن التظاهر ببُعدٍ واحد فقط من أبعاد الحياة. أمَّا الفتاة أو الزوجة فيمكنها من خلال إدارة شؤون البيت الإبداع في فنون متعددة، ويتسنّى لها أن تكون معلّمة للتربية والأخلاق.

من المحتمل أيضاً أن يكون عمل الرجل في البيت أيضاً، كأن يكون كاتباً أو شاعراً أو رسّاماً، وهنا يجب على المرأة أن تنظر إلى عمل زوجها بعين التوقير والاحترام، وعليها أن تسعى لتوفير الأجواء الهادئة التي يتطلبها عمله. ومع أنَّ عمل المرأة في إدارة شؤون البيت يقترن أحياناً بالضجيج والضوضاء مثل غسل الصحون وما شابه ذلك إلاَّ أنَّها على كلّ حال يجب أن تراعي عمل زوجها. فإذا رنَّ جرس الهاتف مثلاً عليها أن تسارع إلى رفع السماعة، فإذا كان زوجها مشغولاً ولم تكن المكالمة الهاتفية فورية يمكنها أن تقول: الرجاء الاتصال بعد ساعة. وعليها أن تحثّ الأطفال على الهدوء. وخلاصة الكلام يجب عليها أن توفّر الأجواء الكفيلة بتمشية عمل زوجها والحفاظ على مصلحته. وعليها أن لا تلمس كتبه وأوراقه، وإنَّما تقول له إن كان هناك كتاب يستحقّ القراءة ضعه على حدة ليتسنّى لي القراءة إذا توفّرت لي الفرصة.

لا ينبغي للمرأة سؤال بعلها عن الوجهة التي يريد الذهاب إليها اليوم،

ولكن بإمكانها أن تسأله عمّا يحب أن يتناوله من الطعام. أمّا بالنسبة إلى المكان الذي يذهب إليه فبإمكان المرأة أن تقول له مسبقاً: لو أحببت أن تخبرنا بالموضع الذي تريد الذهاب إليه اليوم حتّى يمكننا معرفة مكانك فيما لو حدث طارىء ـ لا سمح الله ـ كأن تحترق يد الطفل مثلاً أو يلسع أحدنا زنبور نحل، أو لكي نستطيع الاتّصال بك هاتفياً أو إعطاء عنوان لمن يكون له معك عمل عاجل. وإذا لم يعلن الزوج عن الوجهة التي يذهب إليها وتأخّر عن المجيء ليلتين أو ثلاث، فلا داعي للتدقيق والاستفسار. وإذا تكرّر هذا العمل أكثر من مرّة واحدة يجب عندئذٍ تقصّي حقيقة الأمر بشكل لا يثير استياء الرجل؛ كأن تقول له مثلاً منذ ثلاث ليالٍ وأنا في قلق مخافة أن يكون قد وقع لك مكروه. فإذا تجاهلها الرجل ولم يصرّح لها بالحقيقة يمكنها أن تطلع أباها أو أخاها على الأمر، وتخبرهم إن كان زوجها يبقى في محلّ عمله أو يؤدّي عملاً إضافياً، فليتركوه وشأنه من غير أن يشعر بمراقبتهم له. أمّا إذا كان يرتاد أماكن بيع الخمور أو الملاهي أو أماكن لعب القمار، فهنا يجب أن تتنحّى المرأة جانباً ولا تتدخّل وتترك الأمر للأصدقاء ووجهاء الحارة والعقلاء الموثوقين من أجل استطلاع حقيقة الأمر وإرشاده إلى سبيل الصواب. أمّا إذا دعا الرجل أصدقاءه إلى مجالس الخمر وتعاطي المخدّرات في بيته ـ وهي أمور تحرم المشاركة فيها والمساعدة عليها ـ فيمكن للمرأة أن تقول له بأدب ولين، إنَّ هذا العمل حرام والمساعدة عليه حرام أيضاً وأنا لا أستطيع أن أقدّم لك أي عون مخافة عذاب الله. ولكن إذا كان الرجل يعقد في بيته مجالس دينية وعلميّة؛ فعلى المرأة أن تشجّعه على ذلك وتساعده على استضافة المشاركين فيها.

على المرأة أن تلتفت إلى ظاهرة مهمة في الحياة الزوجية وهي: مجيء أو عدم مجيء زوجها إلى البيت، ويجب عليها أن تلتفت إلى السبب أو الأسباب التي تدفع زوجها للتهرّب من البيت والأطفال ـ إن كان ممَّن يكثرون

التغيّب عن البيت ـ وعليها أن تدرك بأنَّ هناك ثلاثة عوامل مؤثّرة في هذا المجال، وهي: وضع البيت، ووضع المرأة، ووضع الرجل. والعاملان الأوّلان بيد المرأة وتحت اختيارها.

على المرأة أن تكون على الدوام نظيفة ومرتّبة ومتزيّنة، وأن تبتعد عن الاستياء والغضب والتمرّد، وأن تعتني بثيابها وثياب أطفالها وتهتم بإعداد الطعام، وأن يكون بيتها نظيفاً ومرتّباً. فقد قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الإسلام بُني على النظافة**»[1]. وقال أيضاً: «**الإسلام نظيف فتنظفوا فإنّه لا يدخل الجنَّة إلاَّ نظيف**»[2]. وجاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3].

اكنسي البيت كلّ يوم وامسحي الغبار والتراب، وإذا اتّسخ مكان سارعي إلى تنظيفه ولا تتركي النفاية مُلقاة في أحد أركان البيت، ولا تلقي فضلات الطعام هنا وهناك. ولا تضعي الأطعمة قرب المغاسل وخاصة إذا كانت المغاسل مجاورة للمرافق الصحيّة أو في غرفة مجاورة لها؛ لأنَّ كل موضع قذر يصبح بؤرة مناسبة لنموّ المكروبات والجراثيم، وموضعاً مناسباً لتجمّع الذباب والبعوض وما شاكل ذلك. لأنَّ هذه الحشرات تدخل المرافق الصحيَّة وترتاد الأماكن القذرة وتنقل ما فيها من الجراثيم إلى مختلف الأماكن. ولا يفوتك تنظيف الغرف من الأتربة وخيوط العنكبوت. وهذه الأمور كلّها من جملة الإرشادات الدينية.

اجمعي القمامة في أكياس مغلقة، ولا تلقيها في الزقاق وفي الشارع، فهناك أيضاً يجتمع عليها الذباب الذي لا بدّ وأن يدخل إلى دارك بعضه وينقل إليه الجراثيم. فغرفتك بمثابة بيتك، وباحة الدار بمثابة الزقاق، وشارعكم هو

---

(١) المحجة البيضاء، ج١، ص١٦٦.

(٢) مجمع الزوائد، ص١٣٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

بمثابة المدينة بالنسبة لكم. ونظافة هذه الأماكن لها تأثير في سلامتكم. عليكِ أن تغسلي لفافات الطفل جيداً أو تستعملي اللفافات الجاهزة وارميها بعد استبدالها في أكياس مغلقة. وإذا اتّسخ جانب من البيت بالدهن أو الزيت اغسليه فوراً بالماء. واغسلي الأواني بعد الانتهاء من تناول الطعام مباشرة. وذلك لأنَّ الأواني القذرة إذا تراكمت فوق بعضها تنمو فيها المكروبات وتسبب لكم أضراراً كثيرة. ولا تغسليها بالماء الراكد، وإذا غسلتِها بالماء الراكد فلا بدّ أن تغسليها في المرة الأخيرة بالماء الجاري. ولا تتركي شيئاً من الفضلات قرب الثلاَّجة أو قرب المطبخ. ويجب أن يكون ظرف القمامة بعيداً عن تلك الأماكن. ولا بدّ أن تكون ثيابك وثياب الأطفال نظيفة وصحيّة. نظّفي كل ما يؤكل وضعيه في الثلاَّجة نظيفاً مغسولاً. فالفواكه ترشّ عليها السموم عادة عندما تكون في الأشجار، فلا بدّ من أن تُغسل. وقد بحثت في موضع آخر جميع الموضوعات المتعلّقة بغسل اليدين قبل تناول الطعام، إضافة إلى السواك والوضوء وتقليم الأظافر. فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**بئس العبد الوسخ الشعث**»[1].

عليك بترتيب أثاث البيت ووسائله لأنَّ ذلك ممَّا يسهل مهمة إدارة شؤون البيت واجتنبي شراء التحف والكماليات لأنَّ أثمانها عبارة عن أموال محبوسة يجب أن توضع تحت تصرّف العمّال والفلاَّحين وتدور ضمن عجلة الاقتصاد. ويجب أن تكون جميع الظروف والمستلزمات التي يحتاجها أفراد الأسرة دائماً في متناول اليد، وتوضع بقية الأشياء حسب ضرورتها. ويجب أن يكون للملعقة والشوكة والسكين موضعاً منفرداً. أن يكون موضع الثياب مرتّباً ونظيفاً، ويكون لكلّ شخص مكان مخصص لثيابه. وإذا لم يكن هناك سرير للنوم، لا توجد ثمّة مشكلة، وإذا كان هناك سرير يجب أن لا يكون

---

(١) الشافي، ج١، ص٢٠٨.

نابضياً لأنَّ السرير النابضي يسبب آلاماً في الفقرات، بل يجب أن يكون صلباً. أمَّا الأوراق المالية والنقود فيجب أن تحفظ في مكان حصين. ومن الأفضل أن يكون في الغرفة أقلّ ما يمكن من الرفوف لأنَّها تكون عادة موضعاً لتجمع الجراثيم والمكروبات والتراب والغبار.

وهناك أشياء يجب أن تحفظ في أماكن باردة بعيداً عن النار وعن متناول أيدي الأطفال كالنفط والبنزين.

الوسواس

يجب أن لا يصل الاعتناء بالنظافة إلى حدّ الوسواس. فالإسلام يقول بأنَّ كلّ ما تستطيع القسم على نجاسته فهو نجس، وإلاَّ فهو طاهر. والمعيار في طهارة ونجاسة الأشياء هو ما أقرّته الشريعة الإسلامية، وكلّ ما يُوقن من نجاسته يجب تطهيره بالماء على النحو الوارد في الأحكام الشرعية. وكلّ مَن يعلم بأنَّ التطهير بالماء مرّتين يكفي، وطهّره أكثر من ذلك يكون كمَن يُقال له اذهب إلى العراق فيذهب إلى الشام.

كنتُ في أحد الدروس أتحدّث في مبحث طهارة الماء، وعندما وصلت في حديثي إلى الدعاء المأثور: «**الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً. ولم يجعله نجساً**» سألني أحدهم: إذا قلنا: جعل الماء طهوراً، فما الداعي إلى القول بأنَّه ليس نجساً؟ فقلت له: إنَّ عبارة «لم يجعله نجساً» خاصة بأولئك المصابين بداء الوسواس.

يراجعني بين الحين والآخر في عيادتي الطبية آباء أو أزواج تعاني بناتهم أو زوجاتهم من ظاهرة الوسواس. ومن الواضح أنَّهم قد ضاقوا ذرعاً بهذه الحالة وجاءوا يلتمسون لها العلاج. وهم محقّون طبعاً لأنَّ المرأة المصابة بالوسواس تضيّق الخناق على أسرتها، وتخلق فوضى في الموازين والمعادلات. وأذكر على سبيل المثال لو أنَّها أرادت تقديم قدح شاي لزوجها، فإنَّها تأتي بقدح كانت غسلته قبل ساعة وتضعه في المغسلة وتأتي بخرطوم الماء، وتملأ المغسلة إلى

حدّ الكرّ وتبقى تطهر وتشطف إلى ما شاء الله. فإذا كان وقت الزوج ضيّقاً يأخذه الغضب. هذا فضلاً عن تبذير الماء، والأَهمّ من كلّ ذلك هو تجاهل الأحكام الشرعية التي يجب أن تكون سبباً لتقوية روح إطاعة القانون لدى الإنسان. بينما نراها تتحوّل لدى المصابين بالوسواس إلى نزعة للتمرّد على القانون.

من الطبيعي أنَّ الوسواس الفكري مضرّ أيضاً. فقد تفضي الوساوس بالمرأة إلى الشكّ بزوجها؛ فلو تحدّثت امرأة بواسطة الهاتف، يلاحظ أنَّ مثل هذه الزوجة تقيم الدنيا ولا تقعدها. والمرأة المصابة بالوسواس تتصوّر على الدوام بأنَّ زوجها يخونها بشكل شرعي أو غير شرعي. ولو تأخّر عن القدوم إلى البيت تتهمه بأنّه كان عند عشيقته. وإذا رنَّ جرس الهاتف ورفع الزوج السماعة ووجد أنَّ امرأة اتّصلت عن طريق الخطأ، وقال لها: عفواً يا سيّدتي هذا الرقم خطأ، يُلاحَظ أنَّ زوجته تهوّل الأمر كثيراً وتدّعي أنَّ هذه القضية تثير الشكّ، ولا بدّ أنَّ الزوج قد قصد في كلمته هذه رمزاً أو معنى معيناً، ولم يكن هناك من داعٍ لذكر كلمتي عفواً يا سيّدتي. وإذا لاحظت أنَّ امرأة أبدت الاحترام لزوجها في محفل ما، تثير ضجّة عند العودة إلى الدار. وإذا قدّم معونة إلى أرملة في مؤسسة خيرية، لا تتورّع الزوجة عن توجيه التهمة له بأنّه يميل إلى تكوين علاقات مع النساء. وإذا وجدت في سيارته شعرة أو خيطاً أو زرّاً تظنّ أنّها حصلت على دليلٍ دامغ. وإذا كانا في جولة وقالت لها امرأة: ما أروع زوجك، تراودها الهواجس بأنَّ هذه المرأة تعشق زوجها. وهكذا فهي على الدوام تقرأ رسائله وتراقب هاتفه، وتستنطق كلّ مَن يطلبه في الهاتف استنطاقاً دقيقاً لئلاً يكون وسيطاً بينه وبين امرأة أخرى ـ إن كان رجلاً ـ أو لئلاً تكون عشيقة زوجها ـ إن كانت امرأة ـ مثل هذه المرأة تعيش على الدوام متوترة الأعصاب وقلقة. وهكذا تهدم حياتها، وتقصّر عمرها، وتحبّ على الدوام التحدّث عن خيانات الأزواج وعدم وفائهم. ومن الطبيعي أنَّ أمثال هذه الأمور تقضي على أسباب المودّة والألفة بين أعضاء الأسرة.

يكمن سرّ نجاح المرأة في حياتها الزوجية في عدّة عوامل سبقت الإشارة إليها. وهناك عامل آخر يمكن تلخيصه في انسجام المرأة مع عيال زوجها وأقاربه وخاصّة مع أُمّه وأخته. فالأم ـ من ناحية ـ ولدت وربّت وأرضعت وتعبت وسهرت اللّيالي وأرسلت ابنها إلى المدرسة حتّى كبر وبلغ، وهي تسلّمه الآن إلى فتاة غريبة. والآن بعد أن وصل ابنها إلى مرحلة الكمال الجسمي والمالي من الناحيتين الكمية والكيفية، وهو الابن الذي ادّخرته لكبرها وعجزها وأيّام شيخوختها أصبح الآن من نصيب زوجته، ولهذا فهي تخاف من المستقبل خشية أن ينساها ولدها، وعندما يتزوّج ابنها تريد أن تكون هذه الفتاة كنّة لها، لا زوجة لابنها. ومن هنا ينبغي أن تدرك الزوجة مخاوف الأُم، وتعمل على إبعاد هذه المخاوف عنها، وتتصرّف معها على نحو توقن معه الأُم بأنَّ ولدها سيكون إلى جانبها في شيخوختها، وحتَّى لو أراد التهاون في أمرها؛ فلن تتركه زوجته يقصّر في حقّها. ووجود مثل هذا الشعور لدى الحماة كفيل بتبديد مخاوفها. ومن الطبيعي أن أخوات الزوج يتبعن آراء والدتهن، فإذا كانت الكنّة على علاقة حسنة مع الوالدة، يتخذن نفس موقفها. هذا على العكس من المرأة التي تحاول الهيمنة على زوجها واستملاكه بحيث لا تبقي له أيّة علاقات مع أُمّه وذويه وأقاربه، وتستخدم حتّى أساليب النميمة والكذب والتهمة لتشويه علاقة الزوج مع والدته وذويه، فتضطرّ الحماة على أثر ذلك إلى النيل من الفتاة وتشويه صورتها من أجل أن لا تفقد ابنها كليّاً.

وفي ختام المطاف تتبلور العلاقة بين كلّ زوج وزوجته على أربعة صور: أحمدها عاقبة أن تكون الزوجة ووالدة الزوج كلاهما مؤمنتان فلا يقع بينهما خلاف. بل يكفي أن تكون إحداهما مؤمنة، فيمنعها إيمانها عن النزاع والاختلاف. أمّا الحالة الثانية فهي أن يكون الزوج مؤمناً وعاقلاً ومدبّراً بحيث لا يدع أي مجال لوقوع الاختلاف والنزاع بين والدته وزوجته. والحالة الثالثة أن يكون والد الفتاة أو والدتها على درجة من الإيمان بحيث يوجّهان ابنتهما

توجيهاً حسناً، والحالة الرابعة هي أن تكون إدارة الأمور بيد الشيطان فيوقعهم في نار جهنَّم.

يتّسم كلّ اختلاف بسماتٍ معيّنة؛ وأبرز ما يظهر في مثل هذا الاختلاف ويؤثر فيه سمتان: الجهل والعناد. ولو كان هناك إيمان لما كان لأي من هاتين السمتين أي تأثير. والنتيجة الطبيعية لاختلاف الزوجة وحماتها هي قصر عمر الزوج وكثرة معاناته؛ لأنَّ هذا النوع من النزاع تجيده النساء ولا يستهدفنَ من ورائه إلاَّ الوصول إلى نتيجة معيّنة، ولا يشعرن بتعب عميق منه. وأكثر ما يؤلم الزوج هو الصفة النسائية لمثل هذه النزاعات. ومثل هذه النزاعات تترك تأثيرات واضحة في جميع جوانب حياة الأسرة. فالرجل يستطيع أن يحمل عشرة أكياس من الأرز وينقلها إلى موضع آخر ولا يشعر بالتعب، ولكنه يشعر بالتعب لو اضطرّ إلى تنظيف ثياب المولود مرّتين أو ثلاث.

فالرجل يكره هذا النوع من النزاعات من جهة، ومن جهة أخرى لا يدري إلى جانب أيّ منهما ينحاز. ولو كانت إحداهما معتدية فالأمر واضح. ومَن تكون لديه حريّة في اتّخاذ القرار لا يلقى مثل هذا العناء. أمَّا الرَّجل الذي يعجز عن اتّخاذ مثل هذا القرار فهو يحترق في داخله، وهذا العناء يؤدّي إلى قصر عمره.

تشعر الزوجة في بعض الحالات بأنَّ حياتها مع زوجها رهينة بورقة قديمة وهي عقد الزواج، وبإمكانه اتّخاذ زوجة أخرى غيرها بكلّ سهولة، في حين أنَّ الأُم لا يمكن استبدالها. والحقيقة هي أنَّ الزوجة يجب أن تتنازل بعض الشيء، ولا تفقد أقارب زوجها بعنادها وتؤذي زوجها بأنانيّتها. وهذا ما يوجب عليها احترام والدة زوجها، والانسجام مع ذويه لنيل رضا الله وسرور زوجها ولتوفير أسباب المودّة بين الأُسرتين. ولتعلم المرأة بأنَّها كلما تذللت لحماتها كبرت في عين زوجها، والرجل مجبول حتّى إذا كان أُمياً على إكبار زوجته كلّما كانت على علاقة حسنة بوالدته.

ذكرت في ما سبق عدّة أسباب ترغم الزوج على ذمّ زوجته أمام أصدقائه. وأشير هنا إلى حالة معاكسة، وهي أنَّ الزوج إذا وجد علاقة زوجته مع أُمّه حسنة لا بدّ له أن ينوّه أمام أصدقائه إلى ما تحمله زوجته من أخلاق وفضائل. وتبلغ هذه الحالة ذروتها من بعد وفاة الأُم ـ التي تقع عادة قبل وفاة الزوجة ـ لأنَّ أكثرية النَّاس تسمع عادة عن الحوادث السيّئة والحالات السلبية، ولا بدّ أن كلّ زوج يتوقّع مسبقاً حصول مشاجرات بين زوجته ووالدته. فإذا ما شاهد ـ خلافاً للمتوقع ـ بأنَّ العلاقة بين والدته وزوجته وكأنَّها علاقة بين أُم وابنتها، يبدي لزوجته احتراماً خاصاً، ولاسيما بعد وفاة والدته. لأنَّه يعتبر سلوكها مع والدته عملاً إعجازياً، ويتصوّر أنَّ زوجته تعيش في حالة عزاء لفقد والدته. أمَّا إذا كانت الحماة على خلاف مع الكِنَّة، فإنَّها إذا توفّيت يشعر الابن وكأنَّه زوجته سُرَّت لوفاة والدته، بل وتذهب به الظنون إلى إلقاء تبعة وفاة والدته على عاتق زوجته بسبب ما كانت تسببه لها من الأذى. ولهذا السبب يبدأ الخصام بين الزوج وزوجته من بعد وفاة الأُم مباشرة. وإذا وُجدت هناك حالة شاذة فلا بدَّ من البحث عن أسباب شاذّة لها من قبيل الدوافع الجنسية أو حبّ المال أو حبّ الجاه فضلاً عمَّا تنمُّ عنه هذه الحالة من عدم تديّن إحداهما أو كليهما.

من المدهش أنَّ الخصام بين الكنّة وحماتها يؤثر أيضاً في عمل الزوج، بل ويؤثر حتّى في شرائه للهدايا للزوجة والأولاد؛ إذ أنَّ الرجل يرى في مثل هذه الحالة عدم وجود حوافز للعمل في ظلّ ما يعيشه من نزاع في البيت بين زوجته ووالدته.

دفاع الزوجة عن زوجها

ثبت بالتجربة أنَّ العلاقة السيِّئة بين زوجة الرجل ووالدته تنعكس بأعباء مالية أكثر على الزوج؛ لأنَّه يضطرّ عند ذاك إلى شراء بعض الأشياء خفية لزوجته، وإلى شراء بعض الأشياء سرّاً لوالدته. ولو كانت الأمور مكشوفة بسبب اطّلاع الجانبين عليها لما اضطرّ الزوج إلى شراء هذا المقدار لوالدته وهذا المقدار لزوجته. ومن الطبيعي أنَّ الأُم كثيراً ما تتذمّر وتدمدم على ابنها متّهمة إيَّاه بأنَّه قد نسيها وصار يقدّم كل ما لديه لزوجته، ولهذا يجد نفسه مرغماً إلى التصرّف على النحو الذي يتصرّف فيه جميع الرجال الذين يلجون ميدان الصراع بين الأُم والزوجة في سبيل نيل رضا الأُم.

المبحث الآخر يتناول العلاقة بين الزوجة وعمل الزوج. فإذا كان الزوج بائع نفط تعيّرهُ وتقول له إنَّ رائحة النفط لا تفارق بدنك، بينما الزوج هو الذي يشمّ النفط بدلاً من شمّ العطور. وإذا كان زوجها طبيباً تقول له زوجته لم أعد أعرف ليلي من نهاري؛ ففي اللَّيلة البارحة أيقظونا من النوم مرّتين. بينما الطبيب هو الَّذي يتجرّع ما يشاهده من آلام المرضى ويكابد العناء بسبب ما يسمعه من آهات المتألمين وأنين المتوجعين وزفرات المحتضرين، ويعود إلى بيته منهكاً من تلك المعاناة. وإذا كان زوجها صاحب دكّان تؤنبّه قائلة إنَّك تخرج صباحاً والأطفال نيام، وتعود ليلاً والأطفال نيام، فما ذنب الأطفال حتَّى لا يروا أباهم. والحقيقة هي أنَّه لا يوجد عمل يخلو من المتاعب، ولا يوجد رجل يقضي نهاره باللهو

والراحة، ثم يَسكُّ النقود ويجلبها إلى البيت. ففي كلّ عمل عناء ومشقّة، وكسب الرّزق ليس أمراً هيّناً، وليس بميسور الإنسان تطويع الحياة كما يشاء. وإنّما يجب أن يعمل المرء فيها ويبذل جهده، وإذا لم تأت الأمور حسب ما يشتهي، يجب عليه أن يتكيف معها إلى أن ينتهي العمر. ولو وضع الرجل الخيار أمام زوجته لانتقاء العمل الذي يجب أن يمارسه لكسب لقمة العيش لبقيت حائرة لا تدري بم تجيب، لأنَّ الناس لا تتوفّر فيهم جميع الشروط المناسبة لجميع الأعمال، ويجب على المرأة أن تشكر الله لأنَّ زوجها ليس عاطلاً عن العمل حتّى لا يقصد مراكز القمار والخمر والملاهي، بل ينبغي لها أن تفتخر بأنَّ زوجها يعمل.

إذا كان عمل زوجكِ ليلاً عليك السعي لأن تناموا أنتِ والأطفال في النهار حتّى لا تكون هناك ضجّة، ولكي تتيحوا له فرصة النّوم.

هناك عدّة طرق لمعرفة مدى حماقة أو ذكاء المرأة، وإحدى تلك الطُرق تتلخّص في مدى تشجيعها لعمل الزوج أو عدم تشجيعها له، وهل تثبطه عن عمله أم تحثّه عليه. لأنَّ هذا التشجيع يمثّل دفعاً غير مباشر له للعمل وخاصّة إذا كان مضطرّاً للعمل في الغربة.

أشرت في ما سبق إلى أنَّ مسألة الحجاب تنطوي على ثلاثة مباحث هي:

أولاً: موضوع عفاف المرأة والرجل.

وثانياً: بقاء جمال المرأة على امتداد التاريخ.

وثالثاً: تطبيق الحكم الإلهي والإنساني بدلاً من قانون الغابة والحيوانات. وأشرت من جملة ذلك إلى أنَّ المرأة يجب أن لا تكون مكشوفة الرأس حتّى في بيت زوجها، وشرحت سبب ذلك في حينه. ولا بأس بالإشارة هنا إلى مذمّة ظهور المرأة عارية حتّى أمام امرأة أخرى، أمَّا إظهار العورة أمام امرأة أخرى فهو حرام. وقد ثبت علميّاً أنَّ الزوج تسوؤه رؤية

زوجته عارية أمام امرأة أو نساء أخريات، بل حتّى انَّ هذا الموقف يسبّب له بروداً جنسيّاً، ويجعله يمتنع مرّات عديدة عن ممارسة الجماع.

من الطبيعي أنَّ الرجل يأتي إلى البيت للاستراحة من إرهاق العمل والضوضاء والصياح. معنى هذا أنَّ المرأة يجب أن تحافظ على الهدوء في البيت قدر الإمكان ولا تثير الضجيج والصياح، وأن تتكلَّم بهدوء ووقار. وإذا كان لديها أمر يستلزم رفع صوتها، من الأفضل أن تقترب حتَّى تتكلَّم بصوت منخفض.

يجب أن لا تتجشأ المرأة بصوت عالٍ، ولا تسعل، ولا تزكم زكاماً متوالياً. ولا بدّ لها من مراعاة الموضع الذي تلقي فيه بِصاقها أو مخاطها، وأن تختار مكاناً لذلك بحيث يثني زوجها على حسن أدبها. وإذا حكّها رأسها أو جسمها تحكّه بأنملة أصبع واحد، ومن الأفضل أن يكون ذلك من وراء الثوب ـ إن كان يكفي ـ.

وعلى المرأة أن تشغل المذياع أو التلفزيون ـ إن أرادت ـ بشكل لا يضايق الرجل، وإذا كان الزوج يتفرّج على شيء ما يجب أن لا تتكلَّم. ولو أراد الأَب تقسيم بعض طعامه على أطفاله يجب أن تقول لهم انظروا كم يحبّكم أبوكم! وإذا أراد الأَب أن يأخذ أطفاله للتجوال يجب أن تسأله، وهل آتي أنا أَم لا؟

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «**أغلب أعداء المؤمنين زوجة السوء**»[1]. ونُقل أنَّ موسى عليه السلام أُوحي إليه: «**مَن أُعطي زوجة صالحة فقد أُعطي خير الدّنيا والآخرة**»[2]. وجاء أيضاً: «**شرّ الأشياء المرأة السوء**»[3].

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة (طبعة آل البيت) ج١٤، ص١٦٥.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة (طبعة آل البيت) ج١٤، ص١٦٨.

(٣) مستدرك وسائل الشيعة (طبعة آل البيت) ج١٤، ص١٦٥.

سبقت الإشارة إلى أنَّ المرأة إذا التزمت ببعض آداب الحياة يمكن أن تكون ملاكاً. وهذه الأحاديث كلّها مروية عن الرسول أو عن أهل بيته. ومعنى هذا الكلام هو أنَّ المرأة يمكنها أن تتّصف ببعض الفضائل التي تكون من خلالها ملاكاً إلّهياً مقرّباً. وكلّ مَن يتجاوز نقطة الوسط ويقترب إلى جانب التحلّي بصفات الملاك يكون قد أمسك حينذاك بحبل الكمال والرقي وينتقل بعده إلى ركوب جناح الرحمة، ليتمكن من طي الطريق بسرعة.

مثلما أنَّ فتح البلدان أسهل من إدارتها، يجب القول بأنَّ الزواج وما يترتّب عليه من لذّة جنسية ومكاسب اقتصادية وظروف حياتية جديدة، وخروج من حالة الوحدة، ودخول في حالة الاستقرار والاستقلال، يعتبر بمثابة فتح للبلاد، ويأتي الدور من بعده للامتثال لأحكام الإسلام في ما يخص الحياة الزوجية، وذلك يعني الوصول إلى مرحلة إدارة البلاد.

يؤدّي الزواج إلى إقحام المرأة في حيّز الحياة الاجتماعية إلى آخر حياتها، ولهذا يجب عليها أن تعلم بأنَّ الفضل في دخولها إلى حيّز المجتمع يعود إلى الزوج، ولهذا يجب عليها أن ترعاه وترعى حقوقه.

تعيش الفتاة البكر في أحلام لامتناهية من البحث عن الزوج المثالي. أمَّا الفتى الذي لم يتزوج بعد، فيرى في أحلامه المشرقة الحلوة بأنَّ النجاح في الحياة لا يتحقق إلاَّ في ظل وجود الزوجة والأولاد. ولهذا السبب أقول: أيّتها الفتاة التي وصلتِ إلى أُمنيتك الخيالية، إذا لم تجدي في زوجك كلّ ما كنت تبحثين عنه، عليكِ أن تلتفتي إلى أنَّ زوجك قد وصل إلى أقلّ بكثير ممَّا كان يطمح إليه من النجاح في الحياة. ولا شكّ في أنَّ تعويضه عن هذا النقص هو العامل القادر على توفير حياة هانئة لك ولأُسرتك.

عند تأجّج لهيب البؤر الجنسية لدى الفتاة والفتى من خلال ظهور علامتي الاحتلام والحيض، يجد كلّ واحد منهما نفسه بحاجة إلى أن يحبّ

إنساناً ويحبّه إنسان، وبعد تكامل هذه الغريزة يبدأ كلّ واحد منهما بالميل إلى الزواج. وتأخذ نفسه بالتطلّع إليه باشتياق ولهفة.

وبعد الزواج يجب أن يتأكّد للرجل بأنَّ هناك من يحبّه. وليس هناك شيء أكثر ثباتاً من محبّة الزوجة له بالقدر الذي يبتغيه.

إنَّ عيش الرجل بالتعقّل والأمل، وعيش الزوجة بالعاطفة والأمل يدلّ على أنَّ التعقّل يستسلم أمام العاطفة حتّى وإن كانت له القيمومة عليها في سبيل الحفاظ على مكاسب الحياة. ولهذا السبب يجب على المرأة استثمار طاقتها العاطفية ووضع التعقّل على الطريق الذي يجب أن يسلكه، وإلاَّ فإنَّ السعادة سترحل عن تلك الأسرة.

الطابع السائد في الأحكام الإلهية الواردة في القرآن الكريم هو ذكر الصفة الغالبة؛ أي صفة التذكير، ولكن المراد هو كلا الجنسين. فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[1] بصيغة الجمع المذكّر في حين أنَّ حكم الصيام يشمل المرأة أيضاً.

وهكذا الحال بالنسبة لجميع الكلمات التي يستخدمها الناس في محاوراتهم؛ فإذا جاء التخصيص فالأمر يدلّ على من جاء عليه التخصيص، وإلاَّ فإنَّ الضمير الغالب يشمل كلاًّ من الرجل والمرأة، إلاَّ إذا جاء المعنى بشكل يُفهم منه خصوص الرجل. وفردية الضمير في كل لغة إذا لم تخصص جنساً معيّناً، فالمراد منها هو المذكر.

وهذا المعنى لا ينطبق على ضمير التأنيث المدغم في ضمير التذكير فحسب، بل نلاحظ هذا المعنى حتّى في القرآن الكريم الذي يقدّم خلق الذكر على نحو يجعل ضمير التأنيث وكأنَّه مدغم في ضمير التذكير، فهو يتحدّث

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

عن خلق آدم ولكن لا يتطرّق إلى ذِكر خلق حوّاء. غير أنَّ الميزة الموجودة في القرآن هي أنَّه يركّز على إيراد صيغة المذكّر في المواضع التي يتحدّث فيها عن المباحث الاجتماعية كالاستخلاف والفساد وسفك الدماء في الأرض، ولكنه ما إن ينتقل إلى الحديث عن المسائل العضوية كالطعام والجماع يأتي على ذكر اسم الرجل والمرأة إلى جانب بعضهما. وهذا أمر مغاير لما هو موجود في الكتب الأخرى. إذ أنَّ شبهة مجيء الضمير المؤنّث في مقابِل المذكر تشبه خلق المرأة في مقابل خلق الرجل. أي كما أنَّ الضمير في كلّ لغات العالم إذا كان مجهولاً يدلّ على الرجل أو زوجة الرجل، أمَّا إذا جاء بصيغة الجمع لا يبقى ثمّة داعٍ للتساؤل عن دلالته. وفي ضوء ما مرّ ذكره لا يمكن اعتبار خلق حوّاء مقدّماً أو متأخراً على خلق آدم.

لقد أوردت هذه المطالب من أجلكِ أيّتها المرأة لتضيفيها إلى المطالب السابقة، وتثني على ما منحكيه القرآن من قيمة. ولا تنسي أنَّ حياة المرأة كانت قبل نزول القرآن على النحو التالي:

كانوا في الجاهلية يبيعون المرأة أو يقايضونها بالإبل والغنم، ويدفنونها حيّة... ثم جاء الإسلام، ونزلت سورة النساء بكلّ ما فيها من معانٍ، وطال انتظار الرجال ولم تنزل سورة باسم سورة الرجال، وذكر اسم الرجل والمرأة إلى جانب بعضهما وخاطبهما بخطاب واحد، وسمّاهما إلى الأبد بكلمة واحدة وهي كلمة الوالدين، وكان رسول الله يقبّل يد ابنته في كل يوم. أي أنَّ الإسلام لم ترد في أيّ باب من أبوابه كلمة تشير إلى أنَّ المرأة أدنى من الرجل، بل يؤكّد بشكل صريح على أفضلية بعض الرجال وأفضلية بعض النساء. وينصّ المذهب الشيعي على أصل عصمة امرأة؛ وهي بنت رسول الله ﷺ بمعنى أنَّ المرأة يمكن أن تكون في موضع لا تتدنّس فيه بالذنوب والمعاصي، أيّ أنّها تكون محصنة بحصن لا تخترقه المعصية. وحتّى عندما يأتي ذكر أهل البيت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] فإنَّ أحد أفراد هذا البيت هو فاطمة سلام الله عليها. وهكذا يُكرِّم الإسلام المرأة ولا يعتبرها أدنىٰ منزلة من الرجل.

إنَّ الإسلام يكرّم البنت إلى حدٍّ كبير، ويوجب تقديمها على الابن حتّى عند تقديم الهدايا. وإذا أُعطيت لهما الهدية سوية، يجب أن تُقَدَّم إلى البنت باليد اليمنى، وإذا صارت أُمّاً ـ وكان ابنها يصلّي صلاة مستحبّة ـ ونادته يتعيّن عليه أن يجيبها وإن كان في الصلاة، ويعتبرها الإسلام في فترة الحمل والرضاع كالمجاهد في سبيل الله، وإذا دخلت في سنّ الشيخوخة لم يكن رسول الله يفرّق بينها وبين الرجل الذي وصل إلى مرحلة الشيخوخة، قائلاً: **«مَن شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»**[2].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٦، ص١٠٧.

المساواة بين الرجال والنساء

إذا سلَّمنا بأنَّ كلّ إنسان يتألّف من مجموعة من القبائح والصفات الحيوانية، من جهة، ومجموعة من المحاسن والخصال الإنسانية من جهة أخرى، وبأنَّ الإسلام يدعونا للتخلّي عن القبائح والتحلّي بصفات الملائكة، فهل ثَمّة في الإسلام ما يشير إلى وجود فارق بين الرجل والمرأة؟ يصرّح القرآن الكريم بأنَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[1]. وجعل رقي الرجل والمرأة إلى مرحلة الملائكة منوط بشرط واحد هو العمل الصالح وهما متساويان في هذا الشرط. ويجب الالتفات قبل كلّ شيء إلى أنَّني أكرّر الآن كلاماً جاء قبل أربعة عشر قرناً، ومع ذلك نراه جذّاباً وغضاً ويشدُّ إليه الأسماع.

إنَّ السند الذي يثبت به الرجل مقدرته على التكفّل بضمان حياة المرأة يظهر على شكل عنف وطغيان يجري في عضلاته، هذا الرجل يتساوى في نظر القرآن مع المرأة التي لا تبدي عادة أي عمل ينمّ عن رغبتها في التفوّق على غيرها، وقد جعلهما القرآن في مرتبة واحدة من حيث المقدرة على نيل الحياة الطيّبة، وتلك المرتبة هي العمل الصالح والإيمان.

وإذا كان الزوج راضياً عن المرأة تكون قد نالت جزءاً من تلك الحياة

(١) سورة النحل، الآية ٩٧.

الطيبة. هذه المرأة نفسها التي كانت قبل الزواج تتقن عدّة فنون، وتلقى التشجيع من أقاربها وجيرانها على ما تجيده من فنون الخياطة والحياكة وترتيب الغرف، بمجرّد أن تتزوّج وتلد يجب عليها أن تقدّم الواجبات المدرجة في قائمة الزوجية وتربية الطفل. وكلّ ما يعتبر جزءاً من الحياة الطيّبة يأتي من خلال إنجاز هذه الواجبات. وتتجسّد المزايا الحسنة عندئذٍ في مدى مداراتها لزوجها، وإلى حسن تربيتها لأطفالها.

بما أنَّ المرأة ترى معيشتها مضمونة فهي نادراً ما تعتبر نفسها معنيّة بأمر المستقبل ولا سيما عندما تدرك بأنَّ مصيرها لا يرتبط بمدى ما بذلته من جهود في إدارة البيت، فهي في مثل هذه الحالة ترفض النظرة المستقبلية كلّياً. وهذا ما يوجب عليها بطبيعة الحال تكثيف جهودها من أجل توفير الأجواء المناسبة لزوجها لتحقيق أكبر نجاح ممكن في الحياة سواء في مجال حيازة أموال أكثر، أو اكتساب علم أكثر، أو الحصول على منصب أعلى، أو لنقل بإيجاز: كل نوع من الكمال؛ وسواء كان توفير تلك الأجواء من قبلها يتمّ بواسطة قلّة الكلام أو كثرة العمل في سبيل تربية الأطفال.

يجب على المرأة القادرة على زيادة كرامة زوجها ومكانته أن تلتفت إلى أنَّ النصيب الأوفر من تلك الكرامة والمكانة يعود عليها قبل غيرها، وأنَّها هي الشريك الأساسي لزوجها في جميع تلك المكاسب. وعلى العكس من ذلك إذا كان الزوج غارقاً في المفاسد والرذائل؛ فإنَّ الناس يلقون على زوجته ثياب المظلومية ويتألّمون لها بسبب معاناتها لمثل هذه المآسي.

إنَّ الفتاة سواء كانت تعيش باستقلال وكبرياء، أو في ضعف وسكينة، ما إن تدخل دار الزوجية حتّى تدرك وجوب وجود فارق بين الماضي والمستقبل. وأنَّ طابع العنف أو الاستقلالية أو الكبرياء الذي كان يظهرها بمظهر البنت ذات الصفات الولاّدية لا ينسجم مع ما يدخل في إطار حبّ الشهوة الجنسية. وحتّى الفتيات اللائي ينتهجن أسلوب سيادة الأُم يدركنّ بعد حين عدم إمكانية الوصول

إلى ذروة الإشباع الجنسي. وما أكثر الأُمّهات اللواتي اتّبعن أسلوب الأُمّ، ثمّ أصبن بالشذوذ الجنسي والسحاق. ولهذا يجب على الفتاة أن تتزين لزوجها كما أمر الرسول ﷺ وتبدي له زينتها صباحاً ومساءً. وفي غير هذه الحالة كلّما تقلّصت الفوارق الذكرية والأنثوية بين الرجل والمرأة، تنجم عن ذلك آثار سيّئة على الذريّة. أمّا إذا تفوّقت المرأة على الرجل في العنف والكبرياء فلا مفرّ من إصابة الأبناء أو الأحفاد بانفصام الشخصية (الشيزوفرينيا). وعلى العكس من ذلك كلّما ازداد مستوى الاختلاف في الصفات الخاصة بكلّ منهما، يولد لهم أبناء أكثر اعتدالاً. ويجب أن لا ينظر إلى هذه الحالة كإهانة للمرأة أو استخفافاً بها؛ لأنَّ الهجوم من صفات الأسد، والفرار من شدّة الذعر من طباع الغزال. بل إنَّ الاستخفاف بالرجل والمرأة هو أن يلاحظ كلّ منهما بعد حين بأنّه كان حتّى الآن يسبح في اتّجاه معاكس لحركة التيّار. فلا غرابة والحال هذه لو ولد لهما طفل غير سوي خلافاً للمسير العضوي الإنساني.

لا يخفى أنَّ الفتاة التي تضحك إلى جانب والديها أو برفقة صديقاتها، وعندما ترى زوجها ينقلب ضحكها بكاء بسبب تجاهله لها، هذه الفتاة عندما تصبح أُماً لا تنجح في تقريب مستواها بصفتها أُمّاً إلى مستوى زوجها بصفته أباً؛ وإنّما تقرّ مستواها إليه بصفتها فتاة وبصفته أباً. والحالة التي تنتج عن ذلك هي انخفاض مستوى الشهوة الجنسية بينهما.

إنَّ الزوج يريد من زوجته أن تكون بشوشة متبسّمة. فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: **«المؤمن حزنه في قلبه وبشره في وجهه»**[1]. فالوجه المستبشر البشوش يحيط بالقلب الزاخر بالحزن والألم. وما إن يعلم الزوج بأنَّ زوجته المتألمة الحزينة تظاهرت بالسرور من أجله حتّى يُضمر لها رضا وارتياحاً تنمو من جذوره شجرة باسقة من الحبّ والعشق.

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣١٠.

لا شكّ في أنَّ من جملة الأسباب التي تدفع الفتاة لقبول قيمومة الرجل هو أنَّ شخصيتها كأُمّ تتحقق في ظلّها؛ بمعنى أنَّها تتقبّل سلطة الرجل لتكون لها سلطة على العالم كلّه. كانت الفتيات اليهوديات من بعد النبي موسى يتزوجن رغبة في تحقيق وعد التوراة بمجيء المسيح الذي يحكم العالم. ولهذا السبب فإنَّ المرأة التي تريد أولاداً والرجل الذي يريد أبناءً يجب أن لا يواجه مقاومة من الطرف الآخر، ومن الأفضل في مثل هذه الحالة أن يتشاورا في ما بينهما ولا ينسيا نصيب الإسلام في تشاورهما. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**خيانة المستشير من أفظع الأمور وأعظم الشرور**»[1]. ووردت تأكيدات كثيرة على الاستشارة إلى درجة أنَّ أسوأ الناس في صدر الإسلام وما تلاه كانوا يراعونها حقّ رعايتها.

كان الحجاج بن يوسف الثقفي والياً على البصرة والكوفة وفارس وكلّما كانوا يأتونه بشخص من خصومه كان يأمر بإخراجه من باب آخر. وكان للخروج بابان؛ يُقال لأحدهما باب السلامة وللآخر باب السياسة. فإذا أشار بإخراج شخص من باب السلامة كانوا يطلقون سراحه، وإذا أُخرج من باب السياسة كانوا يقبضون عليه. ثم يجمعون هؤلاء الأشخاص إلى حين حلول وقت طعام الحجاج، فيقتلونهم ويمدّون السماط عليهم فيجلس الحجاج على السماط ويتلذّذ برؤيتهم وهم يصارعون الموت. وفي أحد الأيام جاءوا برجل مشدود الوثاق ووضعوه في مكان غير بعيد عن الحجاج، فأخذ الحجاج يتمشّى قريباً منه ويشتمه، والرجل يردّ على الحجاج صاعاً بصاعين. وطال بهما الحال إلى أن سأل الرجلُ الحجاج أخبرني من أي البابين يجب أن أخرج؟ فقال الحجاج: من هذا الباب. وأشار إلى باب السلامة. فاندهش جلاوزة الحجاج وقالوا: أيها الأمير لماذا يخرج من باب السلامة وقد شتمك؟

(١) غرر الحكم، ٥٠٣٧.

فقال لهم: إنَّ الرجل قد سألني وكان سؤاله بمثابة الاستشارة، وأنا لا أخون من استشارني.

أجل يجب على الرجل والمرأة أن يتشاورا ولا ينسيا سهم الإسلام في التشاور، ويلتزما برأي الإسلام في الجانب الصحي وتقليل النسل. وسبق لي أن ذكرت في موضع آخر بأنَّ الزوجين إذا كانا قادرين على تربية أبناء صالحين فيا حبّذا لو ينجبوا أكبر عدد ممكن من الأولاد. ولا يجوز للمرأة مخالفة زوجها في هذا المجال في ضوء ما سبقت الإشارة إليه.

على الفتاة التي تتزيّن بأمر الإسلام، وتعرض زينتها على زوجها صباحاً ومساءً، أن تعلم بأنَّ هذا الحكم الإسلامي ـ كما هو الحال في أحكام الإسلام الأخرى ـ مبعثه الفطرة. وإلاّ فإنَّها حينما كانت في دار أبيها كانت تستخدم أنواع التسريحات استعداداً للزوج المقبل، وتتصرّف على صور شتّى حتّى ترى ما هو العمل الذي يحظى برضا الأَب ويرسم الابتسامة عل شفتيه، وهي تتمرّن على كلّ هذه الممارسات استعداداً للدخول إلى بيت السعادة الزوجية. وعليها أن تعلم بأنَّها أُعطيت هذا البدن، ويجب عليها أن تنهض لعلاجه فيما إذا أَلَمَّ به مرض أو اعتراه طارىء أو أصيب بجرح أو حُمَّى، ومن أجل السهر على رعايته في هذه الدنيا المليئة بالآلام. وإذا فقد بدنها سلامته يختلّ توازنه وتضطرب أحواله ويصبح كخشبة هامدة لا يُرتقب منها رجاء ولا أمل، وما أن يتماثل للشفاء حتّى يستعيد قواه ودوره في الحياة.

المرأة المصابة بفقر الدم الشديد تنغلق شهيّتها كليّاً ولا تبقى لديها رغبة في تناول الطعام ولا دافع للزينة، هذه المرأة يجب أن تراعي حكم الإسلام في نفسها؛ بمعنى أن تسعى لاستعادة صحّتها. وعلى الرجل أن يلتزم بما أوردته في كتاب آخر حول آداب مداراة الزوجة.

نعم، إنَّ الفتاة التي لا ترغب في النظر في المرآة، لا يمكنها أن تنظر بهذه البساطة إلى الزوج، ولا يتسنّى لها التمسّك بأحكام الإسلام.

لم تطلبين مرآة كبيرة وصقيلة؟

هل تطلبينها لأجل تغيير لون شعرك عدّة مرّات في اليوم؟ أم لكي تطلّي عليها عدّة مرّات في اليوم الواحد وكأنّك مشجب ثياب متحرّك يضعون عليه في كل ساعة ثوباً ويأخذون آخر؟ لا ليس لأجل ذلك، وإنَّما لأنَّ الفطرة تفرض عليك التأهب غداً للزوج القادم، ولماذا لا تكونين كذلك منذ الآن؟ لقد كنت تجعلين من ذاتك صورة سحرية أمام الزوج الخيالي. أمَّا في الوقت الحاضر فيجب أن تتجلي كصورة حقيقية أمام الزوج الحقيقي، وتربّي أولاداً صالحين. السرّ الكامن وراء حرمة التزيّن أمام الغير، هو أنَّ فطرة الفتاة لا تبيح لها التزيّن قبل الزواج، وهي حتّى وإن فعلت ذلك، فإنَّها تفعله بدافع الحصول على الزوج وليس بدافع الحصول على أي رجل أجنبي، وبما أنَّ التزيّن للأجنبي لا يتساوق مع الفطرة، فهو يترك تأثيرات سلبية في الذريّة؛ وذلك لأنَّ نظرة السوء التي تتخطفها الأبصار من تلك المرأة تسري إلى جميع خلايا جسدي الناظر والمنظور إليه وحتّى إلى الكروموسومات، بل وحتّى إلى خلايا بدن الجنين في البطن. وهذا بمثابة نوع من وضع العلامات على خلايا الذريّة، أي أنّها تكتسب صفات أخرى إلى جانب صفات الأب.

الفتاة التي كانت كلّ أحلامها تدور حول الزوج ليلاً ونهاراً، ما لها إذا استيقظت من النوم ووجدت الزوج إلى جانبها، ما لها لا ينعكس عليها شعاع واحد من تلك الأحلام. لعلَّها كانت تحلم بزوج سحري خليق حتّى بأن يُعبد ولكنَّها وجدته اليوم غير جدير حتّى بأن يُقَبَّل!

أيّتها الفتاة العزيزة، إنَّ كلّ شخص يبحث عن الكمال، وهذا يُعدّ بحدّ ذاته دليلاً على أنَّ كل شيء يسير إلى الله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وكلّ ما يحبّه الشخص بالقوّة مغروس في فطرته. ولكن مَن الذي استطاع إخراج ما هو مغروس في فطرته بشكلٍ غير متناهٍ، إلى حيّز الفعل المحدود؟ أوليس العمل سوى إخراج النيّة أو الإرادة الموجودة في النفس بالقوّة على شكل قول أو فعل بواسطة الأعضاء والجوارح؟ فالأحلام الوردية التي تداعب مخيلتك عن الزوج، تداعب مخيّلته عنك أيضاً. فلا أنت التي أرادك هو، ولا هو الذي أردته أنت. وانظري إلى قول الله تعالى لرسوله الكريم، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴿١٠٣﴾﴾[1] وأنتِ أيضاً تحملين أحلاماً وردية تطمحين إلى أن تتحقق على أرض الواقع. ولكن عليكِ الاحتفاظ بسرّك ولا تفشي لأحد بأنّك غير راضية عن زوجك. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**مَن قالت لزوجها ما رأيت في دارك خيراً لا تشمّ ريح الجنّة**»[2].

كنتِ ذات يوم تلعبين بالدُمية؛ أي بطفلك الذي كُنتِ ترسمينه في عالم الخيال، ثم بالمرآة؛ أي مع فتى أحلامك. وعليك في الوقت الحاضر التمسّك بزوجك لكي يتسنّى لك الوصول إلى مرحلة إنجاب الذريّة. والفتاة التي تكون على العكس من ذلك فتاة مبغوضة. بمعنى أنَّها إذا لم تكن تحبّ الزوج الذي يجب أن تحبّه وتحبّ الذريّة ـ شاءت أَم أَبت ـ فمعنى ذلك أنّها أخذت المرآة أولاً ثم لعبت بالدمية ثانياً، وهي في الحقيقة لم تلعب بها وإنّما كانت تمارس بها عملاً جنونياً، وسينتقم منها المستقبل عن طريق إعطائها ذريّة مشوّهة.

---

(١) سورة يوسف، الآية ١٠٣.

(٢) مستدرك الوسائل، كتاب النكاح، باب ٦٠، ص٢٤٤.

لقد كنت ترين في أحلام اليقظة في اللَّيل والنهار ـ وخاصة في اللَّيل؛ لأنَّ اللَّيل أكثر قدرة على إخفاء ما يرُاد إخفائه ـ وكأنَّك ترتدين ثوب النوم الذي يعجب زوجك، وتسرّحين شعرك، وتتمرغين كلؤلؤة بين ذراعيه. ولكن لا يلاحظ عليك حالياً أي أثر من تلك الأحلام. فلماذا تتوقّعين بدلاً من ذلك أن تجدي في زوجك كلّ ما كنت تحلمين به؟!

كنتِ في كلّ ليلة تطوفين في أحلام اليقظة، وتتزيّنين أكثر من اللَّيلة التي سبقتها لأنَّك كنت تقتربين أكثر فأكثر نحو أُمنيتك، وكنت تجدين في نفسك في كلّ ليلة أقرب إلى الزوج من اللَّيلة التي سبقتها. ولكنك عندما وصلتِ الآن إلى زوجك، وأصبحتِ في المنعطف الحسّاس من حياتك، صرت تقتربين في كلّ يوم نحو مجيء الذريَّة أكثر من اليوم الذي سبقه، وتقتربين معه إلى الولادة، وتسيرين ومن خلال وجود الزوج والولد نحو التجزئة على اعتبار أنَّ وجود الزوج والأولاد يُنذر بحصول التجزئة كأن يموت الزوج أو يكبر الأولاد، ويذهب كلّ واحد منهم إلى شأنه. ولهذا السبب تفقدين اهتمامك بالزينة حين الوصول إلى الوحدة. ومن هنا فإنَّ الإسلام لا يبيح لك نسيان الحياة، وترك شؤون اللعب بالدمية والمرآة، والزواج والنكاح، بل يأمر حتّى المرأة اليائسة بالتزيّن لزوجها. ومن الواضح أنَّ لهذا الحكم تأثيره من الناحية النفسية، لأنَّ المرأة التي تتزيّن وتتصابى تجد نفسها مرغمة على العمل لكي لا تُعتبر زينتها منافية لما يبدو عليها من العجز والقعود عن العمل. ومن هنا فإنَّك أيّتها المرأة المتحررة من آثار الطمث عليك أن تتزيّني أنتِ أيضاً لزوجك بأمر الإسلام، لكي لا يشعر الرجل أو المرأة حتّى عند دنو الأجل، بفقدان معالم الكمال والجمال. وإذا علمت بأنَّ زوجك ـ حتّى وإن كان كهلاً ـ يحب المرأة الجميلة أكثر من المرأة غير الجميلة، فأنت مخيّرة عند ذاك في انتخاب الطريق الأفضل.

عَزَم عجوز أصلع في الثمانين من عمره على الزواج، وكان قصير القامة

ويبدو وكأنّه لا رقبة له، وكانت آثار الجدري واضحة على وجهه بكل جلاء وقد تركت حفراً على بشرته كانت تبدو وكأنَّ عمقها يصل إلى عظام وجنتيه، وظهرت على أنفه الكبير الأفطس حبّات كثيرة بدت وكأنَّها جزيرة طافية في بحر. وتزوج الرجل. وبعد انتهاء شهر العسل أراد عالم الدين في الحارة ملاطفته ومجاملته فقال له: كيف حالك أيّها العريس العزيز، هل أنت سعيد بالزواج ومرتاح مع زوجتك؟ فقال العجوز: نعم إنَّني سعيد بزواجي وأحترم زوجتي وتحترمني، فأنا أحترمها لأنَّها أكبر منّي سنّاً، وأمّا هي فتحترمني لأنني أجمل منها. ومن هنا نلاحظ مدى تأثير الجمال في الأساطير وفي الواقع.

قياد المرأة بيد الزوج

لا أدري إن كان هناك كاتب قبلي بحث هذه المسألة أَم لا، وهي لماذا تبدأ البنات الصغيرات اللعب بالدمى قبل النظر في المرآة؟ يبدو لي أنَّ حبّ الجاه وحبّ الرئاسة يحتلّ أهمية فائقة لدى كلّ من الجنسين. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: **«آخر ما يخرج من قلب المؤمن حبّ الجاه»**[١]. ولهذا السبب نجد البنت الصغيرة تفضّل اللعب بالدمى لما فيها من دور قيادي ولأنَّ الأُمّ تمارس نوعاً من السلطة على أولادها، إلى أن تستسلم في ختام المطاف، ويزول حبّ الجاه من قلبها، وتدرك أنَّها يجب أن تتهيّأ للتمكين والتسليم. وسبق لي أن شرحت أهمية تمكين الزوجة للزوج. وهذا يعدّ بحدّ ذاته جواباً قاطعاً لمن يثيرون شبهة حول تمكين المرأة أمام الرجل، ويقولون لماذا لم يؤكد الإسلام على تمكين الرجل أمام المرأة؟

تراجعنا ـ نحن الأطباء ـ بين الحين والآخر فتيات غير متزوجات ممَّن دخلن في مرحلة الحيض، ونحن نتحسس مدى الآلام التي تعانيها كلّ واحدة منهن. إذ لا تكاد تمرّ على إحداهنّ بضعة أيام من أحلام اليقظة الجميلة حتّى تلمّ بها حالة تكدّر عليها صفو أحلامها وتسقطها في نظر زوجها الخيالي. ولهذا السبب فهي تتجه مباشرة بعد الخروج من الحمام إلى المرآة لتعوّض عن

---

(١) لم أجده في كتب الحديث المتوفرة. (المترجم).

أيام فراق زوجها الخيالي، ولتدنو مرّة أخرى نحو معالم سحره وجماله. وهذا يثبت أيضاً فطرية ما ذهب إليه الإسلام في مجال التزيّن للزوج. والأكثر وضوحاً من كلّ ذلك هو أنَّ الفتاة الحائض، التي تحدّث صديقتها عن كلّ شيء بكل صراحة، تسأل صديقاتها بعد الحيض، هل أنَّها لازالت تحبّها؟ وما هذا السؤال إلاّ محاولة من الفتاة لترى هل أنَّ مكانتها في فترة الحيض محفوظة عند ذلك الزوج الخيالي أم لا؟

حدّثني أحد أصدقائي في السنوات الأولى التي أصبحت فيها طبيباً، وكان هو طبيباً متخصصاً في الأمراض النسائية، أنَّه رفع ذات يوم حصاة صغيرة حارّة كانت على المدفأة، ورماها على الرجل العارية لطبيبة كانت منهمكة في الحديث مع الآخرين. فغادرت تلك الطبيبة المكان فجأة وهي مصفرّة الوجه وقد ترشح جسمها عرقاً، وذهبت واستلقت على سرير ثم قالت لاحقاً، كان حيضي قريب الوقوع ولذلك تصوّرت ـ عندما سقطت الحصاة الحارة على رجلي ـ أنَّ قطرة من دم الحيض وقعت على رجلي. أجل إنَّ ظاهرة الحيض تثير مشاعر الفتيات غير المتزوجات وتنقلهن إلى عالم الحبّ والخيال. وهذا كلّه يأتي على سياق الفطرة التي جاء عليها الإسلام، وأَمَرَكِ أيّتها الفتاة العزيزة، لتبقي على الدوام أنتِ المعشوقة، وزوجك العاشق.

لقد بَيّنتُ لكِ رأي الإسلام العزيز من الوجهة العلمية، ومن الوجهة النفسيّة إلى حدٍّ ما. وقَرّبتُ إلى ذهنك مباحث ما قبل أربعة عشر قرن سلفت وجعلتها أقرب إليكِ من المباحث المعاصرة، حتّى أخذكِ الوجد وصارت كل خلية من ملايين الخلايا الموجودة في بدنكِ تنطق بلسان الشكر قائلة: «**الحمد لله الذي جعلنا من أُمّة محمّد**».

ولعلَّ أحداً قبلي لم يقل: إنَّ السبب الذي يجعل الزوجة لا تطيق رؤية حماتها هو: أنَّها لا تستطيع رؤية معبودها في طاعة امرأة أخرى. فالفتاة التي

ترى في زوج أحلامها كل أسباب القوّة والإرادة، وتعتبر كل الفتيات والنساء مطيعات لأمر الرجل، لا يروق لها رؤية معبودها مطيعاً لامرأة.

ما أتقنَ المعادلة التي جاء بها الإسلام في باب المحبّة! فحيثما توجد محبّة تكوينية كمحبّة الوالدين للأبناء، لا يأمر الإسلام بمثل هذه المحبّة. بينما نراه في الجانب الآخر يأمر الابن بالإحسان إلى أبويه. وأشرتُ مرّات عديدة إلى أنَّ الآية الشريفة: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1] تتضمن عدّة مطالب حسنة، وهي أنّها جمعت اسم الأب والأُم في كلمة الوالدين، وجعلت اسم الوالدين في مصاف اسم الله، وأمرت بالإحسان إلى الوالدين ولم تأمر بالعدل أو الإنصاف تجاههما. لأنَّ الإنصاف قد يعني أن أبي إذا ضربني بحجر، أصفعه على وجهه، وقد يعني العدل أنَّ أبي إذا صفعني أكيل له صفعة في مقابل صفعته، بينما يعني الإحسان أن أبي إذا صفعني أقبّل يده. وإذا كانت الزوجة لا تطيق رؤية زوجها في طاعة امرأة أخرى، فالملاحظ في هذا المجال أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَن شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة**»[2] فإذا كانت حماتك معبودة زوجك، فيجب أن تكون معبودتك أيضاً. ويجب عليك أنتِ وزوجك احترام وتوقير أبيك وأُمك وحماك وحماتك، امتثالاً لأمر الإسلام بإكرام الكبير والعطف على الصغير: «**وقّروا كباركم وارحموا صغاركم**»[3].

لا تنفكّ الفتاة ـ ما لم تتزوج ـ ترسم في مخيّلتها صورة لزوج الغد كرجل يتّصف بالقدرة والجمال والكمال وكلّ صفات الرجولة. وإذا كانت قد خدعت قبل الزواج وأزيلت بكارتها، فهي بعدئذٍ تعي حالتها وتقول في نفسها لقد

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٦، ص١٠٧.

(٣) بحار الأنوار، ج٩٦، ص٣٥٧، ح٢٥.

وقعت ـ بدل العثور على الزوج المطلوب ـ فريسة لسبعٍ ضارٍ. فلماذا لا يتورّع بعضهن ـ بعد الزواج ـ عن استعمال الزينة والعطر وعرض أنفسهنّ أمام الرجال الأجانب، ويبدو وكأنَّهن نسين أنَّ البكارة ليست هي المعيار النهائي بحيث يُعرف بواسطتها الرجل الصالح من السبع الضاري. ولكن ليعلمنَ أنَّ إحداهن إذا بقيت تبحث عن رجل الأحلام. فالرجال كلّهم سباع ضارية باستثناء الزوج، مهما كان سيّئاً. وإذا وجد أحدهم فيها شيئاً من معالم جمال الصورة أو الصوت فهو يطمع فيها، مثلما طمع في الماضي فيها وفي بكارتها. ولهذا فقد حذّر القرآن الكريم من عواقب هذا السلوك بقوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[١]. وهذا القول يثبت صحّة طمع مرضى القلوب؛ بمعنى أنَّ المرأة التي تكوّنت لديها قبل الزواج معرفة كافية بالشخص المناسب من السبع المفترس، يجب أن تميّز بعد فقدانها لبكارتها الأمور السقيمة من السليمة. ولهذا السبب أطلق الإسلام تسمية نابية على الشخص الذي يأذن لزوجته بالتزيّن للرجال الأجانب. أمّا إذا كان لتلك المرأة بعل غيور، ثم تزيّنت أمام الأجنبي؛ فإنَّ الإسلام يطلق على عملها هذا صفة التمرّد. فقد روي أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أيّما امرأة تطيّبت لغير زوجها لم يقبل الله منها صلاة حتّى تغتسل من طيبها»**[٢] وقال أيضاً في موقف آخر: **«إذا تطيّبت المرأة لغير زوجها تغتسل من طيبها كغسلها من جنابتها»**[٣].

إنَّ الحيض يسبّب للمرأة كثيراً من الأذى، وأكّد القرآن الكريم هذا المعنى ووصف الحيض بالأذى، وهي كلمة معبّرة وذات دلالة عميقة. وقد سبق لي أن قدّمت شرحاً لهذا المعنى وأُضيف إلى ذلك أنَّ هذه الكلمة حيثما

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٢.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب ٨٠.

(٣) المصدر السابق.

ذكرت فإنّها لا تدلّ على المرض. الحيض لا يُعتبر في نظر الطب مرضاً وإن كان فيه أذى، والمرأة التي يلمُ بها الحيض موقنة بأنّه لا تترتّب عليه أيّة أضرار وخيمة. ولكن الحيض هو عبارة عن سؤال يتّسم جوابه بالتعقيد، ولكنّه في الوقت ذاته لا يخلو من لطف وإثارة. وكلّ حائض تعتبر نفسها تعيش في حالة قلقة يعقبها غد يتّسم بالاستقرار والثبات. بمعنى أنّها تقبل الحيض كنوع من النزيف الدموي الذي يأتي كمقدمة للسلام وتحولها إلى لعبة للزوج، وفضلاً عن ذلك فإنّ هذا النزيف عبارة عن تمهيد لصيرورتها أُمّاً وبلوغها إلى العز والعظمة. وعليها أن تعتبر نفسها مدينة للدين الإسلامي، إذ لو أنّها كانت على دين آخر لما استطاعت ربط ذاتها بتربية الجيل. وقد ذكرت في مجلّدات أخرى كيفية النظرة التي تنظر بها الأديان السماوية الأخرى إلى مسألة الحيض ومدى تشدّدها مع المرأة الحائض حيث أنّ المرأة اليهودية تفضل الحمل على مكابدة الشروط الصارمة التي تفرض على الحائض.

يتعيّن على المرأة المسلمة أن تلاحظ كيف جاءت الأحكام الإسلامية متناسبة مع الفطرة ومنسجمة مع سياق تقوية عمل المرأة. وحتّى في هذا الجانب المظلم المتمثّل في الحيض اعتبرته الشريعة كماء الحياة الموجود في منطقة مظلمة، إلاّ أنّ التوقّف في الظلمة يعني عدم الوصول إلى ماء الحياة. ولهذا السبب تواصل المرأة المسلمة في أثناء الحيض حياتها العادية باستثناء التغيّرات التي تطرأ على الغدد؛ إذ أنّ عمل هذه الغدد يؤثّر في عمل التشريع.

بيّنتُ سابقاً كيف تؤدّي الغدد والأعصاب المؤثّرة في هذا الجانب إلى إيجاد حالة من الخمول والكسل والابتعاد عن النظافة والعبادة لدى المرأة. وقد يكون هذا هو سبب إسقاط العبادات الواجبة والتكاليف المتعبة التي قد تجلب عليها الضرر خاصّة إذا تزامنت مع النزيف وفقر الدم والضعف.

قد يتصوّر البعض بأنّ الفتاة تعتبر بالغة دينياً وتجب عليها الفرائض الشرعية مبكراً كبلوغها المبكّر من الناحية الجنسية. في حين أنّ الأمر لا يقتصر

على البلوغ الجنسي والبلوغ الديني فقط؛ وإنّما يتعدّاه إلى تنامي إدراكاتها الداخلية أسرع من الذكور، كما إنَّها تدرك قبلهم أيضاً أحلام الحياة الجميلة ودنيا الزواج والأولاد، وتكون أكثر وعياً منهم في إلمامها بشؤون الحياة. وهذه واحدة من النعم الإلهية الكبرى، وهي أنَّ كل مَن يكون لديه نموّ داخلي أسرع يتكوّن لديه شعور أقوى بأنَّ مصيره مرتبط بنموّه الخارجي. وعلى العكس من ذلك يدرك كلّ مَن لديه نموّ خارجي أنَّ شؤونه تتزن بتوجهه نحو الجوانب الداخلية التي أكثر ما تعني في مثل هذه الحالة: الزوجة والأُمّ والأولاد.

ما إن تتصوّر الفتاة أنَّها أصبحت قادرة على مداراة الزوج؛ حتّى تتغيّر كيفية خدمتها في البيت، ويتبدّل أسلوب تعاملها مع صديقاتها. فإذا كانت الأُمّ سابقاً تؤدّي الأعمال الأساسية في المطبخ والفتاة تؤدّي الأعمال الصغيرة، يلاحظ أنَّها تأخذ على عاتقها عندئذٍ الأعمال التي كانت تتبنّاها الأُمّ. وإذا كان أبوها على قيد الحياة، تبدأ تدريجياً بالابتعاد عن الأُم والاقتراب من الأب. وكأنَّها تريد أن تعثر قبل الزواج عن دور زوجها في أبيها.

إضافة إلى ذلك يلاحظ أنَّ أسلوب تعاملها مع صديقاتها يتغيّر أيضاً. فهي تشعر حالياً وكأنَّها تعيش في مرحلة الاستعداد للزواج، وستفقد بعد عثورها على الزوج جميع صديقاتها. وهكذا يتبدّل أسلوب كلامها مع سائر الفتيات، وتُبدي لهن وكأنَّها أصبحت ذات شأن، وتظهر كلامها أكثر اتزاناً، ولا يقترن بالضحك أو ببعض الحركات الطائشة.

إنَّ هذه الفتاة المجبولة فطرياً على التفكير بالزواج يجب أن تحافظ على طهارة فطرتها. فهي بعدما تظهر قبل الزواج وكأنَّها لبست لباس الزوجية، يجب عليها من بعد الزواج أن لا تخرج من ذلك اللباس. وقد وصفها القرآن الكريم بأنَّها لباس للزوج وهو لباسها. وقد أشرت في ما سبق إلى الحكمة الكامنة وراء هذا التشبيه.

كل فتاة تتمنّى على ربّها أن يكون لها زوج يحمل صفات إلهية، ولهذا تسعى لأن تكون زوجة لرجل يملك أسباب التفوّق والقدرة، وخاصة أن يكون وضعه الاقتصادي بشكل قادر على تمشية الشؤون المعاشية لها وله ولأطفالهما. ولكن لو تأخّر مجيء مثل هذا الزوج فهي أوّل ما تكون على استعداد للتضحية بجوانب الجاه والشهرة وما شابههما. ولكنها قد تجد نفسها مرغمة ـ ولا سيما عند شعورها بقرب فوات أوان الزواج ـ على القبول بزوج قد لا تتوفّر لديه المقدرة الاقتصادية على إدارة شؤون الأسرة الجديدة. وهنا يهب القرآن العزيز والإسلام العزيز إلى نجدة الفتاة التي تبقى حائرة في منتصف الطريق بانتظار وصول زوج يحمل صفات إلهية، صادحاً بقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1]. أي أنَّ القرآن الكريم يرى ـ على العكس من التصوّر الذي يذهب إلى ضرورة ضمان مصدر الدخل أولاً ـ أنَّ الزواج أولاً ومن بعده يأتي الغنى. وقد أكّد الكاتب المعاصر موليير في كتابه «التغيّر في ظل الزواج» وجود ثلاثة عناصر تجتذب الجنسين نحو أحدهما الآخر، وهي: الحاجة الاقتصادية، والرغبة في إنجاب الأطفال، والحب.

يتصوّر الناس أنَّ الغنى يتوفّر في ظلّ الزواج لأنَّ الرجل يرى نفسه مرغماً على العمل وكسب لقمة العيش لإشباع حاجات زوجته وأطفاله، إلاّ أن هذا التصوّر يعطي الوعد الإلهي بالغنى جانباً مادياً. في حين أنَّ الباري عزّ وجلّ حينما يعد بالغنى فهو يغني في جميع الأبعاد المادية والمعنوية. وهذا التصوّر شبيه بالتصوّر الذي كان سائداً حول طول العمر حيث كانوا يتصوّرون أنَّ العلم يطيل العمر لأنَّ حامله يعرف ماذا يجب أن يأكل وكَم يجب أن ينام وكم ينبغي أن يجامع، وما هي الجوانب الصحية التي يجب مراعاتها. وبالنتيجة فإنَّ رعاية الشروط الصحية هي التي تطيل العمر. بينما ثبت في

---

(١) سورة النور، الآية ٣٢.

الوقت الحاضر بأنَّ العلم يطيل العمر ليس فقط على الصعيد الماديّ ورعاية التعاليم الصحيّة القرآنية السبعة التي سبق شرحها في كتاب آخر، بل انَّ العلم ينطوي في ذاته على جوهر طول العمر. وأضيف هنا أنَّ التحلّي بأيّة واحدة من الصفات الإلهية كالعلم والقدرة والحكمة والخَلْق وما شابه ذلك، يطيل العمر ولكن في حدود قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1]. وفي ضوء هذه الآية أيضاً نفهم وفاة رسول الله ﷺ الذي قال: **«تخلّقوا بأخلاق الله»**[2] أي كونوا علماء وحكماء وقادرين و. . . فهل أنَّه يأمر بما ينقص جانباً من جوانب الحياة؟ حاشا وكلاً.

---

(١) سورة القصص، الآية ٨٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٦١، ص١٢٩، شرح أصول الكافي، ص٢٠.

تمكين المرأة للرجل

إنَّ الدعوة إلى اكتساب صفة الخالقية يجب أن لا تكون سُبباً لإيجاد شبهة، إنَّ كلّ أُم وكلّ أب خالق مجازي، الإنسان وحده لا يستطيع التخلّق ببعض الصفات الإلهية الذاتية أو الفعلية. نشير على سبيل المثال إلى أنَّ مَن لا يخلق لا يسنُّ تشريعاً. وأنَّ الخالقية مقدّمة على الربوبيّة، وأنَّ الإنسان لا يستطيع ولا ينبغي له أن يقول أنا ربّكم الأعلى، وحتّى فرعون لم يقل أنا خالقكم الأعلى، وكلّ مَن كان له أُم وأب لا يقول إنِّي خالق (وإن كان من الممكن أن ينسب إليه الآخرون صفات الألوهية والخالقية كما هو الحال بالنسبة للمسيحيين الذين يسمّون عيسى ابن مريم إلهاً) ولكنَّهم بعدما سنّوا لأنفسهم قانوناً بدلاً من التشريع الإلهي، أخذوا يدّعون الربوبيّة، ويقولون كما قال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1].

حيثما وردت كلمة «الرب» في القرآن الكريم فإنَّها تدلّ على وجود حالة من التشريع كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[2]. ونحن أيضاً يجب أن نذكر مسألة التشريع الإلهي عشر مرّات في اليوم الواحد، ونشير إلى أنَّ الخلق مقدّم على التربية، ونحن نذكر المؤخر بدون ذكر المقدّم فنقول: الحمد لله ربّ العالمين، ولا نقول الحمد لله خالق

---

(١) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٣.

العالمين. وعلى كلّ حال فإنَّ النكاح بحدّ ذاته يجلب الغنى، ومَن يتزوّج ويدخل فعلاً بالزوجة ـ وذلك لاحتمال بروز مبررات توجب الطلاق من قبل الدخول بالزوجة ـ يتّجه نحو الغنى، وينتج عن ذلك أنَّ الفتاة يصبح لها زوج ذو صفات شبه إلهية. وهذه شركة ليس فيها ضرر اقتصادي على الإطلاق.

مثلما أنَّ التحلّي بالأخلاق الإلهية يكون مدعاة للزيادة في جميع آفاق الحياة الدنيوية والأخروية، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] والتحلّي بالأخلاق الإلهية هو الشكر الحقيقي الذي يستلزم الزيادة، وهذه الزيادة التي يعطيها الله تكون في كلّ شيء، وفي كلا العالمين ـ عالم الدنيا وعالم الآخرة ـ لهذا فإنَّ ادّعاء ما هو خاص بالله يعتبر جحوداً، والجحود يفضي إلى قصر العمر.

إنَّ الاتّصاف بالصفات الإلهية كالعلم والقدرة ـ حتّى وإن لم يكن الشخص شخصاً إلّهياً ومتديّناً ـ يؤدّي بالإنسان إلى اكتساب قدرة تكوينية تكون سبباً في طول العمر. بيد أنَّ العلم والقدرة لوحدهما بدون التحلّي بالأخلاق الإلّهية الأخرى يجعل قدرة الإنسان أمام العالم خالية من الشعور، ويكوّن منه إنساناً وحيداً، والوحدة بمثابة سرطان يصيب طول العمر ويلتهم كلّ ما يبعث على الانشراح والبهجة. ثم إنَّ اكتساب القدرة والتصوّر بأنّه يعيش في عالم لا يوجد فيه مبدأ ينتهي بصاحبه إلى الثواب أو العقاب، لا يؤدّي بالإنسان إلاّ إلى الانكفاء على ذاته والانطواء على نفسه واستشعار آلام الغربة عن هذا الكون.

منذ مدّة وأنا أتصدّى لمسؤولية الإشراف على مستوصف ومستشفى الضمان العمّالي، وألاحظ هناك وجود نوعين من الموظفين (وهذا التقسيم

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.

قائم على منطلق خاص) النوع الأول هم الموظّفون الذين يحبّذون البقاء كموظّفين عاديين تجنّباً لحالة الصعود والهبوط في الوظائف الإدارية، والنوع الآخر هم الموظفون الَّذين يميلون إلى الصعود في سلّم الوظائف الإدارية. أمَّا الفتاة فتفضّل أن تكون منطقة الصعود في حياتها منبسطة، ومنحدرها سهلاً، لذلك تبقى في انتظار مجيء الرجل الذي يتغلّب عليها، ويكون له حقّ القيمومة عليها، فتمكنه من نفسها. ولكنها ما إن تصل إلى أُمنيتها وتجد إطار الأبنوس الذي كانت تتمنّاه إطاراً من خشب التوت حتّى تنسى ما فطرت عليه وتتمنّع على الرجل ولا تمكّنه من نفسها.

هناك مطلب مُسلَّم به وهو أنَّ المرأة إذا فهمت أنَّها أثيرة عند زوجها وعزيزة عليه؛ فهي تشعر بأنَّها ملاك أو إنسان عزيز؛ ممَّا يدعوها إلى الاعتزاز بنفسها، ولكنها إذا وجدته لا ينظر إليها إلاَّ كدمية ينتفع منها في لذائذه، تتحطّم شخصيتها. وبعض حالات البرود الجنسي تعود أسبابها إلى هذه الظاهرة. ولكن مع ذلك فالإسلام لا يجيز للمرأة هنا التمنّع عن زوجها. والحقّ مع الإسلام طبعاً لأنَّ التمكين كثيراً ما يؤدّي بالرجل إلى استشعار اللذة الجنسية، وينتهي به بالنتيجة إلى محبّة المرأة ومعرفة قدرها. وقد بينّا سابقاً لو أنَّ المرأة قالت لزوجها: لو أنني كنت زوجة لفلان لكنت سعيدة إذاً، فإنَّها تؤدّي إلى برود الغريزة الجنسية لدى الرجل، وتجعل الممارسة الجنسية بينهما مجرّد ممارسة حيوانية.

إذا أبدى الرجل ميلاً إلى مقاربة زوجته فهو إمَّا أن يكون قد شاهد منظراً مثيراً، أو تلقّى حركة أو إشارة أو إغراءً، أو أن يكون بصره وقع على امرأة جميلة، أو قد تكون الإثارة الجنسية نابعة من الداخل بسبب تناول شيء مهيّج، أو لذكر وازع ديني، أو لإثبات شخصيّته، أو بسبب تذكره لشأن من شؤون الزوجة والزواج سواء كان يتعلّق بالماضي أم بالمستقبل، وربّما تأتي الرغبة الجنسية في أعقاب مشاجرة أو نزاع حول موضوع التمكين، أو كعلاج

أو وسيلة للراحة أو للاختبار أو لأيّ سبب آخر. ومهما كانت دوافع الإثارة الجنسية فإنَّ الجماع الشرعي لا ينطوي على أي شكل من أشكال الأذى. ومن هنا يُعتبر التمكين من قبل المرأة بمثابة نوع من الاستجابة لطلب إيجابي من الرجل. والإسلام يعتبر الردّ على كل تحية، والإجابة على كل رسالة أمراً واجباً لأنَّها تنطوي على طابع إيجابي وتؤدّي إلى إرساء أُسس المحبّة، لهذا يجب على المرأة الردّ بكل إخلاص على سلام الزوج الذي يسلّم عليها بإخلاص. ومن الطبيعي أنَّ التمكين أكثر أهمية من السلام العابر، ولهذا فقد اعتبره الإسلام أمراً واجباً.

طرح عليَّ بعضهم سؤالاً عن السبب الذي يجعل المرأة تشبع وتقنع بعد كلّ تمكين يصل إلى ذروة اللذّة الجنسية، ولكن الرجل يتوق إلى الجماع مرّة أخرى قبل أن يستريح من الجماع الأول؟ والجواب هو أنَّ الإسلام أوجب التمكين على المرأة لهذه الغاية، وأراد من الرجل الإنصاف. وأوجب الجماع مرّة واحدة كل أربعة أشهر. وعندما يتناول بعض المؤرخين دراسة الأسباب التي انتهت بانتصار المسلمين على ملوك الفرس في صدر الإسلام، يشيرون من جملتها إلى استجلاب جيش جديد في كلّ أربعة أشهر مرّة واحدة، إذ أنَّهم لم يكونوا يعلمون بأنَّ الإسلام يوجب على الرجل أن يأتي زوجته مرّة واحدة في كلّ أربعة أشهر. أي أنَّ الجيش الإسلامي كان يرجع كل أربعة أشهر مرّة واحدة إلى المدينة وإلى الولايات التي جاء منها، لاستعادة طاقته وتجديد قواه. أمَّا الإنصاف الذي يجب على الرجل فهو أنَّه إذا كانت لديه المقدرة فلا بأس أن يستجيب لشهوة زوجته يومياً، وإلاّ فأقلّ من ذلك، أمَّا إذا غلب البرود الجنسي على الرجل والمرأة، أو حصلت ظروف توجب الجهاد في سبيل الإسلام، فالإنصاف هو أن لا يتجاوز الحدّ في ذلك مدّة الأربعة أشهر.

يستهلك الرجل أثناء الجماع بعض طاقته في النعوظ والإنزال، وكذلك

الحال بالنسبة للمرأة؛ فلديها نعوظ (يظهر النعوظ لديها على شكل هيجان في البظر)، وإنزال (وإذا لم يحصل الإنزال فمعنى ذلك أنّها لم تبلغ ذروة اللذة الجنسية، وينجم عن ذلك تسرّب الهيجان في الحوض والجهاز التناسلي ويؤدّي إلى حصول آلام في الظهر بعد الجماع)، واستهلاك للطاقة. هذا فيما إذا مكنت المرأة الرجل منها، أمّا إذا مكّنته ولم تستطع اجتذابه، فستشعر في ذاتها شيئاً من الاشمئزاز من نفسها بسبب قصورها عن مدّ أحد أبعاد شخصيتها بحيث تستوعب زوجها. أمّا إذا قصّر الرجل في أداء مهمّته فيستشعر في ذاته نوعاً من الخجل من زوجته. إذاً خلاصة القول هي أنَّ المرأة يجب أن تبدي من نفسها التمكين، والرجل يجب عليه الإنصاف.

من الطبيعي أنَّ الرجل إذا أبدى للمرأة الودّ والمحبّة، نراها تقبله وترى فيه تحقيقاً لأحلامها. أمّا إذا قصّر في هذا الجانب، فلا ترى فيه إلاّ حيواناً أنانياً. ولكن القضية تختلف في ما يخصّ موضوع التمكين. وإذا لم يقترب الرجل من زوجته، فيجب عليها أن تبحث عن الأسباب الموجبة لذلك؛ فقد يعود السبب إلى أُم الزوج أو أقاربه، أو إلى الطبخ وإعداد الطعام، أو إلى أسلوب تربية الأطفال ونظافة البيت. والحكم الإسلامي في هذا المجال هو أنَّ المرأة إذا وافقت على التمكين، فلا بدّ أن توافق على شؤون الطبخ والتربية والتنظيف.

قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن يأكل بشهوة أهله، والمنافق يأكل أهله بشهوته**»[1]. والمنهج المتّبع في هذا المجال واضح تماماً؛ فكلّ طفل يعود أمره لأبيه وأمّه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾[2]. ومع أنَّ مائدة الرضيع معلّقة في صدر أُمّه، إلاّ أنَّ مهمة توفير طعامه تقع على عاتق الأُم والأب؛ ولهذا

(١) مستدرك وسائل الشيعة، ج١٦، ص٣٣١.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

يحقّ للأُم أن تطلب أجراً على إرضاعه، أو يحقّ لها أن تطلب منه عوضاً، كأن تطلب منه المجيء مبكّراً إلى الدار ليلاً. وعلى كلّ حال لا بدّ من استرضاء المرضعة أيّاً كانت. وهذا المعنى ينطبق على العمل أيضاً، إذ يحقّ للمرأة المطالبة بأجور لقاء الطبخ والغسل والتنظيف. وإذا لم يأت الزوج إلى زوجته من باب الشهوة فالتقصير منها ولا تقصير للطبخ والتنظيف، ونادراً ما يكون التقصير من الرجل في هذا المجال.

إذا كانت المرأة امرأة وزوجة وأُم للأطفال وحبيبة، فإنَّ الحبيبة لا يروق لها أن يأتي حبيبها متأخّراً إلى البيت، ولا ينبغي أن يكون في البيت ولا يبالي بها؛ كأن يأتي إلى البيت ويذهب مباشرة لقراءة الجرائد أو يذهب إلى الحمام أو ينام، من دون أن يكلّم زوجته. بمعنى أنَّ المرأة تودّ أن يكون زوجها حكراً عليها، وأن يكون حبيساً في مركز قيادتها وهو البيت، وتأمره بالمجيء إلى معشوقته. ولكن الرجل لا يميل مطلقاً إلى جَرِّ معشوقته إلى مقرّ قيادته، ونادراً ما يوجد رجل يريد من زوجته أن تعمل معه في متجره أو في محلّ عمله، وإذا وُجد مثل هذا الزوج، فإنَّه هو وزوجته بدلاً من تقسيم الحب بين الرجل والمرأة (بين الحبيب والمحبوب) يقسمانه بين البخل والطمع (بين المال والجاه)، وهما زوجان تافهان.

وخلاصة الكلام هي أنَّ المرأة تميل إلى اجتذاب زوجها نحو مركز قيادتها وهو البيت، وفي المقابل لا يميل الرجل إلى استدراج حبيبته إلى موضع يوجد فيه الحبيب فقط ولا وجود للحب والمحبوب، أي في محلّ عمله وفي مشغله، بل يميل إلى أن تكون حبيبته إلى جانبه حيثما يستطيع الحبيب والحب والمحبوبة إثبات وجودهم، ويكون تمكين الحبيبة هو الردّ الإيجابي على هذا الحب، واستجابة لهذه الحقيقة وهي: أنَّ الحبيب حيثما كان فهو لها، ولكن إذا ذكر الحبيب محبوبته ولم يجدها إلى جانبه، وإذا كانت موجودة لكنها مشغولة بشخص آخر أو بعمل معيّن؛ فهو يتصوّر أنَّها

ليست له. ولهذا يكون التمكين بمثابة تعويض واستجابة لرغبة الحبيبة وإعلاماً لها بأنَّ الحبيب لها. ولكن إذا لم تمكّنه المرأة من نفسها يجب أن لا يتنحّى جانباً ويهملها، بل عليه أن يبدي رغبة كأن يعرض عنها امتثالاً لأمر القرآن الكريم ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾[1] وإلاّ ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾[2] ويعاقبها ضرباً بخشب المسواك الذي لا يؤدّي إلى احمرار الجلد ولا إلى حصول التهاب. وهذه مسألة مهمة طرحها القرآن الكريم وسبق لي شرحها في موضع آخر. وأشير على سبيل الاستشهاد: أنَّ اليزابيث تايلور كانت تتمنّى صفعة واحدة من زوجها، وذلك بقولها: إنَّ زوجي أنطوني كوين لم يصفعني منذ ثلاثة أشهر، ويتّضح لي من خلال ذلك أنّه ضعف في الحب، وأخشى أن يكون مغرماً بامرأة أخرى.

المرأة التي لا زالت تحمل شرارة من الحب تسأل زوجها عادة بعد كل عمل جنسي: هل استشعرت اللذة؟ وهذا يدلّ على أنّها ترجو من وراء كلّ عمل جنسي توفير المتعة لزوجها على اعتبار أنَّ سعادتها من سعادة زوجها.

لقد خُلقت المرأة على قدر من الذوبان في الحب إلى درجة أنَّ الرجل حتّى لو أخبرها كذباً بأنّها حبيبته وأنه يحبّها؛ فإنَّ كلامه يؤثّر فيها كثيراً حتّى وإن كانت تعلم كذب قوله. ولكن إذا علم الرجل أنَّ زوجته كاذبة في قولها بأنّها تحبّه فهو يسيء الظنّ بها ويمقتها. ولهذا فإنَّ أفضل طريقة لإثبات صدق المرأة هي الاستسلام والتمكين.

عندما تكون المرأة في غاية الغضب والاستياء على زوجها، يلاحظ أنّها تعرض عنه، وحتّى أنّها تشيح بوجهها عنه خارج البيت عندما تلاقيه في الشارع بذريعة أنّها تتفرّج على ما هو معروض في واجهة أحد الدكاكين، بل وحتّى أنّها تعلن له قطع العلاقة معه. وهذا يدلّ على أنّها لا تريد قطع العلاقة معه

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.

(٢) سورة النساء، الآية ٣٤.

حقّاً. ومثلها في هذا كمثل الزوج الذي يضرب زوجته عند عدم التمكين، في حين أنَّه لو أراد قطع علاقته مع زوجته فهو يقطع علاقته معها بدون أن يخبرها. والمرأة التي تعلن عن قطع علاقتها فذلك يعني أنَّها لا تريد قطع العلاقة. والحقيقة هي أنَّ الأمر الذي يصدره الإسلام للمرأة بالتمكين يراد منه معرفة ما إذا كان الزوج معها، أَم معرضاً عنها، أَم أنَّه سيضربها، أَم أنَّه لا يهتم لأمرها كثيراً وتوجد في قلبه امرأة أخرى غيرها، أَم يريد قطع علاقته معها جزئياً أو كليّاً؟ ولهذا السبب يصبح التمكين بمثابة محكّ لمعرفة مدى نقاء ذهب الرجل. أي أنَّ المرأة مادامت لم تقطع الأمل بزوجها كليّاً يمكنها اختبار مدى إخلاصه لها بالتمكين.

تستطيع المرأة أن تفهم من خلال التمكين هل هناك ثمّة أمل أم لا. أمَّا الرجل فلا يستطيع ذلك لأنَّ المرأة بدون الرجل ناقصة، والرجل بدون المرأة غير كامل. والمرأة تُعرف بالزوج. وقد جاء الإسلام بأمر عظيم وهو قول رسول الله ﷺ: «**لو كنت أمرتُ أحداً يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**»[1]. ومن هنا ندرك لماذا تُعرف المرأة بالرجل، مثلما يُعرف بقاء الأشياء من خلال الله، فلو أنَّه عزّ وجلّ أراد لشيء البقاء لبقي، وإلاَّ هلك، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[2].

المرأة تعرف بالرجل لأنَّه يمثّل بالنسبة لها حالة ذات طابع إلَهي، وتمكين المرأة للزوج هو طريق الأمل المفتوح أمامها.

إنَّ المرأة إذا أذعنت لقدرة الرجل، وطلبت الأمن والأمان في ظلّ وجوده، فمعنى ذلك أنَّها تعتبر وجوده بالنسبة لها أمر ضروري، وأنَّها مرتبطة بوجوده. ويفهم من خلال ذلك أنَّ التمكين يجب أن يكون من المرأة وليس

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة، ج١٤، ص٢٤٦.

(٢) سورة القصص، الآية ٨٨.

من الرجل. ولهذا السبب فإنَّ المرأة لا تقدم على إضعاف مقدرة زوجها إلاَّ أن يكون قد وقع في علاقتهما خلل، ومع ذلك فإنَّ المرأة العاقلة تمكّن زوجها منها لهذا السبب، لكي لا تحتل امرأة أخرى مكانها بسهولة، ولكي لا تحصل له علاقة مع امرأة أخرى وتستفحل وتدوم.

يرى الرجل أنَّ المرأة يستحيل عليها تصوّر رجل آخر إلى جانبها وتطلب الطلاق. بينما ترى المرأة بأنَّ الرجل على استعداد لتصوّر وجود امرأة أخرى إلى جانبه ولاسيما بعدما تلقّته من إيحاءات بأنَّ الطلاق بيد الرجل كليّاً، في حين أنَّ الأمر ليس كذلك. وحتّى إذا كان بيد الرجل فهو مشروط.

عندما تنخفض قدرة الرجل الاقتصادية خاصة، ونحن هنا لا نتحدث عن تناقص قدرته الجنسية لأنَّ المرأة موقنة بأنَّ قدرتها الجنسية وقدرة الرجل الجنسية تضمحلاَّن كلتاهما على حدّ سواء، ولكن المتوقع عادة أنَّ ظروف الرجل الاقتصادية تسير نحو التحسّن يوماً بعد آخر. ولكن لو انخفضت مقدرته الاقتصادية على حين غرّة، يشعر المرء حينذاك بانخفاض حبّ حبيبته له. وهذا أخطر داء مدمّر يمكن أن يظهر المرأة كجنس مقيت. ويجعل العوام من الناس يقولون: إنَّها تتناول الأرز مع زوجها بانشراح، ولكنها تكره الجبن والخبز مثلما يكرهها زوجها. بمعنى أنَّ الحالة الاقتصادية للرجل إذا كانت جيّدة وكان يشتري الأرز فإنَّ زوجته تأكل معه الأرز بانشراح. ولكن حينما تتدهور ظروفه المالية، ولا يستطيع أن يوفّر لزوجته شيئاً سوى الجبن، فإنَّها تبدأ بمقت زوجها. وعندما يستشعر ذلك، تبدأ مشاعر الكراهية تتغلغل في نفسه تجاهها.

يجب أن نكتب حول موضوع التمكين أكثر من هذا، وذلك لأنَّ الرؤية السطحية إلى الدين الإسلامي لا ترقى إلى مستوى الرؤية العلمية التي يقدّمها العالم المتخصص. فنظرة الرجل إلى المرأة تختلف في تأثيراتها عن نظرة المرأة الأجنبية إلى الرجل؛ وذلك لأنَّ أقل ما يترتّب على نظرة الرجل إلى

المرأة الأجنبية هو الحطّ من قيمة زوجته في ذهن زوجته، لأنَّ الزوجة تتصوّر حينذاك بأنّها لا تملك الشيء الذي جذب نظر زوجها إلى هذه المرأة الأجنبية، وهي ترى في هذا العمل كسراً لشخصيّتها. أمَّا إذا نظرت المرأة الأجنبية إلى زوجها؛ فإنَّ الأمر الوحيد الذي يتبادر إلى ذهنها هو الشعور بالخطر، وباستطاعتها القضاء على مثل هذا الخطر بأوَّل تمكين لزوجها منها.

من جملة الكتب التي قرأتها وجدت أنَّ الكتاب الوحيد الذي يمتّ بصلة إلى الموضوع الذي أتناوله بالدراسة حالياً هو كتاب العالمة الفرنسية سيمون دوبوار التي استشهدت بقول رسول الله ﷺ: «**جهاد المرأة حُسن التبعّل**»[1] وكتبت موضوعاً تحت عنوان: «الاحتفاظ بالحبيب نوع من الجهاد المقدّس» قالت فيه: «ما إن تشعر المرأة بالخطر حتّى ترى ذاتها في ترابط مع «الأنا» وتدخل في صراع مع الأثاث والثياب ونظافة البيت، ويصبح هذا الصراع كمصدر لطاقتها ونشاطها. ومادامت المرأة واثقة من انتصارها فهي تستشعر لذّة عميقة من خوض الصراع» وأضيف أنا إلى كلامها بأنَّ المدخل إلى الثقة بالنصر هو التمكين، لأنَّ المرأة تؤدّي حينذاك ما يجب عليها من حُسن التبعّل.

لا يخفى أنَّ التمكين لا يعني الاستسلام، بل إنَّه يعني أنَّ المرأة يجب أن تجعل نفسها على النحو الذي يشتهيه الزوج؛ فإن كان يرغب في أن تئِن، يتعيّن عليها أن تئن، وإن كان يريد منها أن تتألّم يجب أن تتألّم، وإن كان يروق له أن تتمنّع قليلاً أو كثيراً فلتفعل، وفضلاً عن كل ذلك يُعتبر التمكين موقفاً ومناورة، ولا يعتبر مؤشر إنذار لأنَّ المرأة لو لم تكن ذات أهمية للرجل لما طرح موضوع التمكين على بساط البحث، إذ أنَّ الفتاة التي كانت في السابق تطرح إثارات الزواج، وترغم الفتى على طلب يدها، يجب عليها أن

(١) بحار الأنوار، ج١٠٣، ص٢٤٥.

تثبت الآن من خلال التمكين بأنَّ الرجل ـ إن لم يكن يروق له أن تلاحقه فتاة وتوقعه في حبائلها ـ فإنَّ الفتى يميل إلى ملاحقة الفتيات وإيقاعهنّ في حبائله، وهنا يجب أن يكون التمكين هو وسيلة الملاحقة التي يجب أن تكون بيد المرأة وليس بيد الرجل.

إذا حصل أي خلاف بين المرأة التي تؤمن بالتجديد وبين زوجها ـ حتى وإن كان سوء سلوكها هو سبب الخلاف ـ فإنَّها تحاول أن تلقي مسؤولية هذا الخلاف على عاتق الأبوين والإخوة والأخوات مدّعية بأنَّهم لم يتركوا لها فرصة التعرّف على الرجل ومخالطته قبل الزواج، وإلاَّ لكانت قد سبرت أعماق شخصيته، ولرفضت الزواج به. ولكن على أمثال هذه الفتاة أن يعلمنَ بأنَّ شركة الحياة الزوجية التي يدفع رأسمالها الزوج، ويجني ثمارها هو وزوجته وأولادهما في المستقبل لا تقوم على حافز الشهوة. بل إذا كانت لجمال المرأة من قيمة؛ فلا يزال لرأسمال أبيها وأُمها وخصالهم العائلية ومنصبهم وشهرتهم دوراً في ذلك.

إنَّ الجانب الذي يحظى بأهمية تفوق الجوانب الأخرى هو تديّن الزوج، وهو ما سبق شرحه على نحو مبسط. وهذه الصفة تتنافى مع ظاهرة التعارف المسبق بين الفتى والفتاة الأجنبيين.

من المعروف في الوقت الحاضر أنَّ الحياة الزوجية لا يمكن النظر إليها من جانب الغريزة الشهوانية فقط، بل لا بدّ وأن تؤخذ بنظر الاعتبار فيها الأبعاد الاجتماعية وتربية الأولاد والجوانب الحياتية الأخرى. وخاصّة في ما يتعلّق بالزوج الذي يملك حريّة الاختيار، على اعتبار أنَّ الفتاة لم تخالط قبله فتياناً آخرين حتّى تختاره كأفضلهم. وبما أنَّ الفتاة تعلم بأنَّ خيار الزواج الممنوح للفتى يختلف عن خيار الزواج الممنوح لها؛ على اعتبار أنَّها هي التي يجب أن تمكّن وهي التي تحمل وتلد وترضع، وإذا كانت صفة التديّن موجودة؛ يمكن للجوانب الاجتماعية في الزواج وجانب تربية الأولاد أن يطغى

على جانب الشهوة. وإلاّ فلو كانت هناك علاقات بين الفتى والفتاة قبل الزواج، فمن الطبيعي أنَّ كل واحد منهما يحاول التظاهر بصفات أخلاقية عالية. أمَّا بعد الزواج فسرعان ما يزول نقاب التظاهر بالأخلاق العالية وتظهر من تحته الطبيعة المتوحّشة لأحدهما على الأقل. ناهيك عن أنَّ من شأن المرأة القبول بمبدأ عام وهو القبول برجل يحرص على تربية أولاد متديّنين.

الناس كلّهم متشابهون في الأعضاء والجوارح؛ إلاّ أنَّ بعض المدن تواجه أنواعاً من البلاء من جملتها: أنَّ كل مسؤول يأتي إليها يستأثر بسهم وافر من الأملاك العامة، ويضيفه إلى أملاكه الخاصة. في حين يعيش حواليه أُناس يفتقرون حتّى إلى الماء، ويضطرّون لجلبه من أماكن بعيدة لأولادهم. بينما يتنعّم بعض الناس بماء الاسالة الصحية الذي تلاحقه أنابيبه إلى كلّ غرفة من غرف داره، إلى جانب وجود أنابيب أخرى تحمل الماء للمزروعات. هذا فضلاً عن وجود أنابيب ثالثة للغاز، وربّما تتوفّر لهم أيضاً أنابيب من نوع آخر تجلب لهم حلياً من الجنس الآخر؛ أي من النساء. وكما أنَّ هذا النوع من المسؤولين يأخذون على عاتقهم مهمة تطوير المجتمع نحو الأفضل! فإنَّ هذا النوع من النساء التي ربّما يعيش أزواجهن في مدن أخرى، ولا يتورعن عن ارتكاب أيّة خيانة زوجية في سبيل الحصول على اللذة الجنسية، لا يقدمن خدمة للمجتمع عن طريق الولادة فحسب، وإنَّما يقدّمن اللذة أيضاً في سبيل خدمة المجتمع!

الرجل يلقي نطفته ويذهب، أمَّا المرأة فلا يمكنها الهروب بعد إلقاء نطفتها، بل لا بدّ لها من حمل الطفل تسعة أشهر في بطنها وسنتين على صدرها. وهذان الموقفان يختلفان كليّاً بين الرجل والمرأة؛ وذلك لأنَّ الرجل لا يريد أن يُخدع، والمرأة تودّ أن تكون محبوبة. وهذا ما يفرض عليها البقاء قيد اختيار الزوج وتمكنه من نفسها. يبدأ قلق الرجل عادة من بعد ليلة الزفاف، أمَّا المرأة فتتخلَّص بعد ليلة الزفاف من قلقها، لأنَّها كانت قبل ليلة

الزفاف في قلق دائم على بكارتها مخافة أن تقع ضحية لخداع الآخرين. ولهذا الأمر أهمية بالغة في حياة الفتاة بحيث أنَّها تخشى أوّل ضمّة يضمها زوجها إلى صدره، ولهذه الخشية خاصّيتان:

الأولى: إنَّها تُعتبر إشباعاً وإقناعاً للزوج وذلك لأنَّه صائل، والمصول عليه يجب أن يخاف. والزوج يشعر بالنشوة والارتياح لما يراه من هذا الخوف.

والثانية: هي أنَّ ما يُنال بسهولة يُفتقد بسهولة؛ والضمة الأولى التي لا تنسى تكون سبباً عادة لتركيز هذا الخوف في نفسها، ويأتي التمكين في المرّات اللاحقة كاستجابة لتداعي ذكرى اللَّيلة الأولى. من الطبيعي أنَّ الزوج يحاول أن يظهر في اللَّيلة الأولى بمظهر القوّة. وإذا لم ينجح في إبراز قوّته يحتقر نفسه. وهذا الاحتقار للنفس يقابل تمكين المرأة الذي يجب أن يأتي دائماً أمام قوّة الرجل. ولا شكّ في أنَّ اللَّيلة الأولى ولحظة تحول الفتاة من آنسة إلى امرأة لا يمكن أن تُنسى. والمرأة هي التي يجب أن يصدر منها التمكين والآنسة يجب أن تخشى التمكين.

تَعلَقُ في ذهن الرجل ذكريات غير طيّبة عن ليلة الزفاف إذا عجز عن إثبات قوته. ومعنى ذلك أنَّ الخوف من ليلة الزفاف موجود لديه أيضاً لأنَّه يخشى أن لا يستولي على المرأة، أمّا المرأة فهي تخشى الكيفية التي ستخضع فيها لمثل هذه السيطرة وما الذي سيحل بها؟ وبما أنَّ مثل هذا الخوف لا يبقى له أثر في المرّات اللاحقة، يتضح لها أنَّ حكم تمكين المرأة حكم عادل لا جور فيه. ولكن ماذا لو كان العكس، ولو أنَّ مثل هذا الأمر صدر للرجل؟

الإحصائيات التي حصل عليها المتخصصون في هذا الحقل مثيرة للانتباه وتبعث في نفس الإنسان المسلم الارتياح والبهجة لأنَّه يطّلع من خلالها بأنَّ العالم قد أدرك حالياً صحّة وعظمة هذا الحكم من بعد أربعة عشر

قرناً على تشريعه، وهو حكم تمكين المرأة للرجل. تشير هذه الإحصائيات إلى وجود اختلافات حادّة بين الأزواج، ولكنها لا تنتهي بالطلاق. وقد اتّضح من بعد البحث والتقصّي أنَّ أولئك الأزواج يستمتعون كثيراً بالجماع، إلاّ أنَّ بعض الكلمات التي تتلفّظ بها المرأة مثل قولها لزوجها: إنَّك تصبح زوجاً طيّباً أثناء الجماع فقط. وهذا إيحاء منها بأنَّه لا يريدها إلاّ للجماع، أو قولها له: إنَّك لا تطلبني إلاّ للنوم. وهذا الكلام بطبيعة الحال يثير حنق الزوج. وهذه الحالة تجعل أمثال هؤلاء الأزواج يعيشون على الدوام على حافة هاوية الطلاق. ومن هنا يجب على المرأة مراعاة هذا الجانب حقّ رعايته.

من المحتمل أن لا تأخذ المرأة بهذه الإرشادات، وعندها تتفاقم الكراهية، وتصل الأمور بالطرفين إلى حدّ الاشمئزاز من العمل الجنسي، ولا يُستبعد أن يؤدّي هذا النفور إلى زوال الاحترام المتبادل بينهما.

تجدر الإشارة إلى أن تعاليم الإسلام تأتي أُكلها فيما لو طُبّقت كلّها سوية، ولا فائدة من تطبيق بعضها وإهمال البعض الآخر. ويبدو أنَّ قول الرسول ﷺ: «**لا تجامع امرأة حتّى تلاعبها وتكثر ملاعبتها**»[1] لا يفيد أنَّ تمكين المرأة يعني استسلامها للرجل. أمَّا إذا تمنّعت وأكثر الزوج من ملاطفتها ومداعبتها وتجاوز الحدّ المتعارف، فهذا يعتبر بمثابة استسلام أو تمكين من قبل الرجل للمرأة.

من جملة أوجه الشبه المثيرة بين مشاعر الزوج والزوجة هو أنَّ الزوج إذا كانت له علاقة جنسية مع امرأة أخرى، فهو لا يسمح لها بالانتقاص من زوجته، وإن كانت أجمل من زوجته. أمَّا من ناحية الزوجة فإنَّها إذا علمت بوجود علاقة بين زوجها وامرأة أخرى فهي لا ترفضه كليّاً وتقول له: (فيما إذا نعظ ذكره وأراد الجماع) إنني لا أريد هذا الذكر الذي استعمل في موضع

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب ٤٢.

آخر. وفي مثل هذه الحالة يجب التمكين من حيث أن احترام زوجته لم يسقط من الاعتبار، وهو لا يريد تقسيم ما بينه وبين زوجته مع النساء الأُخريات إلاَّ في موضوع الشهوة. فحبّ الرجل لزوجته يُعتبر من جملة المزايا الخاصة المترتّبة على الزواج الذي يجري عادة بمشاركة أسرتي الزوجين. ومعنى هذا أنَّ الرجل لا يحصل على المرأة بسهولة حتّى يفقدها بسهولة على عكس القاعدة القائلة: بأنَّ ما يُنال بسهولة يُفقد بسهولة. وفضلاً عن كلّ ذلك فإنَّ الزواج يُحقق للفتاة ميزة أخرى وهي: أنَّه يصون كرامتها واحترامها أمام أيّة عشيقة محتملة في المستقبل، على اعتبار أنَّ علاقة الرجل مع زوجته قائمة على أساس رباط الزوجية المقدّس.

لا يجوز للرجل أن يضع أمام مخيّلته امرأة أخرى أثناء بلوغ ذروة اللذة الجنسية، وهكذا الحال بالنسبة للمرأة إذ لا يجوز لها عند بلوغ ذروة اللذة الجنسية أثناء الجماع أن تضع نصب عينيها رجلاً آخر. وهذا العمل محرّم في الشريعة الإسلامية بسبب حجب بعض مشاعر اللذة والإدراك عن التفاعل مع الجانب الآخر أثناء الجماع. ولا جرم لو أُعتبر نوعاً من الزنا الذهني، فبدلاً من احتضان الزوجة يتمّ احتضان صورة أو خيال. وأشبه ما تكون هذه الحالة بلاعب كرة قدم خلا هو والكرة عند هدف الخصم، وأيقن بأنَّ الكرة بحاجة إلى ضربة واحدة ليحقق هدفاً، ولكنه أدرك بعد أن قفز ووجّه الضربة، أنَّه وجّه الضربة لظلّ الكرة بدلاً من الكرة نفسها. وهذا النوع من الجماع يجعل أحد طرفي العمل الجنسي متفرجاً وليس لاعباً وذلك لأنَّه يحتضن صورة بدلاً من احتضان الطرف الآخر، وهو يعكس عدم كفاءة أحد الطرفين بسبب عدم مقدرته على حيازة زوجه بمفرده وبدون مساعدة طرف ثالث.

عندما يكون الزوجان متعانقين في زمان ومكان معين، لا يوجد ما يبرّر للزوج أو الزوجة الإتيان بصورة ذهنية من مكان آخر وزمان آخر، وإدخالها إلى دارهما؛ لأنَّهما يفقدان في مثل هذه الحالة مبدأ السيادة ورغبة كلّ فرد في

أن تكون له السيادة على زوجه من غير وسيط. فالمرأة التي لم تكن تعلم قبل زواجها مَن الذي سيصبح زوجها من أبناء البشرية، أصبحت بعد عثورها على ذلك الرجل تلتمس صورة ذهنية كاذبة. ومثل هذا السلوك يُعتبر عاملاً مهماً في تحطيم فكرة استقلاليتها في عهد ما قبل الزواج، حيث كانت تتصور أنَّ كل شخص هو زوجها، أمَّا الآن فقد قيّدت فكرها بشخص معيّن. والفتاة غير مستعدّة للتفكير بشخص آخر غير زوجها. وكذلك الرجل إذا تخيّل امرأة أخرى أثناء ممارسته العمل الجنسي مع زوجته، فذلك يدلّ على أنَّه مكّن قبل ذلك رجلاً آخر من نفسه، حتّى يكون قادراً على تلبية تمكين زوجته.

الرجل الذي يتخيّل امرأة أخرى أثناء الجماع مع زوجته ليس كاذباً فحسب، بل ناكث للعهد أيضاً؛ لأنَّه عندما قال نعم أثناء عقد الزواج لم يكن يقصد سوى زوجته الشرعية وليس امرأة أجنبية خيالية. وهكذا الحال بالنسبة للمرأة. وقد أشرت في كتب أخرى إلى مدى فداحة الأضرار الناجمة عن هذا النمط من التفكير، وأكّدت أنَّه مهلك للذرية.

المرأة أو الرجل الذي يُدخل شخصاً آخر في جماعه مع زوجه، يكون قد صنع منافساً له. وتمكين المرأة في مثل هذا الحال أكثر لزوماً من جهة كونها قادرة على التلذّذ. وذلك لأنَّ الأعمال التي تؤدّيها في البيت كالطبخ والتنظيف ورعاية الأولاد لا تمثّل في نظر زوجها امتيازات ذات بال، وإنَّما هي أمور اعتادها على مرِّ الزمن. وإذا كانت في ممارسة هذه الأعمال لذَّة للمرأة فإنَّ لذّة الرجل في حصول التمكين من قبل المرأة ـ وإن أصبح هذا العمل (التمكين) عادة بالنسبة للمرأة ـ فهو لا يعتبر في نظر الرجل عادة على الإطلاق، لأنَّ أساس الفعل من المرأة، وأداة الفعل منها أيضاً، بينما أعمال المنزل هي من فِعل المرأة ومستلزماتها من الزوج أو منهما كليهما. وهذا من النعم الإلّهية؛ إذ أنَّ التكرار والزيادة في كلّ شيء حتّى في الطعام يوجب الملل والإشباع، أمَّا الجماع الذي تتكرّر صوره وأوضاعه فهو لا يوجب

الملل، وتبقى عين الرجل بعد كل جماع مشدودة إلى الجماع التالي، وتتأجج مشاعر الشهوة لدى المرأة بعد حين وإن شبعت مؤقتاً. وكأنَّ النطفة الأنثوية معدّة مسبقاً في ظهر المرأة، والدجاجة، والسمكة وما شابهها من الإناث، أمَّا بالنسبة إلى جنس الذكر فيجب تهيئة النطفة وإلقائها، وبالتزامن مع إلقاء كلّ نطفة ينبعث إحساس الشهوة لدى الرجل من جديد.

بعد ما يولد في الأسرة طفل أو بضعة أطفال، يقترف الأب إثماً أكبر إذا ما تخيّل أثناء الجماع وكأنَّ امرأة أخرى بين أحضانه. لأنَّ المرأة قلَّما تفكّر بعد هذه المرحلة في إقحام صورة زوج خيالي في عملية الجماع، بينما إذا أقحم الأب صورة امرأة أخرى في هذه العملية يكون قد وافق على وجود زوجة أخرى وهمية فضلاً عن قبول أُم أخرى لأبنائه.

المرأة بعد أن يولد لها أطفال تنطلق في توسيع علاقاتها مع المجتمع ومع المستقبل؛ بل وتعثر مجدداً على ما كان يراودها من أحلام في دار أبيها، وتجد نفسها أكثر حريّة منذ خضوعها للزوج ولبيت الزوجية، وإذا كانت امرأة متديّنة تعثر الآن على شيء آخر بعدما كانت تبحث عن دور الأب في الزوج.

نقلت أُم سلمة حديثاً عن رسول الله ﷺ في ثواب الحائض لقاء ما تواجهه من انعزال اجتماعي وحكم ديني، قال فيه:

«إذا حملت المرأة كانت بمنزلة الصائم القائم المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، فإذا وضعت كان لها من الأجر ما لا يُدرى ما هو لعظمته، فإذا أرضعت كان لها بكلّ رضعة كعدل عتق محرر من ولد اسماعيل، فإذا فرغت من رضاعه ضرب ملك على جنبها، وقال: استأنفي العمل فقد غُفر لك»[1].

تمرّ بالمرأة بين كل نوبة من الحمل والرضاع حوالي خمسة وأربعين

(١) بحار الأنوار، ج١١٠، ص١٠٦.

حيضاً تكون فيها بمثابة السائرة بين محراب العبادة وميدان الجهاد وعتق رقاب السادات. وحتّى لو كانت تحيض في أيام الرضاع، فإنَّ كل رضعة تقدّمها لطفلها تعدل عتق رقبة واحد من ولد اسماعيل، وفي أيام الحيض حتّى لو كانت غير مرضعة يُعتبر وضعها ذاك انقياداً لطاعة الله، وهذا يعتبر بحدّ ذاته عبادة، هذا فضلاً عن اهتمامها بسلامة جهازها التناسلي؛ بحيث تقدّم للمجتمع شاباً سالماً معافى يجاهد في سبيل الإسلام، وينزف دماً حتّى ينال إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. وليس من الضروري أن يكون المولود ذكراً؛ فإذا كانت بنتاً فهي تُنير ظلمة البيت، وتهتم في المستقبل في تربية جيل صالح يخدم الوطن بالشكل الذي يريده الإسلام.

لستُ واثقاً من سلامة نوايا الأشخاص الذين يقترحون تعليم الشؤون الجنسية للفتيات في المدارس الابتدائية والثانوية. لأنَّ الشاب يحب أن يُدخل إلى بيته زوجة لم يُكشف جزء من بدنها لأحد غيره، ولم يره حتّى والداها. الشاب يحب أن تتعلَّم الفتاة الشؤون الجنسية (خلافاً لتصوّر الكثير من النّاس) على يده، بل ويحب أن يعلّمها بنفسه حتّى طريقة خلع الثياب. وأمّا تعلّم المرأة للشؤون الجنسية فيعتبر نوعاً من التمكين الذي يجب أن يكون معلّمُه الزوج لا غير.

الزوج الذي يعلم الشؤون الجنسية لزوجته التي لازالت فتاة، يتكون لديه شعور قطعي بأنَّ زوجته أمضت عمرها ببراءة وعفّة في دار أبيها.

إنَّ الفتاة التي تذهب إلى بيت الزوجية بدون موافقة أُمّها أو أبيها أو كليهما؛ تحاول أن تتظاهر أمامهما بالسعادة. وتبقى تعيش في حذر دائم كي لا تقع لها مشكلة مع زوجها أو ذويه. ونتيجة لكلّ ذلك تضطرّ إلى تحويل التمكين إلى استسلام لكي لا تثير حفيظة زوجها ضدها، ولكي لا يتسرّب الخبر عن سوء علاقتها بزوجها إلى والديها. وهذه الحالة مقابلة لحالة المداعبة المفرطة من قبل الزوج، وهي حالة تشعر إزاءها الزوجة ـ كما سبقت الإشارة ـ بالاستهانة والحقارة. وهنا أيضاً ينظر الرجل إلى استسلام

المرأة بنوع من الاحتقار، ويتصور وكأنّها مسخّرة لخدمة ذكورته. وسندرس لاحقاً الفوارق بين التمكين والاستسلام.

غالباً ما تعتنق المرأة ـ سواء كانت أكثر ثقافة من الرجل أو أقلّ ثقافة منه ـ المبادىء الفكرية لزوجها، وتدخل في دينه الذي يدين به. ومن هنا فقد حرّم الإسلام زواج المسلمة من غير المسلم في أي ظروف كانت، وأجاز زواج المسلم من غير المسلمة، زواجاً دائماً أَم مؤقّتاً.

تتصف المرأة المتعلّمة، فضلاً عن الشهادة الدراسية التي تحملها ـ سواء كانت شهادة الإعدادية أَم البكلوريوس أَم الدكتوراه ـ بعقل متنوّر وثقافة واسعة. ومن هنا فهي تتجاهل بعض المعتقدات الخاطئة التي يحملها زوجها، وتحاول تنبيهه إلى ذلك في الوقت المناسب، وبالشكل الذي لا يجرح مشاعر التفوّق لديه بصفته رجلاً. أمّا إذا كانت الشهادة الدراسية التي تحملها لا تمثّل إلاّ ورقة لا نفع فيها، وكانت امرأة خاوية العقل، فلا تنثني عن التمسّك بآرائها المغلوطة، وتعمّق أسباب الخلاف والنفرة بينها وبين زوجها من خلال رفضها لأفكاره ومعتقداته.

إذا حاولت المرأة اتّخاذ شهادتها الدراسية ومعرفتها العقلية كأسلوب للتعالي على الزوج، يفقد الزوج حينذاك ثقته بالوضع العلمي للبلد، ولا يشعر بالارتياح والسعادة في علاقاته العائلية. وهذا ما يوجب على الزوجة ـ إن كانت ذات معرفة علميّة صحيحة ـ أن تتجنّب إثارة الأمور التي تفوق المستوى الفكري للزوج. وهكذا يجب على المرأة المتعلّمة سواء كان زوجها متعلماً أَم أُمياً أن لا تترك في ذهن زوجها ما يوحي إليه بأنَّ لطافتها وغضبها وتمكينها وتمنّعها يأتي في ظلّ شهادة البكلوريوس التي تحملها. بل يتعيّن عليها أن تعلم بأنّها مجبولة على العاطفة. وسبق لي أن ذكرت مرّات عديدة بأنَّ الفص الجبهي وهو القسم الفكري من مخ الرجل يظهر في التشريح أكبر ممّا لدى المرأة، بينما يظهر قسم الهايبوتلاموس (ما تحت السرير البصري) وهو الفص المختص

بالشؤون العاطفية، لدى المرأة أكبر ممّا لدى الرجل. وإذا كانت هذه المرأة ميّالة إلى النزاع يجب أن لا يكون النزاع من باب التفاخر على الزوج بالمعلومات. وإنّما أراد الإسلام من المرأة التحلّي ببعض الصفات أمام الرجل الأجنبي كالبخل والجبن والغرور. واعتبرها من أفضل صفات النساء وهي أسوأ صفات الرجال. ويعتبر التمكين للزوج ناقضاً لصفة البخل ولصفة الغرور بالشهادة الدراسية. وهكذا يجب على المرأة أن لا تنسى دورها الأساسي في الحياة وتنشغل بالجوانب الفرعية. فإنّ الزوج لو لم ير في زوجته ذكاءً أكثر من إدارة أعمال البيت وتربية الأبناء، لتكون لديه تصور عن سعة ثقافتها أفضل من أن تجابهه بآراء مؤدّية لإثبات صحّة المسابقات الرياضية والحصول على الأنواط فيما إذا جاء متعباً إلى البيت ومتضجّراً من شدّة ازدحام السيارات وإغلاق الشوارع بسبب إقامة سباق ركض البريد في بعض الشوارع. ولكن إذا كانت لديها مقالة في صحيفة أو مجلة تتحدّث عن أهمية مثل هذه المسابقات الرياضية فلا بأس أن تقدّمها لزوجها لقراءتها، ويجب أن تقدّمها له بشكل لا يوحي إليه بمعارضتها لآرائه.

إذا كان الزوج يأخذ بملاحظات المرأة فخير، وإلاّ فلا يجوز لها معارضته إلاّ في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر امتثالاً لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وما أعمال البرّ والجهاد كلّها في سبيل الله، عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلاّ كنفثةٍ في بحرٍ لجّي**»[1]. ولأنّ القرآن الكريم ميّز الأمّة الإسلامية بهذه الصفة على سائر الأمم بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[2] أجل يحقّ للمرأة سواء كان زوجها متعلّماً أو غير متعلّم أن تنبّهه إلى ما يجب الانتهاء عنه وما يجب العمل به. ولكن بشرط أن تزن مقدار تدخّلها ولا تجعل ذلك ذريعة بيد

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٧٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

الزوج لإثارة الفتنة، ويجب عليها النظر في الخطوات الواجب اتّباعها بحيث لا يترتّب على عملها فساد أكبر.

يحب الزوج أن تقول له زوجته المتعلّمة ما هو رأيك في هذا الموضوع؟ من الأفضل لو تفكّر في ما يجب عمله، وقد فكّرت أنا في هذا المجال وسأعرض رأيي عليك لترى مدى صوابه، وإلاّ فسأتغاضى عنه. وعلى كلّ الأحوال يجب أن لا يشعر وكأنّك تعتبرين نفسك أفضل منه، بل يجب أن يشعر بأنّ شهادتك وأفضليّتك كلّها تعود إليه. ويجب أن تحمدي ربّك على أنّك امرأة متعلّمة واخترت بعلمك زوجاً مثله.

أمّا المرأة المتزوجة من رجل يفوقها في التحصيل الدراسي فتعاني هي وزوجها من الفقر الثقافي عند التعبير عن آرائهما، ويظن كلاهما عدم تناسب هذا الزواج، فيا حبَّذا لو كان هذا الزوج حصل على زوجة أفضل، ويا حبَّذا لو كانت هي من نصيب زوج آخر. ثم تقول له المرأة في ختام المطاف: إنَّ الخطوبة بيد الرجل، وأنا لم أطلب يدك، وإنّما أنت الذي طلبت يدي. وهذا الكلام يدفع الزوج أمّا إلى استخدام العنف، وأمّا إلى الهروب من البيت والتوجّه إلى أماكن لا تليق به.

عندما نصل إلى هنا نلاحظ أنَّ المرأة كائن عجيب؛ فهي - حتّى وإن كانت متعلّمة ولا تطيق إخفاء تفوّقها أمام زوجها، لكن - لو غاب الزوج عنها مدّة معيّنة تدرك عجزها عن اتّخاذ أي قرار أثناء غيابه، بل وترى أنَّ المتاعب اليومية تتغلب على جميع ثقافتها وفهمها، وخاصة إذا وجدت نفسها وحيدة فريدة ولا ناصر لها في تربية الأطفال. ولكن ما إن يعود الزوج حتّى تعاود الحكم على مدى أهلية زوجها الأقل علماً منها. وهكذا يجب على المرأة أن تدرك أثناء غيابه عجزها عن اتّخاذ أي قرار، وتبيّن لأطفالها أنَّ أباهم يحبهم أثناء حضوره وأثناء غيابه، وأنَّ جميع أفراد العائلة يشعرون أثناء غياب الأَب وكأنَّهم في حزن وأسى.

لقد مرَّ على ظهور رسالة الإسلام أربعة عشر قرناً، والأربعة عشر قرناً لا

تُساوي شيئاً في مسار التاريخ. فإذا قال قائل بأنَّ الأنبياء لم يقدّموا شيئاً ولم يكن وجودهم ضرورياً، نردُّ عليه بالقول: وما فائدة الجامعات والمدارس الحديثة؟ هل قدّمت خدمة وارتقت بمستواه الأخلاقي؟ ثم إنَّ مدّة الأربعة عشر قرناً ليست بالمدة التي يستطيع خلالها بنو الإنسان الارتقاء من المدارج البدائية إلى مراتب سامية. وإذا كانت الأجيال لاتزال تتناقل في ما بينها ما تتوارثه من بيئتها، فعلى المرأة أن تعلم بأنَّ الإسلام قد رسم أصول مداراة الزوجة، وأصول مداراة الزوج، وحدَّد حقوق وواجبات كل إنسان بما ينسجم مع فطرته، وهو لا يقف حائلاً دون تقدّمه وسيره نحو الله. وإذا تهاون المسلمون في الطاعة والامتثال لأوامر الله؛ فما على الإسلام من ذنب، وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ المسلمين لم يتأخّروا كثيراً بالقياس إلى قصر هذه المُدّة الزمنية. وإذا أعطى المعلم درجات نجاح لطلاَّب معيّنين، بينما رسب طلاَّب آخرون في نفس الصف، فالذنب ليس ذنب المعلّم، وإنَّما ذنب الطلاَّب المتكاسلين عن الدراسة. وقد كان رسول الله ﷺ معلّماً لصف يضمّ تلاميذ من أمثال: علي وسلمان وأبي ذرّ والمقداد وما إلى ذلك، أمَّا الآخرون الذين لم يلحقوا بهؤلاء فالذنب يقع عليهم.

إذاً عليكِ أيّتها المرأة أن تكوني طالبة مجدّة في مدرسة الحياة. ووظّفي كل ما لديك من طاقات لزوجك وأولادك، وأولادك يوظّفون كل ما لديهم لأجلك، والكلّ من أجل الأولاد، والجميع يوظّفون كلّ ما لديهم لخدمة المجتمع. فالآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تفيد أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هم أولئك الذين شعّ نور الإيمان في قلوبهم وأنار باطنهم، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هم الذين يشعّون كالشمس ويضيئون ما حولهم.

عليك أيّتها المرأة أن تميّزي بسلوكك بين التسليم والتمكين. فالإسلام أراد منك التمكين لا التسليم، وحتّى زوجك لا يريد منك التسليم.

إذا أراد الزوج أن يحتضنك، وأنت تريدين التملّص من بين يديه، إلى أن يتضرّع ويتوسّل إليك ويستسلم لأهوائك الشيطانية، ثم تمكّنيه من نفسك

فهذا ليس تمكيناً، وإنّما هو استسلام في مقابل استسلام زوجك. ولو أن توسّله تبدّل إلى إعراض، لكان ذلك كبداية للاشمئزاز من العلاقات الجنسية. وإذا أراد زوجك أن يأخذك بين ذراعيه، ثم بدأت أنت بدغدغته لمدّة طويلة وقُمتِ ببعض الحركات المهينة مع الإكثار من كلمة «لا» بشكل مثير للسخرية وعلى نحو ينم عن الاستهانة بالزوج لإرغامه على الاستسلام والاستياء والإعراض، فهذا أيضاً لا يعتبر تمكيناً وإنّما هو استسلام في مقابل الاستسلام، ويؤدّي في ختام المطاف إلى إيذاء الزوج.

إذا أراد زوجك أن يأخذك في حضنه، ولكنك قاومت واشترطت أنْ يشتري لك شيئاً ما أو يدفع لك شيئاً ما، فإنَّ مثلك في ذلك كمثل من يعلن عن توبته عندما يحلّ به الموت. وقد أكّد القرآن الكريم عدم قبول مثل هذه التوبة؛ لأنَّها تأتي خوفاً من الموت لا لأجل الإنابة إلى الله والتقرّب إليه. وأنتِ أيضاً تستسلمين هنا للشيء الذي تريدينه من زوجك وليس لزوجك. وهذه الأمور تترك نتائج سلبية وخيمة على الشعور اللاواعي للزوج.

إذا أراد زوجك أن يحتضنك، وأخذت تعربين له عن عدم رغبتك، ثم تستسلمين له من بعد ما ترين أنّه شارف على الانفجار من شدّة الغضب، فهذا أيضاً ليس تمكين وإنَّما هو استسلام للخوف.

وإذا أراد زوجك أن يضمك إليه، ولكنك تذرّعت كذباً بوجود بقع دم دالّة على حلول الحيض، فهذا الكذب إثمٌ يؤدّي إلى إيجاد حاجز بينك وبينه. ولتعلم المرأة بأنَّها تتقبل تودّد الرجل حتّى وإن كان كاذباً، بينما ينفر الرجل بشدّة حتى من الملاطفة الكاذبة، وخاصّة إذا علم بأنَّ المرأة تخلَّصت منه بذريعة حلول الحيض. وحتّى لو ألقت الزوجة نفسها بعد هذا الموقف في حجر الزوج، فإنَّ عملها هذا يتّصف بالاستسلام لا التمكين؛ لأنَّ الإسلام لا يرضى بأن يأتي العمل الصالح مسبوقاً بالمعصية.

وإذا أراد زوجك أن يضمّك إلى صدره، فأظهرت له البرود، واعتبرت هذا

العمل ممارسة حيوانية، بل وحتّى ممارسة وحشية؛ حتى إذا تحقق الجماع في مثل هذه الحالة، فهو لا يُعتبر تمكيناً، وإنَّما هو نوع من الاستسلام الذي لا يتيح للمرأة سوى تقديم جسد بلا روح لتطهير وتزكية موقفها الجنسي البارد.

التمكين هو استثارة المزيد من رغبة الزوج عن طريق المقاومة والتمنّع، بحيث لا يشعر وكأنَّ زوجته تسخر منه، أو تقايضه سلعة بسلعة؛ والسخرية هي أن تنتزع منه الرؤية المستقبلية، والمقايضة هي أن تقايضه بثوب أو بمال أو ما شابه ذلك. ومن جملة علامات المرأة التي تمارس الاستسلام ولا تعرف التمكين هي لو أنَّ زوجها مرض أو عجز جنسياً تبيّن له أنَّه لم يكن على شيء من الأهمية وإنَّما كانت الأهمية لذكره. ولو سمع الرجل مثل هذا الكلام من المرأة لتصوّر بأنَّ كل ما بذلتهُ له المرأة من رعاية حتّى الآن إنَّما كانت تكريماً لذكره. وهذه المرأة حريٌّ بها أن تكون من أفضل تلاميذ مدرسة فرويد الذي كرّم الذكر بدلاً من تكريم الإنسانية، مثلما كرّم كارل ماركس البطون بدلاً من تكريم الإنسان. وما إن يتماثل الزوج للشفاء وينهض من فراش المرض حتّى يتحوّل البيت الذي كان موضعاً آمناً لاستراحته إلى سجن موحش يفضل الرجل الهرب منه انتقاماً من المرأة. وإذا مات الرجل يُلاحظ أنَّ زوجته فقط هي التي تصرّ على أن يجري تشييع جنازته بشكل مثير ومصحوب بالضجيج على غرار ما جرى في حفل زفافهما، رغبة في الحفاظ على كرامتها أمام ذويه. ومن الطبيعي أنَّ مثل هذا الرجل يحاول في وصيته ـ إن كانت قد سنحت له الفرصة في أيام حياته لكتابة وصيّته ـ أن ينتقم من زوجته بشكل أو آخر سواء عن طريق حرمانها من الامتيازات الاقتصادية، والأهم من ذلك هو أن يوصي أبناءه بعدم الزواج من أقارب هذه المرأة.

ومن هنا فإنَّ المرأة التي تمكّن ولا تستسلم، تصون كرامة نفسها وكرامة زوجها وتثبت تسليمها لله على كلّ ما يصيبها من خير أو شرّ؛ وتؤمن بأنَّ كلّ خير يأتي من الله وكلّ شرّ يأتي من الإنسان ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ

أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾[1] . وتمكين المرأة زوجها يعني الاستسلام لله. والتمكين معناه أنَّ المرأة تقول للرجل: إنني مؤمنة بقول القرآن ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[2] ولكنني أقف بوجهك مع احترامي لمقامك، فأنا أريدك أنت لا أريد شهوتك، وأنا أؤدّي هذا الدور من أجل أن تحبّني أكثر، وتمكيني إيّاك يصبّ في إطار تأجيج العناصر التي تركّز محبّتي في قلبك. والتمكين فن تجيد المرأة استخدامه في ليالي لذّتها لتصلح في ظلّه حياتها في الدّنيا والآخرة. وتسليم المرأة أمرها لغير الله يعني قطع الأسباب التي توصلها بالماضي والمستقبل وجعلها تعيش في ظروف عسيرة لا تفهم معها من أين تنهال عليها المصائب.

التسليم لا يستغرق سوى لحظة أو لحظات، أمَّا التمكين فله قاعدة واسعة ويمتدّ عبر منطلق زماني شاسع بين حالة البرود الجنسي للمرأة وحالة الهيجان الجنسي الذي يصل إلى ذروة اللذة، ويمتدّ على الصعيد المكاني إلى مخزن الثياب حيث تتدلى الثياب الجميلة للمرأة، وهي تلك الثياب التي تلبسها صباحاً ومساءً امتثالاً لأمر الإسلام وبنيّة التقرّب إلى الله، وتتزيّن بها وتتطيّب أمام زوجها. وهذه كلّها غصون وشجون، والأصل هو التمكين. أمَّا التسليم فهو عبارة عن رأسين لخط واحد كأي خط آخر من خطوط التكوين التي يمثل أحدهما العلم والآخر الجهل، وأحدهما الشجاعة والآخر الجبن، وأحدهما العدم والآخر الوجود. وهنا يُسلم الشخص لمن يملك هذا القدر الضئيل من الاختيار الذي وضعت له الشريعة أحكاماً ليسير في ضوئها ويعمل بشكل تلقائي كما هو الحال في قوانين التكوين التي تعمل بشكل تلقائي. فهو أيضاً يعمل خيراً بشكل تلقائي في إطار التشريع. وهذا هو معنى الاختيار. ولا يوجد للإنسان مثل هذا المقام في أي دين أو مسلك آخر. فالإنسان إمَّا حُرٌّ وإمَّا مقيّد، وبنو الإنسان كلّهم ينشدون الحريّة. والإسلام فيه درجة أعلى

---

(١) سورة النساء، الآية ٧٩.

(٢) سورة النساء، الآية ٣٤.

من الحرية وهي الاختيار. وكلمة الاختيار مشتقة من كلمة الخير، والشخص المختار هو الذي يؤدّي أعماله تلقائياً على أساس الخير. أمَّا المستسلم فهو الذي تأتي كلّ أعماله على سبيل الانقياد والخضوع. ولا يكون هو أحد طرفي الخطّ حتّى يكون طرفه الآخر هو الله. أمَّا التمكين فهو ذلك النمط من التسليم الذي سبق ذكره. والتسليم في أي مجال يستلزم رعاية الشروط الخاصة به. والتسليم للتعاليم الجنسية الإلهية له ميادين واسعة، وأحد تلك الميادين هو التمكين المقرون بالشروط المذكورة آنفاً. والتسليم لحظات يحصل فيها التقرّب. ولو أُمر فيها أن يقتل لقتل، وإذا أُمر بالجماع جامَعَ. بيد أن التمكين يحمل طابعاً إيجابياً ويختص بموضوع الجنس والشهوة. وخلاصة القول هي أنَّ التمكين هو التسليم للتعاليم الواردة في هذا المضمار، والتسليم يكون مصدر عزّة للإنسان أمام الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. بينما التمكين يجعل الزوجة عزيزة عند الله عن طريق الزوج.

التسليم يجب أن لا يكون للزوج وإنَّما لله. بمعنى أنَّ الله قد أغنى الإسلام بأدقّ المسائل ومن جملتها التمكين. ومن هنا فالتسليم لله يعني في ما يعنيه القبول بمسائل الجماع المتعلقة بالتمكين، والالتزام بها في مقابل الزوج. والتمكين في مثل هذا الحال لا يعني منح الحريّة التامّة للزوج والتخلّي عن الحريّة الذاتية، وإنَّما يعني وضع الزوج بين حالتين من الترغيب وعدم الترغيب وينضوي التمكين بينهما، وإيصاله إلى أعلى حدّ ممكن من الإشباع الجنسي. من الطبيعي أنَّ الرجل يستاء من شدّة تمنّع المرأة، ويسأم الزوجة والبيت وحتّى الرغبة الجنسية، كما أنَّه يشعر بالحقارة والمهانة من جرّاء تسليم المرأة تسليماً كليّاً. ومن هنا نراه يبحث عن موضع آخر كبديل عن هذا الوضع الجنسي المصحوب بالضعف والخمول.

(١) سورة المنافقون، الآية ٨.

ما وراء عدم التمكين

يجب على المرأة التي كانت تسير حتّى الآن في سلوكها الجنسي على هذه الطريقة، وكانت عدم معرفتها بالشؤون الجنسية سبباً لدفع زوجها إلى أحضان امرأة أخرى، أن تتبع الخطوات التالية في سبيل التخلّص من حالة الخيانة التي تشاهدها على زوجها:

ـ تذهب وإيّاه إلى زيارة الأماكن المقدّسة، أو إلى منطقة سياحية يحبّها الزوج، مع التمسّك بمبدأ التمكين والابتعاد عن أسلوب التسليم.

ـ استمالته بالدموع والآهات المصحوبة بالابتسام والإغراء، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يوصف بالهستيرية، مع التمسك بالتمكين واجتناب التسليم.

ـ تجنّب خداع الزوج، وتوجيهه، ونصحه، والتضييق عليه، ومشاجرته، وشتمه، والصياح بوجهه، وطرح مسائلها الاقتصادية أو مسائل أُمّها وأبيها أمامه، وعدم النظر إليه، والتحدّث عن خيانة الرجال أمامه، وذكر مثالب أهالي مدينة زوجها (إذا كانا من مدينتين) وعدم الاهتمام بشؤون الأولاد وتربيتهم، والبخل وعدم الإنفاق على الأسرة، والحديث عن نقص أعضائه والشماتة به، والنيل من والديه وأقاربه، والتهجّم على عمله والضغط عليه في سبيل ترك عمله، وعدم قراءة الصحيفة المفضّلة لديه. ومن المؤسف أنَّ المجال لا يتّسع للحديث بشكل مبسط عن التأثيرات السلبية الناجمة عن كلّ واحدة من هذه الأمور. ولكن أشير على سبيل المثال إلى أنَّ الصياح

والشتائم المتكررة تبعث في نفس الزوج الضجر من البيت، وتدفعه إلى الهروب منه.

وفي مقابل ذلك هناك أعمال إيجابية يمكن أن تستميل الزوج وتجتذبه إلى البيت وهي عبارة عن: الانتباه إلى ما يريده الزوج؛ فإذا كان يتناول الطعام ونظر إلى المطبخ أو إلى الثلاجة تسارع الزوجة لتقديم الماء له. وحتّى إذا لم يكن يريد ماءً يقول لا أريد الماء. إلاّ أنَّ هذا العمل يمثّل خطوة للتقرّب إليه.

عند مدّ مائدة الطعام، ينبغي على الأُمّ أن تُجلس الأطفال إلى جانب الأَب، وتجمع الأواني غير المغسولة على حدة، وتجعل للأب بعض الامتيازات، وإذا كذب لا تنهاه، ولا تجعله يلتفت إلى أنَّها علمت بكذبه، ويجب عليها في الوقت المناسب أن تحذّر طفلها إذا كذب من مغبّة الكذب على مسمع من زوجها. وإذا ذكر الرجل اسم فتاة أو امرأة غير متزوجة يجب على المرأة التظاهر بالحزن وتلزم الصمت، وإذا كانت تتناول الطعام تتظاهر وكأنَّ اللقمة وقفت في بلعومها. وعليها أن لا تُرائي ولا تكثر من الثناء على والديها وأقاربها، ولا تستخدم أسلوب التحايل، ولا تظهر العجز أمام زوجها، بل عليها بدلاً من ذلك أن تتضرّع إلى الله ـ أمام زوجها ـ وتبدي له عجزها وضعفها. وعليها أن تبدي حرصاً أكثر من ذي قبل على حفظ البيت ووضعه الاقتصادي، وتبيّن للزوج بأنَّها تصبح أكثر حرصاً على البيت عندما يكون هو غائباً عنه.

على المرأة أن تتجاوز عن أخطاء الزوج وتتغافل عنها، ولكن يجب أن لا تتركه يرتكب الأخطاء كما يشاء، بل يجب عليها أن تنبهه إلى أنَّ هذه الأعمال غير صحيحة ولها انعكاسات سلبية على الأطفال. وعليها أن تتجنّب مؤاخذته على الأمور التافهة، ولا تفرض عليه الأمور فرضاً، ولا تبدي الأشياء المهمة ـ في نظر زوجها ـ وكأنَّها غير ذات أهمية، وعليها أن تظهر على الدوام بأنَّها إلى جانب الزوج. والزوجان اللذان يبتعدان عن بعضهما

قليلاً لا يمكن لكلّ واحد منهما أن يبقى بمعزل عن الآخر، ولا بدّ لهما من معرفة مسببات التباعد وإزالتها.

إنَّ السبب الذي يمنع الزوج عن سؤال الزوجة هل تحبّه أم لا، ويجعل الزوجة تلقي هذا السؤال على زوجها مرّات عديدة هو: أنَّ الزوجة تتقبّل حتّى كذب الزوج في هذا المجال، أمَّا الزوج فيرى من الأفضل أن لا يلقي مثل هذا السؤال، وذلك لاحتمال أن يأتيه الجواب بأكثر من كلمة واحدة، أي أن يأتي الجواب مشروطاً ببعض الشروط أو مقروناً بإضافة قبول محبّة الزوج. ومن الأفضل للزوجة أن تعفي زوجها من هذا السؤال، وأن تثبت له من غير أن يسألها بأنَّها إذا كانت تحبّه وتحبّ العيش معه، فالسبب لا يعود إلى الذهب والثياب والمسائل المادية؛ وإنَّما لأنَّ الزواج يجب أن يصقل شخصية الزوج ويجعلها شخصية صلبة قادرة على مجابهة ضغوط الحياة. وإذا كانت الزوجة عبئاً ثقيلاً، فالأطفال عبء ثقيل أيضاً. وهذا العبء لا يتحمّله الزوج وحده، وإنَّما يجب أن تشاركه المرأة في تحمّله.

هناك مسألة كثيراً ما أسمع عنها الكثير من الشكوى والتذمّر وهي: أنَّ الزوج إذا مرض أبوه أو أُمّه أو أُخته أو أخوه، لا تقف المرأة ازاء هذه القضية الموقف المطلوب، ولا تهتم للأمر، بل تبدي تبرّمها وسخطها إذا اصطحبها الزوج لعيادتهم. وعلى المرأة أن تحذر من التلفظ بكلمات جارحة أو غير موزونة عند عيادة المرضى من ذوي زوجها؛ لأنَّ مثل هذه الكلمات لا ينساها الزوج ولا يتغاضى عنها، ولاسيما إذا تضمّن الكلام إشارة إلى أنَّ حياة أو موت هذا المريض سواء عندها. فهذا الكلام يجعل الزوج يعتبر زوجته امرأة مجرّدة من العاطفة. فالمعروف أنَّ عيادة المريض أمر ديني واجتماعي، وهكذا يتناقص القدر الديني والاجتماعي للزوجة في عين زوجها. وما تكاد تفتح عينيها حتّى ترى زوجها على علاقة بامرأة أخرى. وبعد تقصّي الأسباب تدرك أنَّ زوجها خانها أو مَدَّ عَيْنَ الشهوة إلى غيرها عقوبة لها فقط.

إنّ قول الباري تعالى في القرآن الكريم بأنّ الزواج يستجلب معه جميع النتائج الطيبة التي يمكن اختزالها في عنصري المودّة والرحمة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وهو موضوع سبق لنا شرحه، ومعنى ذلك أنّ المودّة والرحمة إذا تناقصتا؛ يزداد في مقابلهما مستوى الرياء والكذب والعناء والتذمّر. ولهذا يجب على الجانبين السعي لإسعاد أحدهما الآخر، وإلاّ فلن ينالا سوى الألم والمرارة.

أيّتها السيدة الموقّرة، لكي لا تدفعي ضريبة الزواج - وهي ضريبة أثقل من الضجر الدائم الذي يلازم بيتك، وأكثر مشقة من تعكّر صفو العلاقات الأُسرية الدائمة التي تبدو وكأنّها عُجنت بلحمك ودمك - عليك أن تعتبري هذا القسم من كتابي علاجاً ناجحاً لإشاعة البهجة في حياتك. وأنا واثق بأنّك ستضعينها قيد التطبيق في حياتك العملية. واستذكري على الدوام طريقة الأنبياء - التي تجري على العكس من طريقة النوابغ - حيث كان الأنبياء يعرضون مبدءاً عاماً، ثم يبدأون بطرح فروعه ومتعلّقاته؛ كانوا في أول الأمر يقولون: قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا. ثم يبينون بعد ذلك سائر التعليمات والأوامر والنواهي المتفرعة عن هذه المقولة. بينما يعتمد النوابغ طريقة المقدمات والفرعيات، ويأتون بها قبل النتائج، ويعرضونها بأساليبهم الخاصة. وأنا أودّ هنا أن أعرض جميع المطالب المتعلّقة بكِ وبزوجك في جملة واحدة بحيث تستشعران حلاوة طعم الحياة، ولكي تتحوّل حتّى مشاجراتكما إلى شيء جميل في مرحلة معيّنة، وقبل أن تصل إلى حدّ استعمال العنف، بل ويمكن القول بأنّ مشاجراتكما أيضاً تتحوّل إلى تمكين. وهذه الجملة تعتبر أفضل جملة في هذا الكتاب، وهي:

إن تقبّل صفات الزوج أسهل من رفضها.

ولو قدّمنا شرحاً موجزاً لهذه الجملة لاتّضح لنا مدى غناها. لو فرضنا أنّ زوجك يعمل موظفاً في دائرة، ويخرج صباحاً إلى محل عمله والأطفال

نيام، ويعود بعد الظهر وهم في المدرسة؛ فيتغدّى وينام. ويخرج ثانية قبل عودتهم من المدرسة، وعندما يعود ليلاً يكونون قد ناموا، ويتّصف فضلاً عن ذلك ببعض الخصال المقيتة الأخرى. فهل تستطيعين رفض صفاته هذه؟ وهل يمكنك تقويم سلوكه وصياغة شخصيته بشكل مشابه لشخصية أخيك مثلاً؟ والجواب هو: كلا؛ فهذا أمر غير ممكن على الإطلاق. ولكن يمكن قبول صفاته وأوضاعه هذه؛ أي القبول بذهابه إلى الدوام، وطول غيابه عن البيت، وخروجه لرؤية أصدقائه. ومن البديهي أن التكيف مع هذه الصفات يَرفع من منزلة المرأة بصفتها سيّدة البيت، ويسهم في رفع مستوى الحياة الزوجية المشتركة.

كلامي الوارد في هذا الكتاب غير موجّه إليك فحسب. فقد أوردت الكثير من وصايا الإسلام للرجل بحسن معاشرة المرأة، بحيث أنَّ أختي فاطمة كانت تقول لي عند قراءتها للأوراق التي كنت أكتبها وأضعها جانباً: لو كانت لديك بنت ماذا كنت تكتب عن المرأة؟ إنَّ أصول مداراة الزوجة صعبة هي الأخرى. ولكن المرأة مجبولة على ترتيب أحلامها الوردية الحلوة للحياة الزوجية قبل وقوع الزواج بسنوات طويلة، حيث كانت قبل الزواج تنام في فراش تراه وكأنَّه فراش الزفاف، وترى وكأنَّها جالسة في غرفة الزفاف وزوجها منهمك بإعداد الشبّاك الذي تكتمل به زينة تلك الغرفة لكي لا تعاني الزوجة من أي نقص. لقد كُنتِ قبل الزواج تَدْعمينَ اقتدار زوجكِ، ولكنك إذا لم تقبلي بخصاله، فمعنى ذلك أنَّك ترفضين حياة وضعتِ أنت بنفسك أُسسها، وإلاّ فتكوني كمن يسلك طريقاً لا ينتهي به إلى الغاية المطلوبة.

لا أنسى أنني شاهدت ذات يوم أُمّاً تقول لابنتها التي قاربَ أن يفوتها سن الزواج: لماذا ترفضين كلّ هؤلاء الشباب الذين يتقدّمون لطلب يدك؟ ثم إنَّ الأُمّ قرّبت الكرسي الموضوع في زاوية الغرفة وجلست قريباً منها وقالت: سمعتُ أحدهم يكنّي بالقول: إنَّ الفتيات لا ترضى إحداهنّ إلاّ بالزواج من

ابن رئيس الوزراء، وبعد سنة ترضى بابن الوزير، وبعد سنة ترضى بابن المدير العام، وبعد سنة ترضى بابن مدير القسم، وبعد سنة ترضى بابن الموظف. وأخيراً يجدونها حاملاً ولا يعلمون من أيّهم. وهي منذ ذلك اليوم تعاني وتكابد الأمرين وتشعر بالخجل أمام ربها. فقد سمعت من عالم الدين في محلّتها وهو يعرض بعض المسائل الفقهية بين الصلاتين أنّه قال: إذا خطب ابنتكم من ترضون دينه لا تردّوه ـ فالفتاة، بل وكلّ الأُسرة لا تحصل على مهر أفضل من الدين. عندها قالت: ليتني كنت قد فهمتُ هذه الحقيقة قبل هذا.

إنَّ القبول بخصال الزوج وتحمّل بعض طباعه عبارة عن نوع من التجوال الآمِن في حديقة الحياة. فإذا تحمل المرءُ أشواكها يشمّ في أعقاب ذلك أريج أزهارها. وهذا ما يؤدي بالنتيجة إلى ضمان سعادة الأُسرة. انَّ المطر رحمة، ولكن الناس يتّقونه بالسقوف والحواجز الأخرى سواء كانوا في قصور أَم في أكواخ. وإذا كان المطر رحمة فهو لا يخلو من المزعجات، ولكن إذا تحملناها نرى في أعقابها أرضاً ذات مروج خضراء، ونعيش في حدائق غنّاء. ومن المستحيل أن تحصل الفتاة على الفتى الذي كانت تراه في أحلامها الوردية. ويجب أن لا يفوتك بأنَّك إذا كنت في أُسرة ثرية لا يثقل عليك وجود طفلين أو ثلاثة. ولكن إذا لم تكوني في أُسرة ثرية فستلاحظين أنَّ الطفل الأول وحده بحاجة إلى مزيد من الجهد والعمل الإضافي والطعام الإضافي. ولكن اعلمي أنَّكِ في كلا الحالتين تلك الأُم العظيمة التي لا تسمح لليأس بالتغلغل في حياتها. ثم إنَّ الخوف من الحياة لا يتوقف على غنى تلك الأُسرة أو فقرها، وإنّما يتوقّف على أمور أخرى أيضاً ينعكس لها بريق خاص على ناصية كل من الرجل والمرأة، وأولّها شرط الإيمان الذي يجب أن يتوفّر لدى كلّ من الرجل والمرأة. وإذا ارتضت المرأة أخلاق زوجها قبل رفضها لها فإنَّ ذلك يمثل دليلاً على وجود علائم الإيمان لديها. وهذا الرضى بخصال الزوج يعتبر مجرفة قوية تزيل كل ألوان القلق والاضطراب من طريق

الحياة. إذا كنتِ في بؤس عليك السعي بكل شجاعة لإخفاء بؤسك. لأنَّ إخفاء البؤس يقلّل أثره الوصفي ولا يزيل قبحه، والأهم من كلّ ذلك أنّه لا يؤدّي إلى سرور العدو وحزن الصديق. إنَّ تحمّل خصال الزوج يعدُّ بمثابة عقوبة للعدوّ الذي يحلو له أن يرى معالم العداء والهواجس، ويسمع أصوات الاضطراب والخصومة تعلو من بيتك.

أورد هنا جملة اعتبارية أخرى وهي: إنَّ نجاح المرأة يمكن أن يضاهي نجاح الرجل فيما لو قيل لك: إنَّ نجاحك أيتها المرأة لا يقتصر على تحمّل الآلام التي فرضتها عليك طبيعتك الأُنثوية كالحيض والولادة والرضاعة وذلك لأنَّ الرجال يعانون آلاماً مثيلة لها أو أقسى منها، ولكن نجاحك يتمثّل في تحملك لآلام عانت منها كبريات نساء العالم، ويمكنك من خلال التأسي بهنّ استشعار معاني العظمة في نفسك. فقد كانت آسية زوجة لفرعون، ولكن رسول الله ﷺ وضعها في مصاف بضعته فاطمة وزوجته خديجة وأُمّ عيسى مريم. بمعنى أنّك حتّى لو اعتبرت زوجك فرعون (سواء كان تقييمك خاطئاً أو صحيحاً) انظري كيف كرّم الله هذه المرأة بسبب قبولها لخصال زوجها. فقد جاء في القرآن الكريم على لسان آسية أنّها قالت تدعو ربّها: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾[1]. لقد قبلت آسية بيت زوجها، لكنّه كان قصراً يتعذّر عليها المبيت فيه، بينما المرأة تريد بيتاً يكون زمام قيادته بيدها وتعيش فيه هي وزوجها. إلاّ أنَّ الشيء الذي لم يستطع إشباع طبيعتها الأُنثوية، وجعلها تشخص إلى ربّها ببصيرتها المجهزة بسلاح الإيمان، وهو ما لم تنله في مقابل القبول بخصال زوجها، هو الأمل برحمة الله الذي انقطع خلال ارتباطها بفرعون ومعيشته القائمة على الطغيان. واستغرقت خلال هذا القطع والوصل في صمت أبدي بهيج.

---

(١) سورة التحريم، الآية ١١.

من الطبيعي أنَّ زوجك لا يمكن أن يكون كفرعون. ويكفي أن تجرّبي ذلك في مشاجرة واحدة من المشاجرات لتري هل أنَّك تتوجهين إلى الله بالدعاء والتضرّع والاستعانة، أَم تستخدمين أسلوب التهديد، أَم تتمنين الموت، أَم تستخدمين أسلوباً أكثر ضعفاً، وهو: أسلوب الشتائم والصياح؟ متصورّة أنَّك تستطيعين بذلك إلحاق الهزيمة به. من الواضح أنَّ أفضل الطرق وأسلمها هو القبول والتحمّل. ومن غير الممكن أن ينكر الرجل قدسية هذا العمل ـ أي التحمّل ـ وإذا وعى صبرك عليه وتحمّلك له يحترمك أكثر. وهذا وحده كافٍ لتقييم مكانتك. وإذا كان لدى الرجل ذرّة من الأخلاق وفهم أنَّه أخطأ بحق زوجته، وأنّها تحمّلت خطأه على مضض، لا شكّ أنَّه يسعى إلى تلافي ما حصل. إلاَّ أن يكون قد أخطأ ولم يدرك أنَّه أخطأ. وهذه من أسوأ الحالات، وهي أن يكون المرء مريضاً ولا يعلم بأنَّه مريض.

إنَّ مواجهة المرأة لأيّة مشكلاتٍ في حياتها الأُسرية شبيه إلى حدًّ بعيد بحالة الحمل، حيث يُقال ـ ولا أدري إن كان القول صحيحاً أَم لا ـ بأنَّ المرأة التي تريد مزيداً من الأطفال لا يولد لها إلاَّ أطفال قليلون، والتي تريد أطفالاً أقلّ يولد لها أطفال أكثر ـ إلاَّ أن تعالج المشكلة بشكل عملي ـ وهكذا الحال بالنسبة للمرأة أيضاً فهي كلما قلَّلت من التحدّث عن سلبيات زوجها واجهت مشاكل منه أقل. ومن جملة الأخطاء التي تقع بها هو تضخيم الوقائع والكلمات التي تصدر من الأبناء. فالمرأة تحاول عن هذا الطريق الإيحاء بضخامة المسؤولية التي تتحمّلها. وإذا كانت غايتها من وراء ذلك هي استعطاف الزوج واستدرار مشاعره فهي مخطئة. لأنَّ تضخيم أخطاء الأطفال والتركيز على كيفية الألعاب التي يمارسونها، وتهويل الأمور المتعلّقة بهم، يتسبب في هروب الزوج من البيت.

المرأة والحمل

إنَّ مشاعر المرأة تصبّ على الدوام في تيار مشاعر الرجل. فلو حملت الزوجة فاضطرّ زوجها إلى معاشرة امرأة أخرى، تبقى تنظر إلى ذلك الجنين البريء، وإلى ذلك الصبي لاحقاً نظرة متشائمة، وترى أنَّ قدمه النحس هو الذي أدّى إلى وجود امرأة أخرى في حياتها. والحقيقة هي أنَّ كراهية هذه الأُمّ لولدها تتناسب طردياً مع حرمانها من متعة النكاح. ومن هنا فإنَّ المرأة الفاهمة تعود بذاتها إلى ذكريات أيام صباها، وتقارن هذه الحالة مع حالتها آنذاك، وتذعن ببراءة طفلها، وتكفّ عن معاقبته، وتمتنع عن تقديم هذا الطفل البريء كضحية على مسلخ معاناتها.

من المثير للدهشة أنَّ الأُم لا تقول لزوجها ـ إذا كان مقصّراً ـ لقد عانيت آلاماً كثيرة أثناء ولادتي لأطفالك، ولكن تقول هذا الكلام لأولادها إذا لاحظت منهم أي جفاء؛ وذلك لأنَّ المرأة لو عذّبت طفلاً يتيماً فلن تغفر لنفسها حتى لو غفرت لها والدة ذلك الطفل، وحتّى لو كبر ذلك اليتيم وبلغ مبلغ الرجال وسامحها، فهي لا تسامح نفسها. إنَّ المرأة تستشعر من ألم الولادة لذّة من نوع خاص. وقد ثبت بأنَّ الولادة الخالية من الألم تجعل من الأُم قاسية على أولادها. وقد لوحظ في ما يخص الحيوانات بأنَّ حالات الولادة الخالية من الألم تدفع ببعض الحيوانات إلى إيذاء صغارها، أو يدفع بعضها كالغزلان مثلاً إلى الفرار من صغارها المولودة حديثاً. وعلى كل

الأحوال فإنَّ المرأة التي تسلب منها لذّة ألم الولادة تندفع بشكل لا إرادي إلى معاقبة الوليد على أثر إخفاقها في هذا المجال. ولكن لا فائدة من طرح الأُم لمثل هذا الموضوع على الأَب؛ وذلك لعلم المرأة بأنَّ عاقبة النكاح تؤدّي إلى الولادة، إضافة إلى ما يسبق النكاح من موافقة الطرفين. ويُستفاد من ذلك أنَّ الأُم تطرح على أولادها موضوع ألم الولادة من أجل استمالتهم واستعطافهم.

من الطبيعي أنَّ المرأة الفاهمة لا تصل بها الأمور إلى هذا الحدّ، ولا ترى ضرورة التحدّث عن آلام الولادة التي كانت الأُم تطلبها بنفسها؛ على اعتبار أنَّها تدرك بأنَّ الجنين كان عضواً من بدنها ويجب أن يُفصل. وفصل أي عضو من البدن ترافقه آلام مبرحة مثلما ترافق الآلام قطع أي عضو مصاب بالسرطان. ولا تفوتنا الإشارة إلى أنَّ نسبة آلام الولادة ـ المصحوبة باللذة إلى الأولاد ـ تنطوي على نوع من التسامح، بحيث تتحدث الأُم عن جانب من جوانب اللذة، في حين أنَّها لا تقول لولدها إنني تحمّلت من أجلك الآلام اللذيذة للجماع. وذلك لأنَّ عامل الخجل يحول دون ذلك، فضلاً عن اختيارية الجماع وإجبارية الولادة، ومجيء الصبي هناك إلى الرحم، ومجيئه هنا إلى كيان الأُسرة. وهذا المعنى ينمُّ عن التعارض وعن الاختيار والجبر. فالاختيار قد يكون حسناً أو سيئاً، وأمَّا الإجبار فهو مفروض سلفاً، والأُم تعلم عدم منطقية توبيخ الطفل على الأبواب المحتملة للجماع حيث جاء هو على أثر التقاء نطفة الرجل بنطفة المرأة. واختيار المرأة لا يمكن أن يثير مشاعر تعقبها منّة، وهو أن تحاول المرأة القبول بانفصال الطفل من جسدها مثلما تقبّلت في بداية الأمر وجوده في بطنها. فالولد ليس لديه أيّة إجابة عند مشافهته بموضوع آلام الولادة، وحتّى إذا كان لديه مثل هذا الجواب فهو لا يبيح به للأُم بسبب عظمة مكانة الأُم في قلبه.

الإنسان في داخل الإنسان يصبح وجوداً لا متناهياً من ناحية الكمّ والكيف. والمرأة ترى ضمن المنظار الاجتماعي والديني حينما يكون الطفل

في بطنها إنساناً داخل إنسان، وأنَّ كل المستقبل وكل الناس هم ذريّتها إلى الأبد. وهذه هي الأبدية التي أشار إليها رسول الله ﷺ استناداً إلى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1] واصفاً الحامل بأنَّها «**كالصائم القائم المجاهد في سبيل الله**». . .

يختلف الإنسان عن سائر الكائنات الأخرى بأنَّه غير محدود في إطار أعضائه وجوارحه. لأنَّ الإنسانية مرادفة لكلمات الأنس والنسيان والتقلّب والتغيّر. والمرأة تتحوَّل عند ذاك إلى كيان آدمي، والكيان الآدمي هو خليفة الله في الأرض. وهي إذا تبتّلت إلى ربّها، وانقطعت إليه، يصبح شأنها كشأن مريم العذراء التي لم يثر عجبها إلاَّ ملك، ولم يستولدها لاحقاً غيره. ومعنى هذا أنَّ المرأة كانت أوَّل أمرها بشراً، ثم صارت إنساناً، ثم اتّحدت مع خليفة الله أو الملك لكي يصنعا سوية إنساناً آخر. وهكذا إلى ما لا نهاية.

من المؤلم جداً أن تكون النبوّة مقرونة بالأذى والاستهزاء، والحمل أيضاً يقترن بالأذى الدائم. لقد استخدم الرسول كلمة «أوذيت» لنفسه والتي تستخدم لوصف محيض المرأة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[2]. كان الأنبياء يواجهون بالاستهزاء والسخرية: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3]. بمعنى أنَّ الرسول يعيش بين قوى شيطانية، والمرأة أيضاً تعيش في مرحلة الحمل في ظروف عسيرة مليئة بالألم والهواجس. ولكن لا الرسول يستعظم ذلك الاستهزاء؛ لأنَّ لذّة القرب إلى الله فيها درجة هائلة من الطاقة الروحية التي تجعل الرسول ﷺ يوحى إليه: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾[4] ولا الأم تنظر إلى لذّة الحمل

---

(١) سورة القصص، الآية ٨٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

(٣) سورة يس، الآية، ٣٠.

(٤) سورة طه، الآية ٢.

والرضاعة وكأنَّها شيء بعيد عن الطبيعة البشرية الشبيهة بالطبيعة الملائكية، والدليل على ذلك أنَّها على استعداد لتكرار هذا العمل مرّات عديدة عن طيب خاطر. والمرأة التي لا تحمل تعرف مدى الحرمان الذي يصيبها من هذا الجانب.

المرأة التي تفطم طفلها تشعر وكأنَّها آثمة، فتسارع إلى إرضاعه من جديد، وتحاول إلقاء مسؤولية هذا الإثم على والدتها، فتسألها: أرضعه مرَّة أخرى أَم يكفي هذا؟ والكثير من الأُمّهات يراجعن الطبيب لغرض التخلّص من مسؤولية الفطام وإلقائها على عاتقه. وإذا رأى الطبيب أنَّ سنّ الطفل ملائمة للفطام، تعيد السؤال عليه مرّات ومرّات. فإذا كان الطبيب متديّناً يمكنه الاستشهاد بالآيات القرآنية لتأكيد إمكانية الفطام في مثل هذا السن، كقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[2] وتتضمن هاتان الجملتان المقتطفتان من القرآن الكريم معانٍ عميقة أشير إليها في ما يلي:

جاءت كلمة «فصاله» وهي تنطوي على معنى العزل والإبعاد وتقابل معنى الوصل. ووردت كلمة الحول للدلالة على التغيّر والتبدّل، ولم ترد كلمة «العام» التي تعني السنوات التي مرّت على الإنسان تحت سيادة القانون الإلهي، ولم ترد كلمة «السنة» التي يراد بها الأعوام التي تمرّ على الإنسان والحيوان.. وإنَّما وردت كلمة «الحول» لوصف حالة التغيّر التي يمر بها الجنين والوليد.

أشار القرآن إلى أنَّ مدّة الحمل والرضاع ثلاثون شهراً، وذكر في موضع آخر أنَّ مدَّة الرضاع حولين. وفي هذا المعنى معجزة طبية، وهي أنَّ مدَّة

---

(١) سورة الأحقاف، الآية ١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٣٣.

الثلاثين شهراً إذا حُذفت منها سنتان فالمتبقّي هو ستّة أشهر وهي مدّة كافية إذا وُلد بعدها الطفل يمكن أن يعيش. وكلما ازدادت مدّة الحمل؛ كأن تبلغ عشرة أشهر مثلاً، يمكن تقليل مدّة الرضاعة، إلى عشرين شهراً مثلاً بحيث يكون المجموع ثلاثين شهراً. ولا شكّ في أنَّ التزام الأُمّ بما ورد في القرآن الكريم بخصوص مدّة الحمل والرضاع يعود عليها بالثواب بسبب امتثالها للأمر حرصاً منها على سلامة نفسها وطفلها، ويفيد أنَّ الطفل قد شبع من الحليب بدون أن يحصل توقف في نموّه الجسمي، وفضلاً عن كل ذلك فإنَّ هذا الطفل عندما يكبر ويصل إلى مرحلة البلوغ ويعي بأنَّه شبَّ على القرآن، وكيفية انعقاد نطفته جاءت وفقاً للقرآن، ومدّة حمله ورضاعه جاءت حسبما أمر به القرآن، وفطامه من الحليب جاء وفقاً لأمر القرآن، فإنَّه سيشكر ربّه ويشكر والديه على أساس قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[1] وسيكون من أبناء الخير والصلاح.

الأطفال قد يأتون إلى الحياة في ظلّ ظروف محتملة أو قطعية. والظروف المحتملة هي تلك التي يحصل فيها الجماع لا بقصد إنجاب الذريَّة، ولكن النطفة تنعقد على أثر ذلك الجماع. أمَّا الظروف القطعية فهي تلك التي يحصل فيها الجماع بقصد إنجاب الذريَّة، وقد تنعقد على أثره النطفة أو قد لا تنعقد. امَّا الحالة الثالثة فهي التي تتبع فيها المرأة طريقة النعامة في التكاثر، وهي أن تلقي بيضها على رمال الصحراء الحارة. ومثل هذه الحالة من التكاثر لا تحتسب على الظروف القطعية ولا على الظروف المحتملة، وإنَّما هي من توابع الظروف المحتملة؛ فحيثما توفّرت أسباب الجماع يقع الجماع، وتنسى المرأة في مثل هذه الحالة بأنَّها مصدر الحياة، وأنَّ هذا الجمَاع قد يؤدّي إلى خلق كيان بشري آخر يأتي إلى الوجود بلا طبيب، ويكبر ويترعرع بلا مُربٍّ أو وليّ.

---

(١) سورة لقمان، الآية ١٤.

والأُمّ في كل تلك الأحوال نعامة؛ فهي تحمل الأثقال من جهة شبهها بالبعير، وتطير من جهة شبهها بالطيور. فهي التي تتكفّل بتوفير الطعام لزوجها ولنفسها وللأولاد، وقد يكون مجال عملها في الزراعة، أو في مجال البيع والشراء في السوق.

ولا يخفى أنَّ بعض السيّدات يفضّلن أسلوب أجهزة التفقيس لكي يتخلصن من عبء الحمل لمدّة تسعة أشهر، وينقلن هذه المهمة إلى الرحم الصناعي الذي تلقي فيه نطفتها لتنعقد فيه مع نطفة زوجها أو نطفة رجل آخر يتّصف بالنبوغ. وتضع ذلك الرحم الصناعي إلى جانب الغرفة لتشاهد في كل يوم نموّ هذا الجنين العزيز. ثم تذهب إلى النزهة على ساحل البحر، وبعدما تعود تكون قد ولدت. وهكذا تقدّم هذه السيّدة إلى المجتمع شاباً لا يعرف غير السينما ومراكز اللهو والمراكز الأخرى التي تتناسب مع نمط تربيته.

المرأة التي تحمل وتُنجب وفقاً لتعاليم الشريعة يصدق عليها قول الرسول الكريم ﷺ: بأنَّها كالصائم القائم المجاهد. وإلاَّ فإنَّ المرأة التي لا تتمسّك بأحكام الشريعة لا تُعتبر صائمة ـ حتّى وإن تحمّلت أقسى ظروف الجوع ـ لأنَّ قول الرسول يصدق على نساء الأُمّة، والأُمّة هي الجماعة السائرة على نهج الرسول. أمَّا المرأة المنافقة أو الكافرة أو التي تُسخط زوجها؛ فلا نصيب لها من الحمل إلاَّ ثقله، ولا تكون أرضاً خصبة إلاَّ لذرية معادية للدين. وشرّ النساء هي تلك المرأة التي ترتكب من الفواحش ما يجعل ذريّتها تكتسب كل الفواحش، وتنقلها إلى الأجيال اللاحقة.

ذكرت ذات مرّة أنَّ شاباً كان له مخزن من التمر، وعندما حان أجله أوصى إلى رسول الله أن يقسَم ذلك التمر بين الفقراء. وبعدما قسم رسول الله ﷺ التمر وجدت تميرات يابسات بقين في ذلك المكان، فقال: **«والذي نفس محمّد بيده لو أنَّ هذا الشاب أنفق التمر بيده لكان أفضل له من أن يوصي بذلك إلى رسول الله»**.

أجل، إنَّ الكثير من الأعمال والأدعية والأقوال التي تصدر عن الأنبياء يحملها النَّاس محملاً آخر. والمراد من كلام الرسول هنا هو أنَّ هذا الشاب لو كان حيّاً وأنفق بيده لكان عمله ذاك مدعاة لتقوية الجينات الناقلة للصفات الوراثية الإيجابية، ولكانت سبباً في نقل هذه الصفة إلى أبنائه وأحفاده إلى نهاية الوجود. والمرأة التي تسعى لتطبيق الأحكام الإسلامية في ما يخصّ الحمل والولادة ومعاشرة الزوج وتربية الأبناء يكون لها أجر الصائم القائم المجاهد. لأنّها بعملها هذا تقوّي الجينات التي تحمل الصفات الحسنة لديها ولدى أولادها. وهكذا فإنَّها لا تنسى مزرعة الدنيا، ولا تندم في الآخرة على ما زرعته من خير في الدنيا.

على الرغم من أنَّ كلّ ما أثبت العلم صحّته في الوقت الحاضر في المجال الصحي، كان الإسلام قد أوصى به قبل أربعة عشر قرناً ـ والحق مع المتقدّم طبعاً ـ إلاَّ أننا هنا نتحدث من منطلق إسلامي وليس من منطلق صحّي.

بالقدر الَّذي تستغرق فيه الفتاة أثناء البلوغ الجنسي بأفكار الحياة الزوجية، تنهمك في أثناء فترة الحمل بحالة الجنين الذي يسبب لها بوجوده غير المشهود آلاماً مقرونة بالاحترام. وهذا هو المسار الطبيعي الذي يجب أن يسير عليه كلّ رجل وامرأة يعيشان هذه الحياة، وهو مسير تعتريه حالات متباينة من الحزن والفرح، والألم والراحة، ومرّة يكون فيه الإنسان ابناً ومرّة أباً، وتلمّ به حالات من الفعل وردّ الفعل، والجبر والاختيار. وخلاصة القول أنَّ الإنسان يعيش فيه بين مجموعة من الأضداد (لا يخفى أنَّ المراد بالأضداد هو ما يختص بأمرين أحدهما وجود والآخر عدم، والعدم هو الآخر له وجود من قبيل البياض والسواد، ولو لم يكن للعدم وجود لكان ذلك تناقضاً كالوجود والعدم؛ فإذا خطر أحدهما على الذهن لا يمكن تجاهل وجود الآخر. ومثاله في ذلك كمثال الإبصار وعدم الإبصار وأمثاله حيث يكون

لعدمه حالة وجود خاص، وهذا هو ما يسمّى بالتضاد) ومعنى هذا أنَّ الحياة عبارة عن مسير تتدافعه قوّتان من الجبر والاختيار.

لماذا يصف الرسول ﷺ الحامل والمرضعة كالمجاهد الصائم الذي يجاهد في سبيل الله؟ لعلَّ أحد أسباب ذلك هو أنَّ هذه الحالة يمكن التمييز فيها بين المرأة المتمسّكة بالإسلام والمرأة المتحللة من الدين. وذلك أنَّ المرأة المسلمة لو حملت على وجه غير مشروع، وأرادت أن تحول دون ولادة هذا الطفل غير الشرعي فإنَّها تستشعر الخجل في ذاتها ازاء مثل هذا العمل؛ بل وتعتبر نفسها آثمة. وهذا يعني أنَّ المرأة المسلمة تحترم القانون الذي خرقته. ولو أنَّ هذه المرأة التي تريد إسقاط جنينها تابت إلى ربّها من عملها هذا واستغفرت ربّها من أهوائها، تدخل في مصاف النساء الحوامل اللائي يتحملن الآلام في سبيل زيادة نسل الإسلام. ونقول يتحملن الآلام لأنَّ الحمل ألم، ويستلزم الصبر على التفكير في حيثيّاته. فالحامل ـ كل حامل ـ تتأمل أن تنجب ذكراً يُعوّض لها عن المآسي التي لقيتها في حياتها. ولكن الحامل تبقى تعيش في قلق دائم لئلاً يأتي طفلها ناقصاً أو متخلّفاً. ولا شكّ في أنَّ صبر الأُمّ أو توبتها عن كل فكرة طائشة، أو صفاء نيّتها في أن تكون سبيلاً لمجيء إنسان مسلم ينضم إلى جموع المسلمين، يترك تأثيراً سلبياً على جنينها وعلى جميع الجينات في بدنها، وتصبح أكثر قوة على حالات الحمل اللاحقة. ولهذا فإنَّ عدم الرضا بالحمل أو عدم تحمّل الآلام التي تصاحب الولادة يُعتبر إلقاءَ لسيف الجهاد وانسحاباً من ميدان المعركة.

أشرت مرّات عديدة إلى أنَّ الجنين في الرحم لا يُعتبر مجرّد جسم؛ وإنَّما هو كائن حيّ، وهو يتبادل في بداية تكوينه، ومن بعد تشكيل شبكة الأعصاب المركزية معلومات واسعة، وتمارين كثيرة لتعلّم كيفية العيش في الحياة. ومن جملة ذلك أنَّ الجنين في الرحم يتغذّى ويطرح الفضلات ويضحك ويمصّ اصبعه ويحلم. وهذا يعني أنَّ الجنين يجب أن يُنظر إليه

كإنسان وليس كمجرّد جسم. وإذا نظرنا إليه كجسم فهو جسم يتكوّن من مادة ومن روح، فقد قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾[1] وقال أيضاً: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾[2].

والأُمّ مهما تصوّرت بأنَّ زواجها كان فاشلاً يبقى الأمل يراودها بأنَّ رؤية المولود الجديد ستبعث في نفسها السرور والبهجة. والرجل المسلم إنَّما يكرّم زوجته الحامل انطلاقاً من قول رسول الله بأنَّ الحامل كالصائم القائم المجاهد في سبيل الله. والرجل يرى أنَّ المرأة تصنع بقلبها قلباً آخر، وتصنع بعينيها عينين أُخرتين، وسيكون هذان القلبان وهاتان العينان له هو أيضاً، ولكنهما جاءا عن طريق الأُم، ويكون هذا الطريق مصدر سرور وسعادة للرجل من جهة، ومصدر ديمومة للحياة البشرية من جهة أخرى. والحامل ترى أنَّها بحملها لا تقلّ شيئاً عن بقية النساء، ومن هنا فهي لا تشعر بأي نقص. ولكنها لو لم يكن لديها ولد لكانت تشعر بالنقص والغربة والعزلة. وإنَّما تتحمّل المرأة جميع الآلام والمصاعب في سبيل أن يكون لديها طفل يخرجها من حالة الغربة والعزلة.

تتخذ الفتاة في مرحلة ما قبل الزواج من جسمها البديع وعنقها المرمر وعينيها الواسعتين كأداة للتخلّص من الغربة وكأسلوب للفرار من حالة العزلة. أمّا بعد الزواج فهي تتخذ من طفلها طريقاً للخروج من عزلتها. ويتضح من خلال رغبة النساء العاقرات بالولادة ـ ولو لمرّة واحدة حتّى وإن جاء الطفل غير سليم ـ بأنَّ رغبة المرأة في الخروج من حالة العزلة تفوق رغبتها في حفظ النسل. وحفظ النسل هو السبيل الوحيد لإخراجها من غربتها وعزلتها.

---

(١) سورة الشمس، الآيتان ٦ ـ ٧.

(٢) سورة البلد، الآيات ١ ـ ٣.

من الطبيعي أنَّ الصبر والتحمّل الذي تتعلّمه المرأة في فترة الحمل ينعكس على خصالها النفسية وسجاياها الأخلاقية؛ فتصبح أكثر مقدرة على إدارة شؤون البيت والأُسرة ومداراة الزوج، ولا يتسنّى لها عند ذلك التخلّي عن شيء منها. ممَّا يجعلها بالنتيجة تعيش في حالة من الاستقرار النفسي بعيداً عن الاضطراب والقلق، وتقدّم للمجتمع أبناءً أكثر صلاحاً.

عندما يصرّح القرآن الكريم بأنَّ: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾[1]، فهو يظهر جانباً آخر من جوانب إعجازه. فعندما جاء جنكيزخان وقتل ودمّر، قال الناس ولازالوا مع الأسف ـ يقولون: لماذا ننجب ولماذا نبني؟ ألِلقتل والدمار ننجب ونبني؟ والملاحظ هنا هو أنَّ جنكيزخان قتل جيلاً واحداً ولكن الناس لازالوا منذ سبعمائة سنة يتحدّثون باستياء وتذمّر عن تلك المجازر وعن كيفية التعويض عنها. وقد عمدت بعض الدول في الوقت الحاضر كألمانيا واليابان إلى ضرب جدار على آثار الحرب ومخلّفات الدمار والقتل، وطوت عليها صفحة الماضي، وبدأت في الأيام التالية لها بالتعويض عن تلك الخسائر في الممتلكات والأَنفس، والخروج من حالة العزلة والوصول إلى الكمال والمدنية.

تعيش المرأة أكبر منعطف لها في ميدان الصوم والقيام والجهاد حينما تكون في حالة النفاس؛ وذلك لأنَّ انفصال الطفل عنها يلفت نظرها نحو عالم الخَلق. وقد بيّنت سابقاً أنَّ السبب الذي يجعل نسبة التديّن بين الفلاحين أكثر من العمال هو: أنَّ الفلاَّح أينما ينظر لا يرى إلاَّ آثار صنع الباري، ويرى الطبيعة زاخرة بأشياء لم تصنعها يد إنسان. أمَّا العامل فهو أينما ينظر لا يجد سوى أشياء من صنع الإنسان. وحينما تتأمّل المرأة في خلق طفلها لا ترى أنَّ العمل الذي مارسته هي وزوجها يرقى إلى عظمة هذا المخلوق الذي بين يديها.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣٢.

ترى الأُمّ أنَّ طفلها لا يُقَدَّر له أن يأتي إلى الحياة لولا وجودها، ومن هنا فهي ترى تعلّق ولدها بها أمراً حتمياً لا مناص منه. وكلّ فتاة وفتى يدرك هذا التفكير الذي تحمله الأُم، يفهم السبب الذي جعل الباري تعالى يوصي بالأُمّ كل هذه الوصايا ويحثّ الأبناء على الإحسان إلى الوالدين. ويكفي النفساء أن تشعر بأنَّ وليدها ـ حتّى وإن انفصل عن جسمها ـ فهو يعود إلى الارتباط بها من جديد عن طريق الرضاعة، ويصبح أكثر قرباً منها ممّا كان عليه أيّام كان في رحمها، وتشعر بوجوب إرضاعه من أجل تقوية بنيته الجسدية.

قسمت الرضاعة ـ التي يقع زمام خيارها بيد طرف واحد ـ بشكل بحيث يكون للأُمّ خيار للتدخّل في هذا العمل. فمن غير المتوقّع بالنسبة للأُمّ أن يكون الجنين في رحمها ذا حرية تامّة لتناول غذائه متى ما شاء، ويتقلّب في السائل الأميني كيف يحلو له، من غير أن يكون لها أي خيار في الموضوع. أمّا بعد الولادة فإنَّ الأُمّ لا تبقى مسلوبة الإرادة كما كانت عليه في السابق؛ وإنّما يصبح بإمكانها تأخير الإرضاع، أو حتّى الامتناع عنه؛ كأن تقول للأَب مثلاً إذا لم تدفع لي أجور الإرضاع لا أرضع الطفل. ولكن حتّى لو أنَّ الأَب رفض دفع الأجور يبقى الأجر ديناً في رقبته، فإن الأُم لا تسمح لها عواطفها بالامتناع عن الإرضاع لأنَّ الرضعات الأُولى من الحليب فيها قيمة غذائية وفوائد صحية للطفل ويجب أن لا تُهدر. وهذا الخيار الذي يُمنح للأُمّ يخرجها من حالة الإرغام التي كانت فيها، ويجعلها تشعر وكأنّها حققت نصراً ساحقاً.

وهنا نعود إلى مبحثنا السابق في ما يتعلَّق بالتمكين. فالأُمّ تأنس بطفلها وترى فيه جميع الصفات الجميلة وترى فيه ملاذاً لها من يأس الحياة الزوجية وآلامها. ولكنها إذا كانت تعيش قبل الحمل حالة من النفور بسبب عدم التمكين، فإنّها حالياً لا تشعر بالإشباع العاطفي مع الطفل بسبب غلبة ذكرياتها السابقة، ولا تستطيع الانتقال إلى عالم السعادة من خلال معايشة هذا الجسم

الصغير. بل تبدو وكأنَّها تقضي عقوبة على معصية سابقة، وهي معصية عدم التمكين. ومما يلفت النظر هنا هو أنَّ عدم تأكيد الإسلام على بعض التفاصيل الجزئية المتعلّقة بالجماع يُعزى إلى عدم أهميتها أو عدم تأثيرها في الوقائع الكمية والكيفية للحياة. في حين يلاحظ أنَّ التمكين له تأثير بالغ على ماضي ومستقبل الأُم والأَب والأولاد.

من المعروف أنَّ المرأة تبادر إلى القيام بالتنظيف والترتيب استعداداً لاستقبال أي ضيف جديد. وهذا المعنى ينطبق على الطفل أيضاً حيث تتلقاه بكثير من الاستعدادات، ومن جملة ذلك أنَّها تخرج الأشياء القديمة وخاصة الكتب القديمة من غرفته؛ وذلك لأنَّ الكتب القديمة تضمّ بين طيّاتها فيروسات فتّاكة وبعضها يأكل الأوراق ويحيلها إلى مسحوق دقيق (وقد تمّ في الآونة الأخيرة إعداد مستحضر من الطلاء تدهن به الكتب القديمة للحيلولة دون انتشار هذه الفيروسات التي يستطيع بعض أنواعها حتّى أكل التماثيل). وخلاصة الكلام هي أنَّ استعدادات صحيّة وغير صحيّة كثيرة تجري على مشارف قدوم الطفل.

يتلخّص التفاوت بين المرأة في مرحلة الحمل وما بعد مرحلة الحمل في أنَّها كانت قبل الحمل امرأة وبعد الحمل أصبحت لا هي أُم ولا هي امرأة، أمَّا بعد الولادة فتكون أُمّاً. ومن الطبيعي أنَّ المرأة ليست لها أيّة حقوق على الطفل، ولكن للطفل عليها حقوق كثيرة، ومن جملتها: التربية. إذ أدركوا توّاً عظمة قول رسول الله ﷺ: «**اطلب العلم من المهد إلى اللحد**»[1] حيث أكّد ﷺ حتّى على تعليم الطفل. وسنرى أهمية هذا المطلب عند بحثنا لأسلوب التربية.

التناسل معناه تقديم كيان مشابه لهذا الإنسان إلى البيئة الاجتماعية. وما

---

(١) الوافي، ج١، ص١٢٦.

دام الجنين في بطن أُمّه فهو أُنس لها وحدها. ولكن ما إن ينفصل عنها حتّى تترتّب له بعض الحقوق عليها. وتشعر الأُمّ ابتداءً من ذلك الوقت أنَّ الطفل إذا كان يشكّل بالأمس عبئاً كمياً يثقل عليها الحركة والتنقّل، فقد أصبح يشكّل اليوم عائقاً كيفياً يسلبها حريّتها، وكثيراً ما يلفت أنظار النّاس في المجالس والمحافل ـ بما يثيره من صراخ وبكاء ـ إلى والدته، فيلقون عليها نظرات التساؤل والتوبيخ والاستفسار عن سبب إهمالها للطفل. وظاهرة الإزعاج التي يسببها بكاء الطفل لا تقتصر على المحافل والمجالس، وإنّما تسبب الأذى للوالدين في منتصف الليالي. وفي مثل هذه الحالة يجب على الأم أن تمارس دورها كأُمّ، وتحاول تهدئة الطفل وإنقاذ الأَب من صراخ الطفل الذي يسلبه راحة النوم.

كان في مدينة لندن جرّاح ماهر ينجز العمليات الجراحية بدون أضرار جانبية، ويتقاضى أجوراً ليست مجحفة كثيراً، ولكنه كان ممقوتاً جداً من قبل جميع الأشخاص الذين أجرى لهم عملية جراحية. وبعد مراجعة أطباء النفس اتّضح بأنَّه كان معتاداً على الاستهزاء بالمريض والإساءة إليه أثناء إنجاز العملية الجراحية، على الرغم من أنَّ المريض يكون نائماً تحت تأثير المخدّر، ولكنه يستشعر بشكل خفي آثار المحبة والكراهية. وجدير بالمرأة التي تحملت عناء الحمل تسعة أشهر أن تتحمّل بعض الإزعاجات التي يثيرها الطفل في الليالي. لأنَّ الأَب ـ وإن كان يغطّ في نوم عميق ـ فإنَّ مؤشّرات العاطفة تقفز بشدّة إلى الأمام مشيرة إلى مدى عمق عاطفة الأُم ومحبّتها. وعلى العكس من ذلك الأُمّ التي ترفع صوتها مع أول صرخة من الطفل: قُم أيّها الرجل لتهدئة الطفل، فهو ابنك أيضاً، فهذا الكلام الذي يصدر من الأُم يكون بمثابة مقدّمة لعاصفة من القسوة وانعدام الشفقة لدى الأَب والرضيع تجاه الأُم. كما ويجب على الأُم أيضاً أن تبتعد عن أسلوب المنّ كأن تقول للأَب بأنني أبذل قُصارى جهدي من أجل إسكات الطفل وأنت نائم لكي لا يعكّر عليك هناء نومك؛ لأنَّ الأَب يفهم وكأنَّ هذا الكلام ينطوي على امتنان في غير محلّه. ومهما

كان الأب يتصوّر بأنَّ تهدئة الطفل من واجب الأُم، إلاَّ أنَّ أداء هذا الواجب بصمت يضفي على الأم مزيداً من الوقار، ويجلب لها مزيداً من الاحترام.

أيّتها الأُمّ العزيزة الصائمة القائمة المجاهدة، أنتِ التي أثنى عليها رسول الله ﷺ بالقول: **«الجنّة تحت أقدام الأُمّهات»**[1] وصارت هذه الصفة مفخرة لك، هل استشعرت هذا الامتياز عندما كان الطفل في بطنك، أَم عندما تُضيفين إلى مجتمع المسلمين مسلماً آخر؟ أيّاً ما كان شعورك فإنَّ الخطوة الأولى التي يجب عليك اتّخاذها هي أن تكوني أنتِ على درجة من التربية والتقوى. فقد ثبت اليوم لو أنَّ قطعة لحم مصابة بفيروسات مسببة للمرض وضعت في إناء بلّوري سميك وأحكم إغلاقه، بحيث لا يجد الفيروس منفذاً للتسرّب منه، ثم وضعوا قربه إناءً مشابهاً من حيث السمك والإحكام ووضعوا فيه لحماً سالماً، لوحظ أنَّ اللحم السالم تسري إليه عدوى اللحم المصاب في الإناء المجاور. واعلمي أنَّ مجاورة شخص تقي أو فاسق لطفلك ـ حتّى وإن لم يكن لديه إدراك علمي وفقهي ـ لا يخلو من تأثيره. رحم الله المتوفيات وأطال أعمار الباقيات من النساء اللائي حرصن على طهارة أبنائهن، وما كنَّ يرضعنهم إلاَّ وهُنَّ على وضوء، وقد شاهدت آثار عملهن حتّى في هذا العالم.

الشرط الأول الذي يتحقق فيه مبدأ **«الجنَّة تحت أقدام الأُمّهات»** هو أن تخطو المرأة الخطوة الأولى في داخل ذاتها. وكما أنَّ مبدأ **«الجنَّة تحت ظلال السيوف»**[2] يستلزم أن يغرز الرجل السيف في داخل ذاته، ويقضي على أهوائه النفسية والشيطانية لكي يُشاهَدُ ظل السيف في الجنَّة منذ البداية، وإلاَّ فإنَّ ظل الشيء إذا لم يسقط أولاً في موضعٍ ما، فالأولى أنَّ الشيء نفسه لا يكون له مكان هناك.

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٨٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٣٣، ص١٤.

إنَّ الأُم تعيش مع طفل يريد منها كلّ شيء ولا يقدّم لها شيئاً، وعوضاً عن ذلك فهي تعيش مع الإسلام الذي يُقدّم لها كل شيء. وليس اعتباطاً أن يؤتى الأَب والأُمّ من الأجر ما لا يتسنّى لهما الحصول على مثله لقاء كلّ مرّة يقبّل أحدهما فيها الطفل أو يقبّله الطفل. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنَّ كلّ قبلة يقبّلها الأَب طفله أمام الأم، أو تقبّل الأُم طفلها أمام الأَب تزيل كل آثار التعب والعناء عنهما بشكل لا نظير له.

ولو أردنا التوسّع في الحديث عن مدى أهمية هذه القُبل التي ترسي ركائز الاتحاد والاتفاق والمحبّة بين الأبوين، لقلنا: إنَّ قبلة الطفل أكثر قدسية من قُبلة العريس للعروس، أو العروس للعريس في ليلة الزفاف. وسيمرّ علينا في المجلدات المتعلّقة بالتربية بأنَّ ضرب الطفل من قبل الأُمّ أو الأَب ليس إلاَّ انتقاماً للمرأة التي طفح كيل أمانيها وآمالها من الرجل الذي لديه القدرة على تحقيق تلك الآمال ولكنه لا يفعل. ويتمّ هذا الانتقام عادة بطريق مناقِض لطريق القُبل، وهو طريق الضرب والسبّ. وقد لوحظ من خلال الدراسات التي أُجريت في هذا المجال أنَّ البنات الصغيرات اللائي يضربن دميتهن تارة ويلاطفنها تارة أخرى، كُنَّ يتعرضن إلى القُبل تارة وإلى الضرب تارة أخرى. وفي الأُسر الخاضعة لسيادة الأُمّ يتّجه الأولاد نحو الجنون، بينما يجنحون في ظلّ الأُسر الخاضعة إلى سيطرة الأَب نحو الشذوذ الجنسي.

لا ينبغي أن تجعل الأُم من نفسها كخادم مطيع للطفل؛ لأنَّ معاملة الطفل على هذا النحو تسلبه حرّيته، وتوجّه له طعنة قاتلة تظهر آثارها من بعد دخوله إلى معترك الحياة الاجتماعية.

إذا بلغ الطفل سنّاً لا يحبّذ فيه الجلوس في حجر أُمّه، يجب أن لا يكون ذلك مدعاة لإثارة شكوكها بأنَّ طفلها قد أخذ يبتعد عنها، أو تستشعر في نفسها اليأس بأنَّ هذا الولد ـ الذي كانت تدّخره لأيام الشيخوخة ـ قد تنكّر لها. لأنَّ مثل هذه المشاعر والهواجس تفضي إلى ممارسة بعض الأعمال المغلوطة.

المرأة التي لا تذوق طعم السعادة مع زوجها تنظر عادة ـ إلاَّ إذا كانت على درجة عالية من الإيمان ـ إلى جنس الإناث نظرة تشاؤمية مشوبة بالحنق ولا تتمكن من إخفاء هذه المشاعر. وكثيراً ما تقول لأُمّها أو أبيها أو لصديقاتها المقرّبات: يا ليتني خُلقت ذكراً. وأغلبهنَّ إذا أنجبن أنثى يجعلنها على شكل ذكر، ويعلّمنها الأعمال والعادات الخاصة بالذكور.

هناك نساء يشتعل في قلوبهنَّ الحسد والغيرة من طريقين: الأول أنَّها ترى ابنتها تريد الاستحواذ على نصيب أكبر من محبّة الأُسرة. وأكثر ما توجد هذه الصفة لدى الفتاة الكبيرة في الأُسرة على اعتبار أنَّها تحظى عادة بمحبّة فائقة من قبل الأَب، ممَّا يجعل الأُم تنظر إليها كندٍّ منافس لها، وتنظر إليها وإلى الأَب بنظرة أخرى. فهي من جهة تريد الإيحاء للبنت بأنَّها هي الأُم وأنَّها أكثر منزلة منها، وتريد من جهة أخرى أن توحي للأَب بأنَّ هذه البنت التي يحبّها مدينة بوجودها إلى الأُم. ومن الواضح أنَّ للأَب في هذا المجال دور حاسم سيأتي الحديث عنه في موضعه.

سبق لي أن ذكرت مرّات عديدة بأنَّ المرأة السعيدة هي تلك المرأة التي تتقبّل خصال الزوج ولا ترفضها. أو لنقل ـ بعبارة أخرى ـ أنَّ السعيدة هي التي تتخذ أسلوب البذل كمنهج لها في الحياة بدلاً من أسلوب الأخذ. وهذه الخصلة مشهودة بشكل واضح في أسلوب التمكين الذي يأمر به الإسلام. فالتمكين هو عبارة عن ممارسة عملية تعوّد المرأة على العطاء والبذل لا على الأخذ. والحقيقة هي أنَّ هذه العادة تُعزى في جذورها إلى الكيفية التي كانت تعيشها الفتاة مع أبويها، وهي تنعكس حالياً على حياتها مع زوجها وعلى طريقة تعاملها مع أولادها. والمطلوب من المرأة هو أنَّها يجب أن تفكّر بسموّ شخصها، بدلاً من التفكير في متعتها الذاتية.

تعليم أصول مداراة الزوج

تُعتبر ليلة الزفاف بمثابة امتحان لكلّ من الفتى والفتاة. وإذا استلزم رسوب الفتى فيه تدخل أُم الزوجة، يجب أن لا يُفضي ذلك إلى قطع العلاقة بين الجانبين من خلال سحق الحقوق الرجولية للزوج. وذلك لأنَّ الكثير من الشبان الذي يضعون أقدامهم ـ بلا تجربة سابقة ـ في ظلام ليلة الزفاف قد يفشلون في إشباع الشهوة الجنسية للمرأة لمدّة شهرين على الأقل، حتّى وإن أثبتوا رجولتهم. ولكن بعد انقضاء مدّة الشهرين من المسلَّم به أنَّ الذين يدخلون إلى غرفة الزفاف ـ وهم يحملون تجربة سابقة ـ يحرزون تقدّماً بيّناً، ويؤدّون الوظيفة الزوجية أفضل من غيرهم. ولذلك يجب أن لا تقطع الزوجة وأقاربها الأمل بإمكانية تفوّق الفتى، وذلك لأنَّ الجرح النفسي الذي يصيب الفتى لا يمكن أن يندمل من خلال تلاقي الأجسام في عملية الجماع. أي أنَّ بلوغ اللذة لدى الفتى والفتاة يبقى إلى مدّة طويلة محكوماً بعجز الفتى. ولكن بما أنَّه لا تمضي فترة وجيزة حتّى يزداد الجماع بينهما إلى حدّ كبير، يجب على أُم الزوجة أن لا تُسارع إلى إبداء شفقتها على بنتها في هذا الجانب، ولا تساهم في تعكير صفو أجواء الحياة المشتركة بين الزوجين.

يحتلّ الحب مكانة مهمة في الحياة الزوجية. إلاَّ أنَّ الزوجة قد تتسبب أحياناً ـ انطلاقاً من عدم مراعاتها لما هو ضروري ـ في استجلاب الآلام إلى البيت، وهو ما يؤدّي تلقائياً إلى طرد الحب. أشير على سبيل المثال انَّ

مجموعة من الأشخاص دخلوا إلى دار صديقهم، فقدّم لهم علبة من «مَنِّ السماء» ووضعها أمامهم وذهب ليُحضر لهم الشاي. وما إن أراد أحدهم أن يفتح العلبة بمطرقة صغيرة حتّى بدأ ابن صاحب البيت ـ وكان يبلغ من العمر أربع سنوات ـ بالبكاء طالباً عدم فتح العُلبة قائلاً إنَّ أُمّه ستأتي وتضربهم، فضحكوا جميعاً، وما كان ينبغي لهم أن يضحكوا؛ ولما عرف المضيّف سبب ضحكهم شعر بالاستياء. وهذه الضحكات تؤدّي إلى تقليل مستوى الحبّ بين الزوجين ولو بشكل بسيط لأنَّ هذه الواقعة توحي بأنَّ زمام الأُمور في هذا البيت بيد الزوجة. وهنا يلاحظ كيف أنَّ الزوجة ساهمت بشكل غير مباشر ومن حيث لا تتوقع في إضعاف عوامل الاجتذاب والحب بينها وبين زوجها. ولهذا السبب يتعيّن على المرأة الراغبة في حياة زوجية سليمة أن تقرأ المباحث التربوية للأطفال. والأمر الأكثر ضرورة من ذلك هو تدريس الفصول المتعلّقة بأصول مداراة الزوج في المدارس. وأي وزير يُقدم على هذا العمل، يكون قد قدّم للإسلام خدمة جليلة. فمن المعروف أنَّ وزارة التربية والتعليم في اليابان كسبت مزيداً من الثناء في عالم اليوم بسبب نجاحها في أن تجعل من الرجل معبوداً للمرأة، وتزيد من مستوى الحب بين الرجل والمرأة من خلال تدريس أصول مداراة الزوج، حتّى جعلت مراكز الإحصاء تعلن بأنَّ طول عمر الرجل والمرأة في اليابان قد احتلّ المرتبة الأولى في العالم، وأحد أسباب ذلك تعود إلى الترابط الإنساني بين الرجل الياباني والمرأة اليابانية.

ونحن عندما نرجع إلى الإسلام نجده يتضمن تعاليماً أفضل وأسمى، إلاّ أن الأيدي الأثيمة للمترفين والمستكبرين، إضافة إلى الأفكار الاستعمارية الخبيثة تحول دون معرفة الإسلام. ومن هنا فإننا نعلن بأنَّ كلّ من يبادر إلى إدخال هذا الموضوع ضمن مناهج التدريس يقدّم للإسلام خدمة صادقة.

المرأة على استعداد للتضحية بجسمها وظاهرها من أجل الاستيلاء على قلب الرجل. أي أنَّ المرأة تتبع أسلوباً خارجياً من أجل إيجاد توجّه داخلي

لدى الرجل. وذلك يعني أنَّ المرأة تأخذ من داخلها وتضفي على خارجها شيئاً من الزينة لتتغلغل عن طريق الظاهر إلى داخل زوجها وتؤثر فيه. وهذا هو المكر أو الكيد الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة يوسف: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[1].

تبدو المرأة في الظاهر وكأنَّها محكومة وواقعة كمفعول لفعل الرجل، إلاً أنَّ بعضهنَّ يتخذن هذا كطريق للتحكم والسيادة على أكبر رجال العالم. إنَّ المرأة ليست على معرفة تامّة بالفضائل والسجايا الأخلاقية التي تتألّف منها شخصية الرجل إلاً على مستوى الفضل والكمال الذي يتمتع به زوجها، وتلقى على أساسه الاحترام من الآخرين. وقليل من الرجال يلقون الاحترام من المجتمع بسبب مكانة زوجاتهم. ولو كان الزوج محترماً لأجل زوجته لشعر على الفور بفاصل كبير بينه وبينها، إلاً أن يكون هو الذي كلّفها بالقيام بأعمال محددة ومعلومة وفيها لله رضاً. كأن يكلّف زوجته مثلاً أن تعطي ما زاد من ثيابه عن حاجته إلى مَن ليس لديه ثياب، وإذا كانت هناك فواكه فائضة يمكنها أن تعطيها لمن لا يحصلون على الفواكه. وفي هذا الحال إذا أثنى الرجل على زوجته فهو لا يشعر بفاصل عميق بينه وبينها يمتدّ في عمقه إلى جهنَّم. ومن هنا نفهم السبب الذي يستلزم استحصال الزوجة لموافقة زوجها عندما تريد أن تهب للآخرين شيئاً. بل وهنا يكمن السبب الذي يجعل شرّ صفات الرجال وهي: الغرور والجبن والبخل من أفضل صفات النساء.

حينما عرض الله عزَّ وجل موضوع خلق الإنسان على الملائكة، أشاروا إلى ما يسببه من فساد وإراقة للدماء. أي لو كانت في الإنسان صفات أخرى أسوأ من الفساد وسفك الدماء لأشاروا إليها. مثلما أنَّ الشيطان أُمر بالسجود لآدم، ولكنه استكبر ولم يسجد. وقد وردت الإشارة إلى استكباره (الاستكبار

(١) سورة يوسف، الآية ٢٨.

شيء آخر غير الكبر وعدم الكبرياء، والكبرياء هو استعظام النفس). ومنذ بداية الخَلق وإرسال الأنبياء، بقي الإنسان يتّصف بالفساد وإراقة الدماء، وبقي الشيطان يتّصف بصفة الاستكبار. وهذه الصفات كلّها غير محبّذة عند بني الإنسان رجالاً كانوا أَم نساءً؛ سواء صفة الفساد وإراقة الدماء التي تؤدّي إلى إبادة إنسان أو هتك كرامته على يد إنسان آخر، أو صفة الاستكبار التي تدخل الإنسان من الشيطان، وتخرجه من صفته الإنسانية. وذلك أنَّ الشيطان قادر على إغواء العباد إلاَّ المخلَصين منهم: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴿٨٣﴾﴾[1]. بمعنى أنَّ انتقال صفة الاستكبار من الشيطان إلى الإنسان يدفعه إلى الفساد وسفك الدماء. وبالنتيجة نلاحظ أنَّ صفة الاستكبار لدى الشيطان، وصفة التكبر أو الاستكبار لدى الإنسان هي أسوأ الصفات. ولكن إذا كانت هذه الصفة لدى المرأة فهي صفة حميدة؛ وذلك لأنَّ المرأة إذا كانت مغرورة أو بخيلة لا يمكنها الدخول في صداقة مع الرجل الأجنبي بسرعة، ولا تفرّط بسهولة بما في يدها أو يد زوجها.

---

(١) سورة ص، الآيتان ٨٢ ـ ٨٣.

أم الزوجة وأُم الزوج

المرأة التي تصبح أُمّاً لزوجة هي التي تحدّد مدى نجاح أو إخفاق الحياة الزوجية لابنتها من خلال علاقتها الخاصة بالزوج. فإذا لم تكن المرأة عوناً لابنتها ولا منافساً لها ولا منقادة لأمرها، فماذا يمكن أن تكون؟ يمكنها أن تغيّر حياة ابنتها وتحيل حياتها الزوجية إلى هواجس لا تُحمد عُقباها. إنَّ المرأة التي تكون أُمّاً لزوج وأُمّاً لزوجة إذا تنكرت للاثنين فمعنى ذلك أنَّها تدخل في منافسة مع ابنتها من جهة، وتفضل من جهة أخرى أن تؤدّي دور أُم الزوج الناجحة أكثر من أدائها لدور أُم الزوجة الناجحة؛ وذلك لأنَّ التنكّر للرجل الذي تزوّج ابنتها ـ وهو أمر لا ينسجم مع طبيعتها الأنثوية ـ أسهل عليها من التنكر للفتاة التي سرقت ابنها. فهذه المرأة ترى لزوم تحريض ابنها على استصغار شأن زوجته، وهي تودّ أن تجعل هذه المهمة كجزء من منهج حياتها، ولا تتورّع عن استخدام أيّة وسيلة ممكنة للتنكيل بكنّتها. وإذا كانت هذه المرأة مجرّدة من الإيمان؛ فإنَّ كلّ عمل تؤدّيه الكنّة وكلّ أثر يتعلّق بها وحتّى اسمها وثيابها تثير حفيظة هذه الحماة وتدفعها نحو العمل على تحقيق غايتها، وهي: الإساءة إلى الكنّة والانتقاص منها. وهي حتّى إذا شعرت بعجز الكنّة فإنّها لا تتورّع عن النزول بها إلى الحضيض، واعتبارها مجرّد حيوان حقير يعيش بين أحضان ابنها.

أَما بالنسبة إلى الزوج فهو إمَّا أن يتخذ موقفاً يؤيد فيه هذه الطباع

الحيوانية لدى الأم، وإمَّا أن يتخذ موقفاً مضاداً لها ويحرمها من حقوقها الإلّهية والإنسانية الملقاة على عاتقه. وقد لوحظ أنَّ المرأة التي تحمل هذه الصفة تعمد إلى ضمّ ابنها إلى حجرها في اللَّيالي لكي لا يلتصق بزوجته.

يختلف دور أُم الزوجة أو أُم الزوج التي تعيش بعيداً عن ابنتها أو ابنها، عن تلك التي تعيش في بيت واحد مع ابنها أو مع ابنتها المتزوّجة، إضافة إلى ذلك فإنَّ الدور الذي تؤدّيه كلّ منهما عند ذهاب الكَنّة إلى بيت أُمّها وحدها أو برفقة زوجها، أو عندما يذهب الابن وحده أو برفقة زوجته إلى بيت أُمّه.

معظم النساء اللواتي يعشن مع أصهارهن لا يبدين أيّة رغبة في إثبات وجودهنَّ أو إظهار تفوقهن أو ميلهن إلى المواقف المتشددة والعنيفة، ويكتفين بالعثور على ملاذ إلى جانب بناتهن مع عدم التواني عن تقديم العون والمساعدة لهن، ومجاملة الصهر رغبة في الحفاظ على مكانتهن. والحماة التي تعيش في بيت صهرها إلى الأبد ولا تتصف بخصلة الإيثار، فإنَّ صفة حب الذات تطغى عليها ـ إذا لم تحاول معالجتها ـ وتنعكس عليها بشدّة عند ظهور بوادر عجزها، وتجد نفسها حينذاك في أسوأ الظروف والأحوال. وبناء على ما مرَّ ذكره يتعيّن على الحماة التي تعيش مع صهرها أن تبادر إلى تطهير نفسها من الأعمال والأقوال القبيحة، وأن توجّه كلّ اهتمامها إلى كلّ عمل يعود على ابنتها وصهرها بالسعادة. فالحماة إذا كانت تعيش في بيت صهرها ـ ولكنه لا يمثل واحداً بالمائة ممَّا يمثله ابنها بالنسبة لها ـ فهي ترضى منه أن يعتبرها عند الشيخوخة بنسبة واحد من الألف كأُمّه.

الحماة التي تعيش بعيداً عن صهرها وابنتها ـ سواء في بيت مستقل عنهما في نفس المدينة أو في مدينة أخرى ـ تحظى باهتمام أكبر ممَّا تحظى به الحماة التي تعيش في دار صهرها وتشكّل عبئاً عليه. ويتناسب هذا الاهتمام عادة مع ما هي جديرة به، ويختلف تبعاً للفكرة التي تحملها عن مدى سعادة أو تعاسة ابنتها. وهي تقيس مدى تلك السعادة ـ بشكل لا إرادي ـ من خلال

المقارنة بين حياتها هي وحياة ابنتها، فإن رأت ابنتها ترفل بالسعادة؛ تضطرم حينذاك في روحها نزعة التنافس، وتستفحل لديها الرغبة في توجيه الأوامر والنواهي إلى ابنتها، إلى أن ترغمها بالنتيجة على تقليدها في كل شيء، فتأخذ بالتحدث على غرار النمط الذي تتحدّث فيه والدتها، وتستقبل ضيوفها وتذهب إلى زيارة الآخرين على نفس طريقة والدتها، بل وتقلّد والدتها حتى في أسلوب الطبخ. والأهم من كل ذلك أنَّها تقلّدها حتّى في أسلوب التديّن، وفي طريقة تربية الأطفال. وهي بطبيعة الحال طريقة رتيبة ومملَّة، وفي سائر تصرفاتها العقلانية وغير العقلانية، إلى أن تصبح نسخة مطابقة لها أو ربّما مطابقة لجدّتها. وهذا يدلّ على ضمور روح الإبداع والابتكار. وفي مثل هذه الحالة لا تجد الفتاة أمامها بدّاً من العمل على كسب رضا الأُم والزوج كلٌّ على حدة. فهي مضطرّة إلى التظاهر بالطفولة أمام أُمّها من أجل تقبّل إشراف وتوجيه الأُم، ومضطرّة إلى التظاهر أمام الزوج إلى أنَّها جاءت وفقاً للمقاييس التي تَروقُ لأُمّها، وهي الأُم التي ربّتها على هذا النحو الذي جعلها خليقة بالحصول على زوج مثله.

وعلى الرغم من قوّة تأثير الأُم في ابنتها وصياغة شخصيتها وفقاً لإرادتها، فإنَّ الرجل إذا تمسّك بالتقوى سيلاحظ تحطم صنم الأُم عاجلاً، لأنَّ الفتاة لا تحتفظ ممّا تعلمته من أُمّها إلاّ بالعادات الحسنة، أمّا العادات والممارسات السيئة التي فرضتها عليها أُمّها من أجل صياغة شخصية ابنتها على غرار شخصيّتها، فتتخلّى عنها، وذلك لأنَّ التقوى تمهّد السبيل أمام ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ـ فإن كانت في الخفاء تُسمّى تقية ـ وتقع علّة لمعلولات أشار إليها القرآن الكريم على النحو التالي:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[1]. ﴿وَمَن يَتَّقِ

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٢.

اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[1] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾[2]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[3] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[4] ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5] ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[6] ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[7] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[8] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[9] ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[10] ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[11] ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[12] ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[13] ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[14] وغيرها من الآيات الأخرى.

إنَّ حلَّ الكثير من المشاكل الأُسريّة رهين بإرادة أُمّ الزوجة، كما أنَّ إيجاد الكثير من المشاكل والفتن رهين بإرادتها أيضاً.

من الطبيعي أنَّ المرأة حينما تخرج من دار أبيها وأُمّها، وتدخل إلى دار زوجها، يكون أمرها بيد زوجها، وإن كان من الواجب عليها احترام أُمّها وأبيها. وهنا يكمن الفرق بين المرأة البليدة والمرأة الذكية. فالمرأة الذكية - حتّى وإن حصل خلاف بين والديها وزوجها فهي - قادرة على حلّ ذلك الاختلاف بطريقة حكيمة تحرز بها رضا الله وقربه، وتحافظ على احترام والديها، وتلتزم بقول الرسول ﷺ: «**لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت**

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٤.
(٢) سورة الطلاق، الآية ٥.
(٣) سورة الأنفال، الآية ٢٩.
(٤) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.
(٥) سورة يوسف، الآية ٩٠.
(٦) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(٧) سورة البقرة، الآية ٢.
(٨) سورة البقرة، الآية ١٩٤.
(٩) سورة آل عمران، الآية ٧٦.
(١٠) سورة المائدة، الآية ٢٧.
(١١) سورة الأعراف، الآية ١٢٨.
(١٢) سورة الزخرف، الآية ٣٥.
(١٣) سورة الزخرف، الآية ٦٧.
(١٤) سورة الجاثية، الآية ١٩.

المرأة أن تسجد لزوجها»[1]. أي لو كانت المرأة اليابانية مجبورة على اتّخاذ زوجها كمعبود لها، فإنَّ المرأة المسلمة تحترم زوجها إلى هذا الحدّ.

للمرأة مشاغل كثيرة في بيتها، وحتّى لو كان لديها طفلان فقط لكان لديها من الأعمال ما يشغلها عن القيام بأيّ عمل آخر. ولكن مع ذلك قد توجد امرأة تنجز أعمالها ـ على كثرتها ـ بسرعة وتلاحظ أنّها يوجد لديها وقت فراغ، ومن المؤسف أنَّ الكثير من النساء يهدرن هذا الوقت الثمين من أعمارهن مجاناً. ومع أنَّ إحداهن لا تفرّط بالقرش الواحد، إلاَّ أنَّها لا تلتفت إلى كيفية التفريط بهذا العمر الثمين.

العادة السيّئة التي تتبعها أكثر النساء في قضاء أوقات الفراغ هي الجلوس مع النساء الأخريات عند رأس الزقاق أو إلى جانب الشارع أو في الحارات واجترار أحاديث يدور معظمها حول موضوعات فارغة من قبيل الزواج والذريَّة. ويا حبّذا لو أنَّ النسوة يقضين أوقات فراغهنَّ بالأعمال اليدوية والخياطة بدلاً من الانشغال بمثل هذه الأحاديث التي تؤدّي إلى قضاء العمر بالباطل والغيبة.

سبق أن ذكرنا حديثاً شريفاً يشير إلى أنَّ من سعادة المرء أن تكون له امرأة تحفظ ماله في غيابه. ويتضح من هذا أنَّ رفع أو خفض الميزانية العائلية بيد المرأة. وأنا شخصياً أعرف أُسرتين؛ أولاهما لا تترك حتّى البذور المرّة للفواكه تذهب هدراً، وعائلة أخرى تفسد فيها الكثير من الفواكه وترمى في القمامة قبل أن تُؤكل وقبل أن تُعطى للفقراء. ومن الطبيعي أنَّ ربّة البيت في هذه الأسرة ليست أمينة حتّى وإن أمرها زوجها أن تترك تلك الفواكه تفسد ولا تعطيها للفقراء؛ لأنَّ هذا العمل تبذير، والتبذير حرام. وهذه واحدة من العلامات الفارقة بين المرأة المدبّرة والمرأة الحمقاء، بل وبين الرجل المدبّر والرجل الأبله، وهي أنَّ الأبله هو ذلك اللئيم الذي لا يأكل هو ولا يعطي

---

(١) الكافي، ج٥، ص٥٠٧.

لغيره. توجد في اللغة العربية ثلاث كلمات في وصف الممسك وهي: البخيل والخسيس واللئيم. فالبخيل هو الذي لا يعطي لغيره، والخسيس الذي لا ينفق على نفسه ولا على غيره، واللئيم هو الذي لا ينفق على نفسه ولا على غيره، وإذا رأى أحداً ينفق على غيره يمنعه. والرجل والمرأة المذكوران في المثال أعلاه يقعان بين درجتي الخسّة واللؤم.

لعلَّ ربَّة البيت لا تدرك مدى التأثير الإيجابي الذي يتركه الإنفاق الموزون في البيت على ميزانية الرجل وطبيعة إنفاقه. فالمرأة التي تتجنّب التبذير في البيت يعوّض زوجها عن ذلك ويجلب معه شيئاً إلى البيت، وإذا أسرف في الإنفاق خارج البيت يتعرّض لتأنيب الضمير. ويتذكّر أنَّ وراءه في البيت امرأة يمكن الاعتماد عليها، وهذا ممَّا يبعث في نفسه البهجة والراحة؛ لأنَّه يعلم أنَّ جميع الجهود التي يبذلها تقدّرها له المرأة. وعلى العكس منه الزوج الذي تقابل كل جهوده بالاستهانة من قبل الزوجة، فهو يرى أنَّ كلّ كدّه وكدحه يذهب هباءً، فلا هم ينتفعون بما ينفقون ولا ينتفع به غيرهم، وهذا هو عمل الحمقى.

روي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**المرأة راعية على مال زوجها ومسؤولة عنه**»[1]. وجاء في تعريف خير النساء: «**خير نسائكم الطيّبة الريح، الطيّبة الطبيخ، التي إذا أنفقت أنفقت بمعروف، وإن أمسكت أمسكت بمعروف، فتلك عامل من عمّال الله، وعامل الله لا يخيب ولا يندم**»[2]. وقال رسول الله ﷺ في حقّ الزوج على المرأة: «**تطيعه ولا تعصيه ولا تتصدَّق من بيته بشيء إلاَّ بإذنه**»[3] وقال أيضاً: «**أعظم النساء بركة أيسرهنّ مؤونة**»[4].

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٥٥٠ (طبعة المكتبة الإسلامية).

(٢) وسائل الشيعة، ج١٤، ص٥، (طبعة المكتبة الإسلامية).

(٣) بحار الأنوار، ج١٠٣، ص٢٤٨.

(٤) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٥٣٢ (طبعة المكتبة الإسلامية).

وما دمنا نتحدّث عن الإنفاق فلا بأس بأن نعرّج على الحديث عن الضيافة.

ظاهرة الضيافة تعرض لجميع الناس. وقد وردت أحاديث كثيرة في الحثّ على إكرام الضيف، حتّى أنَّ أبا الأنبياء إبراهيم كان يحبّ أن يجلس على مائدته ضيف على الدوام. وورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**إنَّ الضيف إذا جاء فنزل على القوم جاء برزقه معه من السماء، فإذا أكل غفر الله لهم بنزوله عليهم**»[1]. وروي عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «**السخي يأكل من طعام الناس ليأكلوا من طعامه، والبخيل لا يأكل من طعام الناس لئلاً يأكلوا من طعامه**»[2]. وجاء أيضاً: «**إنَّ ملاقاة الإخوان تزيد المحبّة**»[3] وجاء عن الإمام الجواد عليه السلام أنَّه قال: «**ملاقاة الإخوان نشرة وتلقيح العقل وإن كان نزراً قليلاً**»[4].

عندما يأتي الضيف يجلب معه البركة ويطرد الشرّ. لأنَّ الشخص عندما يأتيه ضيف يضطرّ إلى تحضير طعام أفضل وفاكهة أجود (أي الحصول على تغذية أفضل) وتنظيف البيت والغرف والأدوات والوسائل (الاعتناء بجانب النظافة). وهذه الأمور تعتبر بذاتها بركة كمية وكيفية. فالضيافة تعتبر بمثابة لبنة أساسية في البناء الاجتماعي، وحلقة وصل تربط بين الناس. ومن المؤسف انَّ هذه الظاهرة اتّخذت طابعاً معاكساً بالنسبة للمتكاسلين، خاصة بعد أن طغى عليها جانب المباهاة والصفة الكمالية، وبسبب ما يترتّب عليها من تكاليف باهظة. ومن الطبيعي أنَّ الأثاث الفاخر والتحف التي تعرض أمام

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٦، ص٥٥٧ (طبعة المكتبة الإسلامية).

(٢) وسائل الشيعة، ج٦، ص٥٢٠.

(٣) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٣٥٣.

(٤) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٣٥٣.

أنظار الضيوف تكون لها انعكاسات سلبية عليهم. فإذا لم يكن الضيف قادراً على مجاراة المضيف في ما يعرضه أمام عينيه، تتكون عقدة في نفسه، وإن كان قادراً على مجاراته والتفوّق عليه، فإنَّ مضيّف اليوم هو ضيف الغد وتنطبق عليه الحالة نفسها وتنعكس على شكل عقدة في نفسه أيضاً. وهذه المظاهر الشكلية أدّت إلى تقليص ظاهرة الضيافة.

هناك جانب آخر يجب أخذه بنظر الاعتبار عند الضيافة وهو إذا كان هناك متّسع من الوقت فمن الممكن إعداد مائدة متنوعة من الطعام، ولكن إذا جاء الضيف فجأة بدون علم مسبق يمكن الاكتفاء بتقديم ما هو موجود في البيت. ولو روعي هذان الجانبان لخفّت مؤونة الضيافة.

أشير مرّة أخرى إلى وجوب احترام المرأة للرجل وذلك لأنَّ الاحترام أو عدمه يترك تأثيراً إيجابياً وسلبياً في توقير شخصية الرجل أو تحطيمها. فإذا كنت تعلمين أنَّ زوجك لا يحبّ مخاطبته بصيغة المفرد، خاطبيه بصيغة الجمع. وتجنّبي كثرة الشكوى والتذمّر أمام زوجك لأنَّ الرجل ـ وإن كان صبره كثيراً ـ إلاّ أنّه سريع التأثّر. وبما أنّك تعلمين أيّتها المرأة بأنَّ ما فات لا يمكن إعادته، وأنَّ الكثير من الأماني لا يمكن تحقيقها، فلماذا تؤذين زوجك بالشكوى، وتضيفين مشكلة أخرى إلى مشاكله، وتؤدّين إلى تعقيد حياته وزيادة معاناته.

دين الرجل وتنوّعه

المرأة مجبولة على الزينة. ومن أكثر الصفات المقدّسة فيها هي الرغبة في الاستئثار بقلب الرجل. الكثير من النساء يذهبن إلى بيت الزوجية بطابع ديني، مع تأكيدات متكررة من قبل الأُسرة إلى أسرة الزوج بوجوب التمسّك بالقِيم الدينية. ولكن قد تظهر لاحقاً عدّة حالات من جملتها: أن تكون المرأة متعبّدة وتستند إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ وتلخّص معاني الطهر والطهارة في الوسواس والماء والغُسل. والغريب في الأمر هو أنَّ أمثال تلكنَّ النسوة يجعلن الطهارة باسم الدين وبشكل مغلوط بدلاً من النظافة. ولهذا السبب تجد كلّ شيء في البيت قذراً ابتداءً بالأثاث وانتهاءً بالستائر. ومثل هذه التصرّفات لا تعتبر في الحقيقة إلاّ بدعة. وإذا كان الرجل متديّناً حقّاً فإنَّه يجد نفسه مكتوف اليدين ويحترق بنار الأذى، ويدعو الله بالفرج والخلاص. أمَّا المرأة فتبقى سادرة في غيّها إلى أن يكبر الأطفال يوماً ما ويقفون إلى جانب الأب أو إلى جانب الأُم.

وإذا كان الرجل يعيش حالاً وسطاً بين التديّن واللاتديّن، مع ميل إلى حالة اللاتديّن، تستحوذ حالة الاختلاف والتنازع على حياة الأُسرة، وكثيراً ما تؤدّي إلى الافتراق. ولكن إذا كان الرجل مصاباً بالوسواس أيضاً، ثم تأثّرت به زوجته وأخذت تعمل على شاكلته، يبدو لكلّ مَن يدخل مثل هذه الدار وكأنَّه داخل إلى دار أُسرة صابئية؛ على اعتبار أن صبَّ الماء يعتبر أصلاً

أساسياً في دينهم، ويهتمون بالماء في كلّ ممارساتهم الدينية. وحتّى عند إرادة معرفة الأهلية للزواج يغطس الشخص في الماء ليروا كم من الوقت يمكنه المكوث تحت الماء.

مثل هذا الرجل والمرأة المصابين بالوسواس لا يجدان عملاً أكثر أهمية لديهما من التطهير بالماء. ونظراً لكثرة استخدامهما للماء لا يلبثان أن يصابا بأمراض جلدية وغيرها. وتجدر الإشارة إلى أنَّ مثل هذه الأُسرة تستفيد من أقلّ ما يمكن من اللوازم، وغالباً ما تضحي بالنظافة في سبيل الوسواس.

المصابون بالوسواس على نوعين: الأول يكفي أن يقع ظلّ الشيء النجس، أو الشيء الذي يُحتمل أن يكون قد تنجس على مرّ الزمان، على يده حتّى يسارع إلى دخول الحمام ليقضي فيه ساعات طويلة من أجل إزالة ظلّ النجاسة التي وقعت على يده. والنوع الثاني هو الذي تلامس يده شيئاً نجساً أو محتمل النجاسة، فيبادر إلى الغسل والتطهير. وهذان النوعان يواجهان كلاهما صعوبات بالغة في ما يخصّ نجاسة حياتهما الجنسية. تجدر الإشارة إلى أنَّ النساء أقلّ من الرجال إصابة بالنوع الأول من الوسواس. ولكن مثلما يوجد تنوّع بين النساء أكثر من الرجال، كذلك تتنوّع الذرائع التي يتخذنها في إثبات حقّهنّ في معرفة الوسواس. وقد قدّموا لي ذات يوم امرأة لا يتجرّأ زوجها على لمس الجدران المتنجّسة بفرشاة الألوان. ويعود سبب نجاسة الجدران وحتّى السقف في رأيها إلى أنَّ الصبّاغ ـ مع أنّه كان رجلاً متديّناً ـ صبغ تلك الجدران بذات الفرشاة التي صبغ بها جدران المرافق الصحية ومن المؤكّد أنَّ تلك الفرشاة وصلت إلى أرضيّتها.

السبب الذي يجعل الممارسة الجنسية ذات تأثير سلبي على الشخص المصاب بالوسواس يشبه إلى حدّ بعيد حالة الشخص المصاب بالبواسير. فبما أنَّ الشخص المصاب بالبواسير يعاني من آلام شديدة في المخرج عند التخلّي، لذلك فهو مضطرّ إلى تقليل عدد مرّاتٍ التخلّي. وهذا التقليل من

التخلّي يؤدّي إلى حصول إمساك في غائطه بسبب امتصاص السوائل في الأمعاء الغليظة، ممّا يؤدّي إلى تصلّب الغائط، وهو ما يقود بالنتيجة إلى حصول آلام شديدة عند التخلّي قد يرافقها نزف دموي. وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى الأشخاص المصابين بالوسواس، فهم قد يضطرّون إلى تقليل عدد مرّات الجماع لأسباب مختلفة من جملتها عدم توفّر الحمام لديهم أو بسبب إصابتهم بمرض يمنعهم من استخدام الماء، أو لمللهم من كثرة استخدام الماء، ومن الطبيعي أن تقليل عدد مرّات الجماع يؤدّي إلى إيجاد ضغط نفسي شديد لدى المرأة بسبب عدم إشباع غريزتها الجنسية، وهو ما يؤدّي تلقائياً إلى توتّر علاقاتها ببقية أعضاء الأُسرة؛ فلا يعود المطبخ يعمل كما في السابق، ولا تعود الثياب تُغسل وتُكوى، ولا الأولاد يحصلون على درجات عالية في دروسهم. ومن هنا نفهم أنَّ وجود الوسواس في أي بيت من البيوت يؤدّي إلى حصول خلل واضطراب في المعادلات والأساليب التي تسير عليها الأُسرة.

ويتّضح لنا في ضوء ما مرَّ ذكره أنَّ البيت الذي يدخله الوسواس إمّا أن تحتل الطهارة فيه مكان النظافة، وهي بطبيعة الحال طهارة زائفة إذ تجد كلّ شيء فيه قذراً وفي غير موضعه المناسب، وامّا أن تضطرب فيه المعايير ومعادلات العلاقات العائلية نتيجة لاختلال العلاقات الجنسية. وهو كثيراً ما يؤدّي إلى حصول النزاعات والخلافات.

ومن المثير للدهشة أن استلهام الآية الشريفة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1]. يبيح لنا القول بأنَّ الطهارة الزائفة في بيت الشخص المصاب بالوسواس ترافقها على الدوام نظافة كاذبة، بل والأسوأ من ذلك أنَّ الوسواس يفضي إلى إسقاط الطهارة والنظافة كلتيهما؛ لأنَّ طهارة الظاهر في

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

مثل هذه الحالات تنتهي إلى بث الاضطراب في الباطن وهو ما يؤدّي إلى خسران الدنيا والآخرة، بدلاً من إيجاد نقاء الباطن الذي يستجلب الرحمة الإلهية.

على المرأة المصابة بالوسواس إذا قرأت مقالتي هذه أن تعود إلى رشدها وتؤوب إلى الوضع الذي يجب أن تكون عليه؛ أي أن لا تكون أكثر تمسّكاً بالمسيحية من البابا، وإذا كان محمَّد ﷺ وعلي عليه السلام يسكبان الماء مرتين يجب أن لا تسكب هي أكثر من ذلك، وإذا قيل: إنَّ الذهاب إلى الحج يستلزم السفر إلى مكّة يجب أن لا تيمم هي وجهها صوب سيبيريا. وإذا كان زوجها مصاباً بالوسواس يمكنها أن تطلع أحد ذويها على الموضوع بشكل لا يثير حفيظة زوجها، لكي يبيّن له حكم التطهير في الإسلام أثناء لقائه به في مجلس أو في شارع.

هناك فارق جوهري واحد بين الرجل المصاب بالوسواس والمرأة المصابة به، وهو أنَّ الأطفال في الأُسرة المصاب كلا أبويها بالوسواس، يعانون من الأُم أكثر من معاناتهم من الأَب؛ وسبب ذلك يعود إلى أنَّ الأَب قليلاً ما يُعنى بشأن غسل وتنظيف وتطهير الأطفال، وأكثر ما تقع هذه المهمة على عاتق الأُم. ومن هنا يجب على الأُم أن تعلم بأنَّ سحب الأَطفال في ليالي الشتاء الباردة، وفي أيام الصيف الحارة، وإيذائهم تحت طائلة التطهير والنظافة وتسمية هذا العمل باسم الدين، يجعل هؤلاء الأطفال يشمئزّون من اسم الدين، وبمجرّد تحرّرهم من قيود الأُسرة لا يراعون الإرشادات الدينية الواردة في هذا المجال، بل وكثيراً ما يدعوهم ذلك إلى الارتداد عن الدين إلاَّ إذا ثبت لهم أنَّ تلك الممارسات المسماة بالوسواس الذي كان يسيطر على حياة الأُسرة باسم الدين، لم يكن من الدين في شيء.

أعرف رجلاً لديه اهتمام فائق بالتمسّك بأوامر الإسلام ونواهيه، إلاَّ أنَّه يختلق على الدوام أعذاراً واهية لكي يتيمم بدلاً من الوضوء. ولو رجعنا إلى

ماضي هذا الشخص نجد أنَّ أخته الكبيرة التي تربّى في حجرها، وكانت له بمثابة الأُم كانت مصابة بالوسواس، وكانت ترغم الأطفال على تطهير أيديهم حتّى المرافق، وغمس رؤوسهم ووجوههم في الماء بعد تناول الطعام وبعد إمساك القلم أو الدّراجة الهوائية وبعد الكثير من الأعمال الأخرى. ولا يسعنا هنا إلاً أن نتوجّه بالثناء على الإسلام الذي أمرنا بالقول عند استعمال الماء: الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجساً. ومن الواضح أنَّ تكرار المعنى بالقول: ولم يجعله نجساً، موجّه إلى المصابين بالوسواس.

ويبدو أنَّ عمل هذا الشخص الذي يتيمم في بعض الحالات بدلاً من الوضوء يُعزى إلى أسلوب القهر الذي كانت تمارسه أخته وترغمه على الإكثار من الغسل والتطهّر والتنظيف. ويبدو أنَّ أطفال هذه الأُسر يشبّون على النفور من الطهارة ومن الدّين، وليس هذا فحسب؛ بل حتّى الأُمّ والأَب أنفسهما قد يكبرون على هذه الشاكلة.

أعرف فتاة كانت مصابة بالوسواس، وبعد الزواج نقلت هذا الداء إلى دار زوجها، وأثارت هناك ضجّة عكّرت حتّى صفو شهر العسل. إلاً أنَّ الزوج بادر إلى عمل مضاد وهو أنَّه أخذ يبلل يده ويمسحها بكل موضع تقسم المرأة على نجاسته، ثم يمسح يده بالأواني الموجودة على المائدة ويقول لها: أصبحت هذه الأواني كلّها نجسة فإن شئت كلي أو لا تأكلي. فاضطرّت المرأة إلى عزل طعامها وإخفائه عن بصر زوجها ولا تأكل على المائدة إلاً الخبز وحده. ولمَّا علم زوجها بذلك أخذ ينجّس ـ حسب تعبيرها ـ حتّى القدور. ولم تمض فترة إلاً وأصبحت المرأة تستخدم الأواني والفرش النجسة حقّاً، وارتكبت خطأً آخر على خطأ زوجها.

وأعرف امرأة أخرى كانت مصابة بالوسواس، وكان يتسبّب الكثير من الحرج للناس المحيطين بها إلى درجة أنَّ كبير علماء المدينة كتب إليها بخطّ يده.. أيّتها السيّدة اعتبري كلّ شيء طاهر بالنسبة لك حتّى الدم والبول.

وعلى كل الأحوال يجب على المرأة المصابة بالوسواس التي ليس لديها همّ سوى الماء والطهارة، ولا تحظى أعمالها بقبول من الإسلام، ولا ممّا أقرّه الإسلام كالطب والصحّة، أن تفيق ولا تضيف إلى أحكام الإسلام شيئاً من عندها، وإنّما يجب التمسّك بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، ويجب عليها اعتبار الشيء طاهراً ما لم يكن بمقدورها القسم على نجاسته، وإذا أرادت تطهير شيء يجب الاكتفاء بما أمر به الإسلام في ما يخص الطهارة. وإلاّ فإنَّ عملها هذا يحرمها الكثير من حلاوة الدين والدنيا.

سبقت الإشارة إلى أنَّ مداعبة الأُمّ للأطفال، تبعث السرور في نفس الأَب، وتعتبر تلك الأصوات من أطيب الأصوات إلى مسامعه، وهكذا الحال أيضاً في ما يخصّ أمر تنظيف الأطفال، فإذا رافقته أشياء إيجابية أخرى فهو يبعث الارتياح في نفس الأَب، وكثيراً ما يشعر بسعادة لا تضاهيها سعادة حينما يرى الأُم تعدّ الأطفال للذهاب إلى المدرسة، وتهيّىء لهم حقائبهم وكتبهم وهم في غاية النظافة والترتيب، ويتوجّه إلى ربّه بالشكر والثناء على اعتبار أنَّ النظافة مقدمة لاكتساب العلم. في حين أنَّ الأَب لا يهتم كثيراً لو رأى زوجته تغسل وجه ويدي الطفل عندما يريد الخروج إلى اللعب.

يمكن للمرأة أن تقوم بعمل جميل آخر تستجلب به نظر زوجها وهو: الاعتناء بنظافة الأطفال عندما يريدون الذهاب إلى دار جدتهم أو جدّهم لأبيهم أو إلى أي قريب من أقارب أبيهم، كعنايتها بنظافتهم عند ذهابهم إلى المدرسة. فهذا العمل يسرّ الزوج أيضاً، ويرى فيه نوعاً من الاحترام لأقاربه. وقد أكّد الإسلام كثيراً على النظافة واستعمال العطر في الأفراح وفي المآتم، وحثَّ على رش ماء الورد على الحاضرين وهذه الأعمال يمكن اعتبارها كلّها دليلاً على الاحترام للآخرين لكي لا تصل الروائح الكريهة إلى أنوفهم.

على المرأة أن تسارع إلى سكب المياه القذرة المتبقية في الحمام أو الناتجة عن غسل الثياب والأواني في البالوعة للإسراع في القضاء على عامل

من عوامل تكاثر الذباب والبعوض. وعليها أن تعلم بأنَّ رؤية الأَب لمشهد الماء القذر قبل الجلوس إلى مائدة الطعام يقلّل من شهيته، ليس انطلاقاً من تأثير الألوان في الشهية، ولكن لأنَّه يرى في هذا الوضع نوعاً من التمرّد المنافي لسلامته وسلامة أطفاله.

إشارة إلى الآيات والأخبار

ليس من العدل أن يخطر على بالي أمر فلا أعرضه على أسماعكم، ولو لم يكن هذا الأمر من القرآن لما أقحمته ضمن البرنامج المخصص لهذا الموضوع. فالقرآن عزيز علينا وهو حبيب قلوبنا لأنَّه كلام الله. لقد أرغم الكومبيوتر العلماء ـ وحتى الذين لا يؤمنون منهم بشيء خارج إطار عالم المحسوسات ـ على الاعتراف بأنَّ الإنسان غير قادر على الإتيان بشيء مشابه للقرآن، بل حتى المعادلات المستخدمة في الأهرام الثلاثة وفي الكثير من العجائب الأخرى تفوق المقدرة الفكرية للإنسان في عصرها، ولا يتسنّى له الإتيان بمثلها، ولا بدّ أنَّ مخلوقات جاءت من السمٰوات إلى الأرض وساعدت على إيجادها، كذلك القرآن جيء به من قبل سكنة الكواكب الأخرى.

يصرّح القرآن الكريم بأنَّ اغتياب الأَخ هو بمثابة أكل لحمه ميتاً وذلك بقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[1]. وكلمة «وبتومائين» في اللغة اليونانية تعطي نفس المدلول، بمعنى الميتة التي تحصل في البدن على أثر فساد وتحلل المواد اللحمية فيه. وقد وردت أنَّ الأوساخ وبقايا ما يُغسل به هي طعام أهل جهنّم. والبيت أيضاً إذا كان فيه شيء من هذه الأوساخ والقاذورات فهو يشتمل على بعض معالم جهنّم، وأهله كأهل النار لا يشتهون الطعام، ولا

(١) سورة الحجرات، الآية ١٢.

يحصلون على شيء من الطيبات وما تشتهيه الأَنفس، وعلى العكس منهم أصحاب الجنّة الذين يتنعّمون بما تشتهيه الأنفس: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[1].

وأنت أيّتها المرأة يجب أن تعلمي بأنَّ العمل بالقرآن يجعل الحياة هانئة عليك وعلى زوجك. ولو أنّك جرّبتِ ذلك فإنَّك ستعيدين قراءته مرّة أخرى وتمتثلين لكلّ ما أمر به الإسلام. وإذا كان كلّ الناس وحتّى أقرب المقرَّبين إليك يطمعون في انتزاع جانب من جوانب الحياة من يدك، فإنَّ الدين يريد أن يضع بين يديكِ الكثير من الأُمور.

أودّ التحدّث هنا عن موضوع يتعلّق بمستقبل ذرّيّتكِ، ولا ريب في أنَّ إهمال هذا الموضوع يحرمكِ من سعادة أبدية، ولا تنالين على أثر ذلك أي احترام وتقدير من بني جنسكِ، وسيكون قبولك بذلك بمثابة إرث خالد تقدّمينه لذرّيتك على غرار الإرث الذي يوقفه بعض الأشخاص على ذراريهم كأن يوقفون لهم مزرعة أو ماء أو أي محصول آخر، وهذا هو ما يُسمّى بوقف الذريّة، فتبقى هذه الذريّة تنتفع به جيلاً بعد جيل إلى نهاية العالم، ولكن لا يحقّ لهم بيعه.

وأؤكّد هنا على أنَّ تمسّك المرأة بهذه الإرشادات بمثابة تشغيل محرّك مولد للطاقة الكهربائية، فهذا المحرّك يوفّر النور حتى نهاية العالم لكلّ من يتّصل بشبكته. وذلك الإرث يتلخّص في الامتناع عن اتّباع منهج سيادة الأُم في الحياة الأُسرية؛ فلو أنَّ هذا المنهج تسرّب شيء منه إلى بيت الأُسرة من أحد الأبواب، فسيخرج الفكر الصحيح منها من باب آخر. وستنطلق الصيحة ذات يوم من حنجرة أحد أفراد الجيل الأول أو الثاني أو الثالث ضد تسلّط تلك المرأة، منادية بأنّها أوّل ضحايا ذلك التسلّط الذي كانت تمارسه المرأة

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٧١.

بلسانها وحده أو بلسانها ويدها ضد الأَب. إنَّ سيادة المرأة كلمة سيّئة تفضي بالذريّة إلى الإصابة بمرض انفصام الشخصية، ويا حبّذا لو أنَّ هذا المنهج يُسمّى منذ البداية بمنهج انفصام الأُمومة.

قدّمت شرحاً وافياً حول وجوب تمكين المرأة لزوجها، وأشرتُ إلى أنَّ الزوج الجائر هو ذلك الزوج الذي يبتعد في المنام عن زوجته ولا يفسح لها مجال النوم معه. كما وأنَّ من أولى صفات المرأة الصالحة هي صفة التمكين للزوج. ومن الواضح أنَّ نوم الرجل إلى جانب المرأة وتمكين المرأة للرجل هما أوَّل وأفضل الأساليب للوقاية من ظاهرة سيادة الأُم. لأنَّ الرجل يظهر من خلال نومه إلى جانب المرأة بأنَّه هو الفاعل والمسيطر وهو الذكر، وكذلك المرأة تذعن من خلال التمكين بأنَّها هي المفعول الخاضع لسيطرة الفاعل. ومن المؤكّد أن بذور سيادة المرأة لا تنبت أبداً في مثل هذا الفراش. وحتّى إن كانت قد نبتت قبل ذلك في ظلّ النزاعات الأُسرية البسيطة، ستجف جذورها على نحو تلقائي في فراش التمكين وفي ضوء القبول بمبدأ الفاعل والمفعول. فلا يبقى بعد التمكين أي أثر للنزاع حول التمكين.

يطل منهج سيادة الأُم بأساليب مختلفة على البيت، ومثلما أنَّ للشرك مراحل من الضعف والقوّة؛ كذلك يتّسم منهج سيادة الأُم بدرجات ومراحل متباينة. فإذا ابتدأ بعدم التمكين من المرأة وبامتناع الرجل عن النوم مع المرأة، فإنَّ هذه الدائرة تأخذ بالاتّساع تدريجياً، وذلك لأنَّ المرأة تمتنع عن التمكين ممَّا يثير غضب الزوج ويدفعه إلى إيذائها نفسياً، وهذا ما يؤدّي إلى إصرارها على المكابرة والعناد، وتستمرّ الأمور في السير على هذا المنوال، فتنعكس آثارها السلبية على الذريّة.

توجد في القرآن آيات تصرّح بأنَّ أعضاء الجسم تشهد يوم القيامة بما قالت وما فعلت في الدنيا. ويوجد مثال على هذه الحالة في الحياة الدنيا. فالجنين عضو من أعضاء الأُم، وتنعكس ـ عليه كما تنعكس على أعضاء

الجسم الأخرى ـ جميع تصرّفات الأُم. فإذا أذنبت الأُم يشهد عليها الجنين عندما يصبح في أجواء تساعد على الإدلاء بالشهادة، أي عندما يأتي إلى الدنيا بأنَّ أُمّه مذنبة، وتتجسّد شهادته على شكل جنون أو صرع أو نقص في الأعضاء. ومن جملة الأمور التي تشهد عليها الذريَّة هي تلك المعصية الكبرى المسمّاة بأسلوب سيادة الأم، وتتجسّد تلك الشهادة على شكل جنون يصيب تلك الذريّة، ويتبعه عذاب من الله أشدّ وأبقى.

إنَّ المرأة التي توبّخ زوجها أمام ضيوفه، وتعيب عليه إخراج صوت منكر أثناء شرب الشاي، أو أنَّ اصبعه لامس اصبعه أثناء غمس اللقمة في الإناء، أو أنَّه يتناول لقماً كبيرة، ولسانه يخرج ويدخل أثناء مضغ الطعام، أو لحس المعلقة، أو أكل بسرعة، أو مدّ رجله وسط المائدة، أو الطعام يتساقط من فمه، أو لا يتناول من الإناء الذي أمامه، أو يعزل حبّات العنب الكبيرة ولا يأخذ عنقوداً كاملاً، أو يأخذ الخبز الجيد لنفسه، أو تجشّأ، أو تكلَّم كثيراً، أو نظر إلى أيدي وأواني الآخرين، أو أثنى على الطعام، أو لم يساعد زوجته، أو لم يذكر في كلامه أحداً من الأولاد الذين كانوا جالسين حول المائدة، أو عطس ولم يكمم أنفه، أو جلس في صدر المجلس وهو المضيف، أو أنَّه بالغ في إكرام أقاربه أكثر من إكرام أقارب الزوجة، أو أنَّه اشترى زيتاً رديئاً وكان المقرر أن يشتري زيتاً أفضل لتكون نكهة الأرز أفضل، أو مدّ يده إلى الطعام بعد الآخرين وكفّ عن الطعام قبلهم، أو أنَّه أخذ الإناء المتميّز لنفسه، وما شابه ذلك من المؤاخذات الأخرى. فإنَّها ـ وإن كانت محقّة في طرح أمثال هذه الملاحظات ـ إلاّ أن تقريع الزوج أمام الضيوف يعدّ انتهاجاً لنوع من أساليب سيادة المرأة، ولكن مورس بشكل ابتدائي ومخفف، ومن الطبيعي أن ذرّيتهما تُصاب بمثل هذه الدرجة المخففة من انفصام الشخصية. ويمكن في هذا المجال استذكار نظرية أرخميدس في الأواني المستطرقة التي كلّما ازداد الضغط على جانب منها ارتفع المنسوب على

الجانب الآخر: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾[1]. أي كلّما ازداد الضغط على الفطرة يزداد معه الضغط على الشخصية. وإذا اتّبعت المرأة حالة مخففة من التسلّط تنتج عنها حالة مخففة من انفصام الشخصية لدى الذريّة وإذا اتّبعت حالة أكثر شدّة يكون الانفصام لدى الذريّة أشدّ وأقوى.

المرأة التي تحاسب زوجها على عدم شراء ثوب ثمين لها مع العلم أنَّ وضعه المالي لا يساعد على شراء مثل هذا الثوب، أو تقول له: لماذا لم تغسل الأواني؟ أو لماذا لم تهتم بالطفل؟ أو لماذا لم تطبخ؟ أو لماذا فعلت كذا في محلّ عملك؟ أو لماذا كنت كذا في غرفتك؟ حتّى وإن كان الحقّ معها، فإنَّها في الحقيقة تقترب شيئاً فشيئاً نحو تطبيق أسلوب سيادة الأُمّ. وذلك لأنَّ الرجل يفترض به أن يساعد المرأة أو أن يدفع لها أجراً لقاء الرضاعة أو يسترضيها بشكل أو آخر، وأوضح مثال على ذلك هو الإمام علي عليه السلام وزوجته فاطمة الزهراء عليها السلام حيث كانا يتعاونان على أمور البيت بينهما بحيث لم يكن هناك أثر لسيادة الأَب ولا لسيادة الأُم.

وفي مقابل كل ذلك فإنَّ أي عمل تؤدّيه المرأة بما يخدم أُسرتها ويصون مصالحها حتّى ولو أخذت إناءً من مكان ووضعته في مكان آخر، يكتب لها به أجر عظيم. فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**أيّما امرأة رفعت من بيت زوجها شيئاً من موضع إلى موضع تريد به صلاحاً نظر الله إليها، ومَن نظر إليه الله لم يعذّبه**»[2].

ونشير في هذا السياق أيضاً إلى الجانب الصحّي، إذ يُعتبر وضع فراش النوم ورفعه بمثابة عمل رياضي تمارسه المرأة، وهو مفيد لسلامتها البدنية

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و٨.

(٢) بحار الأنوار، ج١٠٣، ص٢٥١، ح٤٩.

والنفسية. وقد سبقت الإشارة إلى أنَّ المرأة الصالحة تنظّم الأثاث والأشياء في بيتها بشكل يسهل معه العثور على الشيء المطلوب عند الحاجة إليه مباشرة، بدون اللجوء إلى بعثرة الأشياء الأخرى. ولا شكّ في أنَّ مثل هذه المرأة ينظر الله إليها.

توجد عدّة أشياء تتميّز بها المرأة عن زوجها منها: إدارة البيت والحيض والحمل والولادة والرضاعة. ومن جملة الأمور التي تتفرّع عن إدارة البيت هو تنظيم الأشياء فيه بشكل مرتّب وسليم.

شرحنا في ما سبق حديثاً لرسول الله ﷺ وصف فيه المرأة الحامل بالقول: «**إنَّ المرأة إذا حملت كانت بمنزلة الصائم القائم المجاهد بنفسه وماله**»[1]. وممّا يثير الدهشة في هذا المجال هو أنَّ رسول الله ﷺ ذكر هذه الصفات للحامل بما ينسجم مع ترتيب العلامات الجسمية للصائم، والقائم، والمجاهد، ففي بداية الحمل تتبع المرأة نظاماً غذائياً معيّناً يجعلها تبدو شبيهة بحالة الصائم. وبعد مضي بضعة أشهر كالقائم الذي يحيي اللّيل لأنّها لا تستطيع النوم بسبب ضخامة بطنها. وفي المرحلة الثالثة تقدّم لجنينها تضحيات مادية ونفسية، وبهذا تكون شبيهة بحالة المجاهد الذي يضحّي بنفسه وماله. وتبدو في ظلّ الأوضاع التي تترتّب على الحمل وكأنّها تجابه المخاطر في ميدان الحرب. أليس الصائم والقائم يعبد ربّه في المكان المسمّى بالمحراب، والمحراب هو موضع الحرب وميدان القتال؟! وأليست المرأة الصائمة أو الرجل الصائم في حالة حرب زمانية ضد المشتهيات الشيطانية والنفس الأمّارة، ويبقيان في حالة قتال من الفجر إلى غروب الشمس، ثم إنَّ المصلّي لا يجوز له أن يقدّم أمامه أثناء صلاته سوى المحراب، كأن يكون مصباحاً أو صورة أو نافذة أو حيواناً أو إنساناً.

---

(١) بحار الأنوار، ج١١٠، ص١٠٦، ح١.

وعلى كلّ الأحوال فإنَّ المرأة الحامل التي تحمل العلامات الظاهرية للصيام والقيام والجهاد، فهي مضطرّة عن قصد أو عن غير قصد إلى قضاء مدّة حملها في حرب وجهاد في سبيل الله. والأكثر أهميّة من كل ذلك هو عظم الأجر الذي تناله في مُدّة حملها ورضاعتها، فقد قال رسول الله ﷺ في ذلك: «**فإذا وضعت كان لها من الأجر ما لا يُدرى ما هو لعظمه، فإذا أرضعت كان لها بكلّ رضعة كعدل عتق محرّر من ولد اسماعيل**»(١).

أجل إنَّ كلّ سنبلة تحمل بالقوّة نبتة ذات أوراق، وسنبلة فيها حبّ إلى سبعمائة حبّة. وكلّ وليدٍ يحمل بالقوّة عقلاً وذكاءً ووزناً لا حدَّ له في ميزان الحياة، فيكون منه أمثال إبراهيم الخليل أو الحسين بن علي عليهما السلام أو غيرهما ممن اختطّوا لأنفسهم مدرسة في ميدان الحياة إلى نهاية التاريخ. ومن ذا الذي يستطيع استيعاب مدى عظمة أمثال هؤلاء الأشخاص أو أتباعهم الذين تصدّوا للمسؤولية من غير أن يكون لفكرهم الخيّر حدود؟ هؤلاء الصغار المسلمون بالقوّة سيستحوذون على معاقل الكفر، وينشرون الإسلام في كلّ أرجاء المعمورة. وهذه العظمة لا يدركها إلاَّ الباري تعالى، خالق هؤلاء الصغار.

المرحلة الرابعة هي مرحلة الإرضاع التي وصفها الرسول بأنَّ كلّ رضعة منها تعدل عتق رجل شريف من بني آدم.

أجل إنَّ الحرية لا تُنال إلاَّ بالقوة، والقوّة كامنة في السواعد القوية للجندي، والجندي هو ذلك الفرد الذي لا يقوّيه إلاَّ حليب الأم. وسنذكر لاحقاً بأنَّ حليب الأُمّ لا يُستعاض عنه بشيء. وهذه الحقيقة ذكرها الإمام علي عليه السلام وجاء الطبّ الحديث ليثبت هذه الحقيقة بعد مرور أربعة عشر قرناً.

أشرنا في ما سبق إلى أنَّ مركز قيادة المرأة هو بيتها. وإصلاح شؤون

---

(١) أمالي الطوسي، ج١، ص٣٣٦؛ بحار الأنوار، ج١١٠، ص١٠٦.

البيت هو أساس صلاح المجتمع. وقد أراد الباري تعالى أن يبدأ الإصلاح من هناك، وذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1]. ومن يبتغي الإصلاح طالباً بذلك وجه الله، حاشا لله أن لا ينظر إليه، ومَن ينظر إليه الله لا يعذّبه.

إذا كانت المرأة منهمكة في أعمال البيت وإصلاح شأنه فهي تدخل في عداد العباد الخاصّين لله، وإذا حملت فهي كالمجاهد الصائم القائم، وإذا وضعت حملها كان لها من الثواب ما لا يُدرى عظمه، وإذا أرضعت كان لكلّ رضعة عدل تحرير رقبة إنسان شريف. وطالما كان هناك ابن أو بنت تحت تربيتها، ومادامت تسمّى أُمّاً فالجنّة تحت قدميها. ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ الرسول ﷺ قال في ما يخصّ الرجال: «**الجنّة تحت ظلال السيوف**»[2]. أي أنّه جعل أساس دخول الجنّة الوجود الخارجي الذي يستطيع الرجل الوصول إليه. أمّا بالنسبة إلى المرأة فقد جعل أساس دخولها الجنّة منوط بذاتها، وجعل الجنّة تحت قدميها اللّتان كانتا توضعان حيثما كان يتربّى الأولاد، وتخرج طاقاتهم من القوّة إلى الفعل. وهذا المطلب الذي يشبّه الحمل والوضع والإرضاع بالصيام والقيام والجهاد ينسجم تماماً مع مفهوم الآية الشريفة التي تقول: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾[3] وذلك لأنّ الجنّة تحت أقدام الأمّهات؛ لأنّ عمل المرأة منذ بداية الحمل إلى حين زواج أبنائها يعتبر كلّه أمومة، والأُمومة عمل صالح، وكذلك عمل الأَب خارج البيت في كسب لقمة العيش وتوفير الراحة والرفاه لأُسرته يُعتبر هو الآخر عملاً صالحاً.

ذكرتُ في كتب أخرى بأنّ الحليب يعمل عمل السيف. وأضيف هنا

---

(١) سورة التحريم، الآية ٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٣٣، ص١٤.

(٣) سورة فاطر، الآية ٣٧.

إلى ما ذكرته سابقاً بأنَّ الرسول ﷺ جعل كل رضعة مساوية لتحرير رقبة رجل شريف. أي أنَّ للحليب قدرة على التحرير كقدرة السيف. وإنَّما جُعلت الجنَّة تحت قدم الأمّ، لأنَّ قدم الإنسان قلبه الثاني، وهي موضع اتصاله بأُمّه الأرض التي تعتبر هي مصدر طعامه. ومن المدهش أنَّ التمسّك بالتعاليم الشرعية في ما يخصّ الشؤون الجنسية وستر العورة بمثابة نوع من التستر بورق أشجار الجنَّة. وفي هذا المعنى إشارة إلى الآية الشريفة: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ . . .﴾[1]. وتكون نتيجة التمسّك بهذه التعاليم ذرّية تكون سبباً في أن يصبح كلّ مكان تضع فيه الأمّ رجلها جنّة، ويكون لحليبها فعل السيف في التحرير.

من جملة الأمثلة التي يمكن إيرادها لتوضيح معنى قولهم: إنَّ حسنات الأبرار سيّئات المقرَّبين. هي لو أنَّ شخصاً بسيطاً وضع اصبعه في أنفه في مجلس ما، فماذا تقول عنه؟ وإذا فعل هذا العمل معلّم، ما هو رأيك فيه؟ ولو فعله وزير، ما هو الانطباع الذي سيتكوّن في ذهنك عنه؟ ومن هنا فلو أنَّ رسول الله فعل هذا العمل أمام قومٍ فهو بمثابة كبيرة منه. وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى عمل الخير. وعملُ الخير بالنسبة إلى الطفل غير الشرعي يستوجب ضعف ثواب عمل الخير من غيره، إذ روي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**أفضل الأعمال أحمزها**»[2]. ولو أنَّ رجلاً صالحاً قام بذلك العمل يكون قد اقترف إثماً.

والمراد من هذا الكلام هو أنَّك أيَّتها المرأة يمكنك التصرّف أمام زوجك بناءً على ما لديك من معرفة ودراية. فإذا عملت أمام زوجك على غرار عمل ذلك الشخص البسيط الذي يضع اصبعه في أنفه، أو بصقت على

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٢.

(٢) مجمل اللغة، ج١، ص٢٥١؛ نثر الدرّ، ج١، ص٤٢٠.

الأرض أو مددت يدك إلى عنقك وصدرك واستخرجت الأوساخ أو عطستِ أو سعلتِ بشكل مثير للسخرية، فأمّا أن زوجك بمستوى ذلك الشخص البسيط لا ينتبه إلى قُبح عملك، وأمّا يكون شخصاً فاهماً فيصفح عنك ويشير لك بشكل أو آخر بترك هذا العمل. ولكنك إذا كنت امرأة واعية وفاهمة فإنَّك لا تفعلين أي واحد من هذه الأعمال القبيحة المنافية لمبادىء الصحّة. وهذه الأعمال ليست غير صحية فقط، ويشمئزّ منها الزوج على قدر اهتمامه بالجانب الصحّي؛ بل يجب اجتناب الأعمال اللاأخلاقية أيضاً، لأنَّه يشمئز منها على قدر تعظيمه للأخلاق. نذكر على سبيل المثال لو أنَّك عوّدتِ ابنك على الوقوف إلى جانبه في كل سوء تفاهم يقع بينه وبين أبيه، فمعنى ذلك أنَّك زرعت بذور مرض خطير في الأُسرة، يأخذ بالاستفحال يوماً بعد آخر ويؤدّي إلى أن يكون هذا الولد سبباً في تعميق أسباب الخلاف بين الرجل والمرأة، ويخلق لدى الابن مشاعر غير متّزنة بسبب ما يعيشه من تضاد بين قوّتين؛ قوّة التأييد المطلق من قِبل الأُمّ، وقوّة الإهمال غير المبرر من قبل الأب. وسنتناول في مجلد آخر شرح هذا المرض بالتفصيل إن شاء الله.

يضم الإسلام في تعاليمه جميع المعادلات العلمية، وحتّى المسماة بالعلمية منها والتي تُعنى بالجوانب الحسيّة فقط، كما وأنَّ هذا الدين يبدي أهمية فائقة لتوجيه الروح نحو الكمال، وليس هذا فحسب؛ بل يُعنى أيضاً بالربط بين هذين العالمين، عالم الغيب وعالم الشهادة. وهذا دليل على كمال الإسلام؛ لأنَّ العلم الحديث أخذ يتجه توّاً نحو هذا المطلب بهدف القيام بذات العمل الذي قام به الإسلام قبل أربعة عشر قرناً، حيث بدأ توّاً بالبحث عن أساليب يستطيع بها أن يأخذ صورة هلامية للرجل المقطوعة بحيث لا يكون للعضو أو المادة تأثير على فيلم التصوير، واضطرّ إلى إجراء دراسات دقيقة ليوفّق بين هاتين الحالتين.

بيد أنَّ الإسلام كانت له اليد الطولى في هذا الميدان على الدوام، ونرى

أنّه يحثّ المرأة ويدفعها نحو فراش زوجها لما في هذا العمل من خيرٍ لها.
فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**لا تحسن المرأة حتّى تروي الرضيع وتدفىء الضجيع**»(١). وإذا نظرنا في القرآن الكريم نراه حينما يتحدّث عن الجوانب يشير إلى وجود طعام حسن وطعام طيّب، والطعام الحسن خير من الطعام الطيّب؛ وسبب ذلك أنَّ الطعام الطيّب مناسب للهضم ويمكن طرح فضلاته بسهولة. بينما الطعام الحسن يتّصف فضلاً عن طيبه بخاصية أخرى وهي أنّه يزيل الآلام والأمراض. وأمّا إذا نظرنا إلى معنى الحسن والإحسان من حيث البُعد المعنوي والأخلاقي فنراه أفضل من العدل والإنصاف. وقد سبق شرح هذا المعنى عند شرحنا لمعنى الإحسان إلى الوالدين؛ فقد أمر القرآن الولد بمعاملة والديه بالحسنى وليس بالعدل والإنصاف، وأنَّ الولد ملزم بالإحسان إليهما حتّى وإن أساءا إليه. والمرأة تحسن بالتمكين لزوجها وبإرضاع طفلها. وهي إذا فعلت ذلك تكون من المحسنين. وأفضل إحسان الزوجة لزوجها هو قبول طباعه وسجاياه، وهذا العمل أسهل عليها من رفضها. نشير على سبيل المثال لو أنَّ الزوج غضب ولم يسكن غضبه، أو إذا أساء ولم يعتذر، ولكن المرأة تحمّلت منه ذلك وصبرت عليه تكتب في المحسنين. والقرآن يصرّح بهذا المعنى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٢). معتبراً تحمّل أي إنسان قبل تسكينه إحساناً. وإذا أخذنا مرتبة الحسن بمعنى الخير الظاهري بأنَّ المرأة تكون حسنة تقف عندها على موقف الإسلام في الربط بين القضايا المادية والمعنوية.

وكما جعل الإسلام للمرأة ثواباً عظيماً على تسكين الرجل، وجعل لأدنى أعمالها من قبيل رفع إناء من مكان ووضعه في مكان آخر لإصلاح أمر

---

(١) عيون الأنبياء، ج٤، ص١٨ (لم أجده في المصادر الحديثة. المترجم).

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٤.

البيت أجراً جزيلاً، فقد جعل لها إزاء بعض الأعمال الأخرى كتقديم الماء إلى الزوج ثواباً عظيماً. فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنَّه قال: **«ما مِن امرأة تسقي زوجها شربة من ماء إلاّ كان خيراً لها من عبادة سنة، صيام نهارها وقيام ليلها»**[1].

إذا دُعيت المرأة إلى عرس أو عزاء أو إلى بيت أحد أقاربها ووقع خلاف بين زوجها وأبيها أو أمّها يجب عليها أن تقف إلى جانب زوجها. فحينما جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله - الذي يعتبره القرآن أولى بالمؤمنين من أنفسهم - وطلبوا منه أن يأذن لابنته الزهراء بالمشاركة في حفل عرس يقام في بيت جيرانها، قال لهم: **«إنَّها زوجة علي بن أبي طالب، وهي بحكمه»**[2].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٤، ص١٢٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٠.

اختلاف المرأة والرجل

لا يحتمل وجود تفاهم كامل واستقرار دائم في حياة المرأة وزوجها. فكيف نقرّ بوجود مئات الاختلافات الجسمية والنفسية ولا نتوقع حصول خلاف بينهما، وما أن يلاحظ الرجل أدنى عمل من المرأة يتنافى مع رغبته، أو بمجرّد أن ترى المرأة عملاً من الزوج لا ينسجم مع نفسيتها، يتوقع كلّ منهما أن يعرب الآخر عن توبته، ويعد بالقضاء على التناقضات وأسباب الخلاف.

بما أنَّ الإنسان ليس كسائر الحيوانات التي قد تختلف عن بعضها في الكميّات وتتلاقى في الكيفيات، فمن الطبيعي أنَّ كل إنسانين يوجد بينهما اختلاف من السماء إلى الأرض. واختيار الزوجة يقع عادة ضمن هذه الفاصلة من الاختلاف، وكثيراً ما يحصل ضمن هذا السياق أن يكون الرجل مثابراً وتكون الزوجة كسولة. أو يكون الرجل متخلّفاً عقلياً بينما تكون امرأته ذكية. في حين أنَّ العربة القديمة يجب أن يجرّها حصان قوي، والحصان الضعيف يجب أن تربط عليه عربة خفيفة وسهلة، وأن يتّخذ الرئيس لحماية المرؤوسين، ويكون الآخرون كمرؤوسين ويعملوا على صيانة الرئيس. ويبدو أنَّ رأي علماء الفيزياء في ما يخصّ خلقة المادة يصدق على خلقة غير المادة أيضاً. فهؤلاء العلماء يقولون إنَّ خلق المادة تعيش حالة استواء؛ إذ أنَّ المرتفعات والمنخفضات والزيادات والنواقص والحرارة والبرودة تؤثّر في بعضها الآخر، وتوجد حالة من التعادل والتوازن تجعلها تسير على وتيرة

واحدة نحو التوحيد. وهكذا الحال بالنسبة للرجل والمرأة فهما حينما يقترنان بعقد الزواج لا بدّ وأن توجد بينهما اختلافات، ويجب أن تتداخل وتذوب نصف الاختلافات الموجودة لدى كلّ واحد منهما مع الآخر: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[1]. والكائن الذي يأخذ على عاتقه مهمّة تقليل مدى الاختلافات بين الموجُودَيْن السابقين هو الجيل الجديد.

يتلخّص الاختلاف الأساسي بين الرجل والمرأة بالصراع بين الفكر والعاطفة؛ فالرجل يعيش بالأمل والتفكير، والمرأة تعيش بالأمل والعاطفة. ولهذا السبب لا بدّ أن يدخل الرجل والمرأة في معترك الصراع المحتدم على الدوام بين العقل والأخلاق. ونحن نعلم بأنَّ الاختلافات غالباً ما تنجم عنها أزمات. وإذا كان أحد طرفي البادية حارّاً والآخر بارداً فلا بدّ أن تقع عاصفة. وإذا كان أحد قطاعي المجتمع جائعاً والآخر متخوماً فلا بدَّ أن تقع بينهما أزمة حادّة. وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى الرجل والمرأة اللذين يمثلان جنسين مختلفين وتوجد بينهما اختلافات كيفية وكمية كفيلة بإحداث أزمة ظهور الجيل الجديد وهو ما يفضي إلى دفع ثمن حياة الأجيال اللاحقة. وهذه هي الأزمة التي تسوق رجال ونساء المستقبل على مسار التوحيد نحو الله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[2]، ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[3]، ﴿إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[4]. وهذه هي العاصفة التي تستجلب سحاب الرحمة، أو كما يعبّر عنه علماء النفس بقولهم: إنَّ الغضب السطحي، والهواجس الطفيفة والمشاجرات اللفظية بمثابة الرعد والبرق الذي يستجلب المطر ويقود إلى ازدهار شجرة الحياة، على اعتبار أنَّ المطر يأتي من بعد البرق والصاعقة، وبعد نزول المطر يسود الفرح والسرور.

---

(١) سورة الإنسان، الآية ٢.

(٢) سورة النور، الآية ٤٣.

(٣) سورة الزخرف، الآية ١٤.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٥٦.

إنَّ الشخص الذي يختارُ شريكة حياته على هدي التعاليم الإلهية ويبني صرح حياته على أساس تعاليم الإسلام، تكون عوامل التضاد في حياته كسائر عوامل التضاد الموجودة في سائر مناحي الوجود الزاخرة بالسلب والإيجاب، والحرارة والبرودة، والمرض والصحة، والموت والحياة.

أفردت عدّة صفحات في كتاب آخر لشرح السبب الذي من أجله أمر الله الرجل بضرب المرأة، عند بحثي للآية الشريفة: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1]. وأحاول في ما يلي تسليط مزيد من الضوء على هذا الموضوع لاستكناه موجباته:

ذكرت هناك أنَّ الضرب ينبغي أن لا يكون شديداً بحيث يترك احمراراً أو اسوداداً على بدنها ويوجب الديّة، ويجب أن يأتي الضرب جزاءً على تعنّتها وإعراضها عن زوجها في الفراش، على أن لا ينزل بها ضرراً، وكلّ ذلك يجب أن يأتي في حدّ الإنصاف والاعتدال، من أجل أن تفهم المرأة أنَّها تحت إمرة الرجل وليست على طريق الطلاق أو الفراق، وأنَّها لازالت على ذمّة رجل يريد لها الهداية وليست على ذمّة رجل يتركها وشأنها. وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ هذا التهديد والضرب بعصا المسواك يمثّل ملح الحياة، وجرساً يُقرع للانتفاض على حالة الظلام والسبات التي تكتنف الحياة بين الحين والآخر.

وفضلاً عن ذلك لا بدّ من الالتفات إلى ماهية التعليمات الواردة في هذا المجال من أجل أن يكون الرجل على بيّنة من أمره وكيف يجب أن يعامل المرأة، وكيف يجب أن تكون هي معه بحيث لا يأخذهما الطيش ويدفعهما إلى نحر حلاوة حياتهما على مذبح الأهواء والأنانية والتكبّر؛ وذلك لأنَّ الإخلاص الذي يرافق الحياة الزوجية يعدّ نعمة كبرى، ومن يكفر هذه النعمة لا يقدّم للمجتمع سوى جيل ضائع ومريض.

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.

عُرضت عليَّ في ما سبق أسئلة كثيرة حول الترفيه، وبيّنت حينها بأنَّ الإنسان يجب أن يعيش لحظات من الهمّ ودقائق من السرور بحيث لا يُفضي أي منهما إلى حصول توتّر في الأعصاب؛ لأنَّ مجموع توتّرات الأعصاب تساوي الموت. ولو أردنا إعطاء تعريف للتوتّر هنا لقلنا بأنَّ لنظام الجسم سعة محدودة على التطابق، وكلّ ما يأتي أكثر أو أقل من ذلك، أي أن يكون خارجاً عن حالة التطابق يؤدّي إلى إيجاد التوتّر. نقول على سبيل المثال بأنَّ الإنسان لو نبت مسمار بيده يكون ردّ الفعل عبارة عن ألم وقفزة من المكان يرافقه تحشد كريات الدم البيضاء حول موضع الجرح لمقاومة البكتريا المعتدية إضافة إلى نشاط عملية تخثر الدم واستلئام الجرح، وكذلك إذا تلقّى الشخص صفعة فإنَّها تجابه بردود فعل معينة من قبل الجسم، وكلّ حادثة مؤلمة أو سارّة تلمّ بالشخص تستتبع وراءها ردود فعل، والحالة التي تقف وراءها تسمّى توتّراً. وقد حدّد الدكتور توماس هيلمن العالم النفسي في جامعة واشنطن الطبيّة درجات متفاوتة لوقائع الحياة من حيث الشدّة والضعف في التوتر ويقول بأنَّ الزوجة الصالحة إذا ماتت يكون التوتّر ١٠٠، وعند الطلاق ٧٣، والزواج ٥٠، والحصول على شهادة البكلوريوس ٤٧، والانتقال إلى دار جديدة ٢٠، وما إلى ذلك، وكلّها تسبب الشيخوخة. إلاّ أنَّ ما يأتي وراء التطابق هو الشيخوخة المبكّرة. ويرى الدكتور المذكور أنَّ الشخص إذا ألمّت به سنوياً أكثر من ٢٠٠ درجة من التوتّر فمعنى ذلك أنَّها تفوق سعة التطابق وتؤدّي إلى إصابة الشخص بمرض. وأمّا التوتّر الطفيف الذي يطبع الحياة المتحضّرة فيجب أن نعيشه. بيد أنَّ المدنية التي يريدها الإسلام لا تبيح شيئاً ممّا يضرّ الجسم أو الروح، وإذا كان الشيء مكروهاً فمن الأفضل أن لا يكون له وجود أساساً، وإذا كان شيء ما واجباً فلا بدّ من الإتيان به، وإن كان وجوده أفضل من عدمه فهو مستحبّ. ومن هنا نلاحظ أنَّ الإسلام فيه تطابق بين الحياة والإنسان، أي أنّه دين ينسجم مع الفطرة.

أمّا التوتّرات الطفيفة فهي بمثابة محفّزات للحياة ولا يمكن للمرء اجتنابها، والسبيل الوحيد للتخلّص منها هو عدم العمل إطلاقاً، وهذا هو أسوأ أنواع التوتّر. لأنَّ أساس خلق الإنسان قائم على العمل وتقلّب الظروف والأحوال. ولكن الضغوط والتوتّرات مهما كانت لا توجد قلقاً لدى المؤمن الذي ينظر إلى الأمور من زاوية ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]، وهو لا يصنع التوترات والضغوط من عند نفسه ويوجهها نحو الحياة، وإنّما تأتي من الحياة صوب الكائن الحيّ.

إذا علمنا أنَّ الفقر مفسدة فإنَّ الثراء هو الآخر مفسدة أيضاً. لأنَّ الثراء يعني وجود فائض والفقر يعني وجود شيء خاوٍ وشيء أقلّ من الحد المطلوب. ومعنى هذا أنَّ المشاجرات التي تقع بين الزوج والزوجة وما يصاحبها من تراشق لفظي يعتبر بمثابة ملح للحياة. وكلّ من يتعدّى منهما طوره نحو الإسراف فهو شيطان يثير التوتر الحادّ في الحياة ويقود إلى ضياع ذريّته. وهذا ما سنشرحه لاحقاً في موضوع تربية الأولاد.

لو توقف التضاد والاختلاف أثناء مرحلة النشوب فلا بدّ أن يحصل على أثره التمكين ونزول مطر الرحمة. وإلاّ فلو تواصل تأجيج نار الاختلاف من قبل المرأة أو من قبل الرجل بسبب نزعته التفوّقية، فإنَّ الصراع تتسع دائرته، وفي حالة تكرار ذلك تحلّ نار النكبة بدلاً من نزول مطر الرحمة. على الرجل أن يفكّر على نحو منطقي وعقلاني ويذعن بحتمية وجود اختلافات ذوقية وفكرية ونفسية بين شابين من جنسين مختلفين ومن عائلتين مختلفتين، ويؤمن بإمكانية حلّ جميع أسباب التضاد. ومن الطبيعي أنَّ مهمة تقصي جذور الخلاف وجوانب التضاد تقع على عاتق الرجل، وبعد ذلك يوعّي المرأة إلى أنَّ الغاية من حياتهما هي تحقيق حياة أفضل والوصول نحو النهاية على نحو

---

(١) سورة الرعد، الآية ٢٨.

أمثل. وعلى المرأة أيضاً حينما ترى الرجل مرهقاً أن تنظر إليه لا بصفته زوجاً وأباً لأطفالها وإنَّما بصفته إنساناً متعباً من معاناة الحياة، ثمَّ تأخذ على عاتقها تهدئة الأمور وتضييق شقّة الاختلاف. وإذا كانت نار الانتقام متأججة في قلب تلك المرأة عليها في تلك اللحظة التي يكون فيها متعباً وغاضباً أن لا توسّع دائرة الخلاف ولا تنال من زوجها أمام أقاربها لأنَّ ذلك يترك في قلبه جروحاً عميقة. وكذلك على الرجل أن لا يسيء القول في زوجته أمام أقاربه. وإذا كانت المرأة قادرة على توفير الراحة لزوجها بشكل يزيل عنه التعب يكون لها نصف أجر الشهيد. وهذا المعنى جاء في رواية منقولة عن الإمام الصادق عليه السلام قال فيها: «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إنَّ لي زوجة إذا دخلت تلقّتني وإذا خرجت شيّعتني وإذا رأتني مهموماً قالت لي: ما يهمّك؟ إن كنت تهتم لرزقك فقد تكفّل لك به غيرك، وإن كنت تهتم لأمر آخرتك فزادك الله همّاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إنَّ للّه عمّالاً وهذه من عمّاله لها نصف أجر الشهيد**»[1].

إذا علمت المرأة بأنَّ المبالغ التي تُدفع من قبلهم لقاء استهلاك الكهرباء والماء والغاز وما شابه لا تُنفق في سبيل رفاه الشعب وعمران البلد أو لصالح المسلمين، عليها أن تقتصد في الاستهلاك إلى أقلّ حدّ ممكن، وإلاَّ فإنَّها تُعتبر مبذّرة.

يميل معظم الرجال إلى أن تكون المرأة على حدّ معقول من البدانة وهذا ما يملي على المرأة أن تكون من حيث الوزن ضمن هذا الحدّ المعقول. ولا شكّ في أنَّ النحافة والبدانة يؤدّيان إلى أن تفقد ميزة خاصّة يتمنّاها الرجل وهي أن تبقى زوجته في حدّ متوسط من الوزن. وأنبّه إلى أنني ذكرت في مجلّدات أخرى آراء الحكماء المسلمين في ما ينبغي عمله لتسمين النحيف، أو لتقليل وزن البدين.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٨٩.

على المرأة أن تتجنّب التدخّل في المجالات التي يُعتبر فيها زوجها شخصاً نشيطاً أو تاجراً أو كاسباً أو موظّفاً أو عاملاً ماهراً. فطالما كان عمل الشركة رائجاً وتدرّ على المساهمين فيها مداخيل جيّدة تبقى العلاقات بينهم علاقات طيّبة. ولكن ما إن تنخفض مداخيل الشركة حتّى يحاول كلّ واحد منهم إلقاء التبعة على تدخّل أحد أعضاء الهيئة الإدارية أو أحد الشركاء. وهذه الظاهرة سائدة في معظم الأمور تقريباً. ولهذا السبب يجب على الرجل أن لا يستشير زوجته في ما يخصّ عمله، وعلى الزوجة أن لا تتدخل في عمل الزوج. لأنَّ الأمور إذا كانت تجري على ما يُرام لا تنالُ الزوجة تقديراً ولا ثناءً ولكن بمجرّد حصول أيّة انتكاسة تلقى تبعاتها على المرأة التي أعربت عن رأيها في العمل.

قد يخطر على بال القارىء أنَّ كل هذا الأجر الجزيل والثواب الجميل الذي جعله الإسلام للمرأة لقاء أعمال صغيرة إنَّما هو ثواب رمزي يراد منه التشجيع، ومن غير المعقول أن تحصل على كلّ هذا الأجر في مقابل غسل إناء واحد ووضعه في مكانه. بينما ذكرنا في ما سبق بأنَّ رسول الله ﷺ عندما قسّم التمر الذي كلّفه الشاب في وصيّته بتقسيمه بعد مماته، وبقيت تمرة واحدة يابسة منه قال: «**لو أنَّ هذا الشاب قسّم التمر بنفسه لكان خيراً له**»، على اعتبار أنَّ الناس كانوا إذا شاهدوا الرسول أو الإمام يعمل خيراً يعتبرون ذلك من واجبه، ولكنهم إذا رأوا شاباً آخر ينفق ففي عمله ذاك حجّة عليهم ودعوة لهم لعمل الخير. والأهم من كلّ ذلك هو أنَّ الإنفاق يغرس في الناس روح الطاعة وينمّي لديهم الرغبة في البذل والعطاء وتنتقل هذه الخصلة منهم إلى ذريّتهم جيلاً بعد جيل. إذاً فالعمل الصالح وإن كان يبدو في الظاهر قليلاً ولكنه ينتقل وراثياً من جيل إلى جيل وتنجم عنه فضائل كبرى. أي أنّه ليس شيئاً رمزياً، وإنَّما حقيقة تأخذ في الاتّساع ولا تنتهي إلاَّ بانتهاء العالم.

أشرت في موضع آخر إلى أنَّ ما كان يُستهزىء به يوماً ما أصبح اليوم

كحقيقة علمية قطعية. ومن جملة ما ورد بشأن الجماع هو الامتناع عنه في ظروف زمانية ومكانية معيّنة منها على سبيل المثال أن لا يكون في حالة اضطراب ولا مع ابن زنا، ولا في آخر الشهر (اليومان الأخيران من الشهر) ولا أول ووسط الشهر، ولا بشهوة ضجيع آخر، ولا تحت الشمس، ولا أثناء العاصفة، ولا أثناء الخسوف أو الكسوف، وما إلى ذلك من الحالات.

إذا كان لدى الأُمّ بنتاً شارفت على سنّ الزواج وجاء رجل وطلب يدها مبدياً رغبته في الزواج منها، فعلى الأُمّ أن تضع على رأس جميع الأمور مسألة تديّن ذلك الرجل إضافة إلى استحصال ما يمكن من العهود والمواثيق منه، وإذا شوهد يمارس بعض المحرّمات فلا بدّ من إرشاده ونهيه عن المنكر. وأشير مرّة أخرى إلى أنَّ الفرق بين التقوى والتقيّة هو أنَّ التقوى تقع جهاراً بينما تؤدى التقيّة سرّاً. والتقيّة ـ على عكس التصوّر السائد ـ أشدّ صعوبة من التقوى؛ لأنَّ للذوق والاختيار تأثير فاعل في هذا المجال. والاختيار ميزة إنسانية كبيرة وبها يتميّز الإنسان عن الحيوان. وإذا كان الرجل يحب أن تبقى أعماله في الخفاء من غير أن يكون فيها حرام، فالأسهل على الزوجة ـ كما ذكرت مراراً ـ هو قبول صفات الزوج وليس رفضها.

جمال الجسم من جمال الروح

إنَّ طبيعة عملي وفكري تملي عليَّ التدخّل في شؤون الأشخاص الذين يراجعونني استناداً إلى عمق ثقتهم بي، وأتبع معهم على الدوام أسلوب إصلاح ذات البين، وأتحدّث مع كلّ واحد منهما على حدة وأبدي له وكأنَّه هو المقصّر وأدعو الزوج إلى مداراة زوجته، وأحثّ الزوجة على احترام زوجها وقد اتّبعتُ هذا المنهج نفسه في كتابي هذا الذي دأبت فيه على تقديم الوصايا والإرشادات إلى المرأة بمداراة الزوج، ودأبت في مجلّد آخر على تقديم الوصايا والإرشادات إلى الرجل بالعطف على زوجته. وهذا بطبيعة الحال يستلزم تكرار كل مطلب في كلا الكتابين. أورد في ما يلي أحد المطالب التي وردت في كلا الكتابين، وهو:

راجع زوجان شابّان طبيباً نفسياً وشكيا له أنَّ أطفالهما ظهروا قبيحين خلافاً لما هما عليه من الجمال، وذكروا أنَّ أطفالهما الثلاثة ـ بنيناً وبناتاً ـ قبيحو الصورة في حين أنَّ العائلة المجاورة لديها أطفال يتميّزون بجمال وعافية تامّة على الرغم من عدم جمال الوالدين. وبعد البحث والتقصّي في الحياة الخاصة لهاتين العائلتين تبيّن للطبيب النفسي بأنَّ الزوجين المراجعين في حالة شجار وخصام دائم بينهما، والمرأة حسودة تحسد الآخرين على كلّ ما لديهم، إضافة إلى ذلك فإنَّ أسلوبهما في تناول الطعام ليس صحيحاً بالمرّة ويتناولون طعامهما أغلب الأوقات خارج البيت ويرسلان طعام الأطفال

بواسطة الخادمة التي كانت في غاية الوضاعة. وبقي هذا دأبهما حتّى في فترة الحمل، بل حتّى أنّه أصبح أكثر سوءاً. واتّضح من خلال التحقيق في محلّ هذه المرأة بأنّها كانت معروفة بين زملائها بأنّها أبرز مثال لسوء الأخلاق.

أمّا بالنسبة إلى الأسرة الأخرى فقد تبيّن من خلال البحث بأنّها كانت أسرة مثالية، وكان الزوج والزوجة يرتبطان بعلاقات وثيقة ويتعاملان بينهما ومع أطفالهما باحترام كامل. ولوحظ أيضاً بأنّ الرجل والمرأة لا يأكل كلّ واحد منهما طعامه على حدة ولا بمعزل عن الأطفال، والأُم تحضّر طعامها وطعام أطفالهما بنفسها. وكانت الزوجة خلال فترة الحمل تتمسّك بجميع الإرشادات الخاصة بهذه الفترة مع السعي إلى الحفاظ على استقرارها النفسي والفكري إلى جانب الامتناع عن تناول الأطعمة المضرّة، مقابل الإكثار من الفواكه والأطعمة التي تسدّ النقص الحاصل في بدنها من جرّاء الحمل ويستفيد منها الجنين في نموّه الجسمي.

وفي أعقاب هذه الدراسة حاول الطبيب النفسي إجراء دراسات وإحصائيات على عدد أكبر من العوائل، وتوصّل من خلال ذلك إلى نتيجة مفادها بأنّ حُسن سلوك المرأة وتفكيرها السليم وغذائها المناسب أثناء فترة الحمل يترك تأثيراً بالغ الأهمية في جمال وسلامة الأطفال.

ويمكن للراغبين في الاطّلاع على المزيد من المعلومات حول النتائج المستخلصة من هذه الدراسة ملاحظة كتاب «أصول مداراة الزوجة»؛ وذلك لأنّ الكلام يجب أن يوجّه في هذا المجال إلى الأب أكثر من الأُمّ، ولأنّ عدم التمسّك بالإرشادات والتعاليم الواردة في هذا الصدد يورث الصرع والمرض والقُبح، وهو ما يستلزم تحمّل أكبر الآلام والمتاعب والنفقات لأغراض العلاج والدواء. وقانون الخلقة يقضي بأنّ من لا يتحمّل جزءاً من الثقل يجب أن لا يستبعد من ذهنه وجوب تحمّل الجزء الآخر.

يُبيّن الباري تعالى في القرآن الكريم مطلبان يوجد بينهما ترابط خاص، على النحو التالي:

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1] سواء كان هذا النذير نبيّاً أم معلّم أخلاق. والمشهود هو أنَّ كل مذهب يعتبر قادته على درجة من الأخلاق التي لا يمكن أن يتّصف بها إلاّ نبي أو معلّم أخلاق.

والآية الأخرى هي: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2]. في هذه الآية وردت كلمة قوم بدلاً من كلمة الأمّة، وجاءت كلمة هادٍ بدلاً من كلمة نذير. ولا يمكن هنا النظر إلى القوم إلاّ كجماعة ذات قوام وثبات، أمّا الهادي فهو ليس إلاّ الأنبياء. فالأنبياء يعتبرون ـ من جهة ـ مبشّرين ومنذرين. والبشارة تحمل خبر الخير وخبر السوء. فقد ورد في الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[3]. وهذا خبر خير، أمّا خبر السوء فهو ما جاء في الآية المباركة: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4]. أي أنَّ الأنبياء يحملون صفة الإنذار على حدة، وبشارتهم أيضاً تضم كلا الجانبين. وهذا المعنى ينسجم إلى حدٍّ بعيد مع أكثرهم لا يعقلون، وأكثرهم لا يفقهون، ولا يعلمون ولا يتفكّرون.

وعلى الصعيد العملي نلاحظ أنَّ الإنسان المؤلَّف كيانه من كلا قسمي الحمأ المسنون، وروح الله، عند جنوحه إلى القسم الحيواني والحمأ المسنون يتمّ التعامل معه بأسلوب الإنذار فقط. فحتى المجانين الخطرين لا يهابون إلاّ الشخص الذي يعاملهم بالصدمة الكهربائية أو يضربهم بالسوط. وهذا يعني أنَّ الآية الشريفة: ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾[5] تنسجم حتّى مع بشارة وإنذار

---

(١) سورة فاطر، الآية ٢٤.

(٢) سورة الرعد، الآية ٧.

(٣) سورة الزخرف، الآية ١٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٢١.

(٥) سورة القمر، الآية ٤٩.

الأنبياء وإرسال الرسل. ونفهم من هنا أنَّ إنجاب أطفال مرضى أو مصابين بالصرع أو العاهات الأخرى من قبل الرجل والمرأة اللذين لا يلتزمان بالأحكام الإلهية وتطغى الأهواء النفسية على حياتهما الأُسرية، ليس سوى ظلم من أنفسنا لأنفسنا، وبالمستوى نفسه تكون التقية أصعب من التقوى؛ لأنَّ التقوى تعني خشية الله، والتقية تعني أن يكون الإنسان على درجة من التقوى بحيث يخشى الله بعيداً عن خشية المخلوق. وعلى كلّ الأحوال فإنَّ المرأة إذا سعت للامتثال لإرادة الله والصبر على زوج لا يسير على الخط الذي تسير عليه هي، رغبة في التقرّب إلى الله، تكون بذلك قد تمسّكت بجانب التقيّة التي تُعتبر أكثر أهمية من التقوى.

المجنون يُضرب لكي يخاف، والرجل أو المرأة يخوّفون لكي يخافا. وهذه الحالة أقرب ما تكون إلى الجبر. أمّا المرأة إذا التزمت التقية لكي يلتزم زوجها بالتقوى فهي تكون بذلك قد تحمّلت الخيار الأقسى ولها بذلك من الأجر ما لا يُحصى. ويجب على المرأة أن لا تفعل ما لا جدوى منه وتتكلّم بما لا فائدة فيه، بل ويجب أن لا تبدي رغبة في معرفة أشياء لا تعود عليها بأيّة منفعة. فما الفائدة التي تجنيها من وراء معرفة اسم والدة هذا الملك أو ذاك. والقرآن أيضاً متى ما يورد كلاماً لا فائدة من جوابه يُقدّم جواباً آخر مفيداً. فحينما سأل فرعون موسى سؤالاً لا فائدة فيه، ردّ عليه بالقول: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] وهذا جواب ذو فوائد جمّة ولا علاقة له بسؤال السائل. أو حينما قال أمير المؤمنين عليه السلام من فوق المنبر: «**سلوني قبل أن تفقدوني**»[2] قام إليه رجل وقال أخبرني كم شعرة في رأسي ولحيتي؟ ولو أنَّ عليّاً عليه السلام أخبره بعدد شعرات رأسه ولحيته لما كان في جوابه أيّة فائدة

---

(١) سورة طه، الآية ٥٠.

(٢) شرح مائة كلمة، ابن ميثم البحراني، ص٢٥٢؛ بحار الأنوار، ج٤٠، ص١٩٢.

للحاضرين ولهذا قدّم له إجابة شهد صدقها من حضروا لاحقاً في ذلك المسجد؛ قال له فيها: «**إنَّ في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله ﷺ أو يحضّ على قتله**»[1] فكان الأمر بموجب ما أخبر به.

وهكذا يجب على المرأة الصالحة أن تتجنَّب الجلوس على قارعة الطريق والانشغال بالغيبة والكلام الفارغ الذي لا فائدة فيه. وإذا سألها أحد سؤالاً غير مفيد عليها أن تقدّم له جواباً مفيداً. وإذا تصرّفت على هذا النحو تكون امرأة وقورة يحترمها السائل ويحترمها زوجها أيضاً.

عليك أيّتها المرأة إذا رأيت كفّة الجانب السلبي راجحة على كفّة الجانب الإيجابي كما مرَّ علينا في مبحث البشير والنذير، أن تعلمي بأنَّ مشاركتك لزوجك في همومه أفضل بكثير من مشاركتك إيَّاه في أفراحه. فإذا رأيت زوجك مسروراً، شاركيه سروره بضحكة وابتسامة أو بطعام إضافي أو بأي عمل آخر يفهم منه سرورك وفرحك. ولكن يجب قبل ذلك أن تلاحظي بأنَّ لمشاركتك إيَّاه في همّه أثر أكبر. ورد عن علي عليه السلام أنَّه أشار في دعاء الصباح إلى أمور اتّخذت اليوم كأساس للنتائج العلمية التي توصّل إليها فرويد وعلماء النفس، قائلاً بعد الاستعاذة من مرديات الهوى: «**واجعل مسائي جُنَّة من كيد العدى**»[2] وهذا المطلب أدرك حقيقته علماء النفس بعد مضي ثلاثة عشر قرناً. والمرأة التي لا تشارك الزوج في همومه وأحزانه، يترك عملها هذا أثراً عميقاً في قلبه. وقد ثبت بالتجربة أنَّ هذه الظاهرة أكثر ما تصدق عندما تتوفّى حماة الزوجة فلا تستطيع هي أن تبدي أمام زوجها حزنها على وفاة والدته، ولا تفكّر في مشاركته في أحزانه.

يجب أن لا تنسي أيّتها المرأة القاعدة الإسلامية العامة التي أشار إليها

---

(١) المصدر السابق.

(٢) دعاء الصباح.

الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «**ملعونة ملعونة امرأة تؤذي زوجها، وسعيدة سعيدة امرأة تكرم زوجها ولا تؤذيه**»[1].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**لا يورد ذو عاهة على المصح**»[2]. وتكمن في هذا الحديث ثلاثة مطالب طبيّة قيّمة هي:

أولاً: أنَّه يقول لا يورد ولم يَقُل لا توردوا ذا العاهة على المصح؛ بمعنى أنَّه لا يوجد مثل هذا الشخص.

ثانياً: يقول حتّى البعير المصاب بمرضٍ معدٍ لا يدخل على البعير السليم، فما بالك بإدخال إنسان مريض على إنسان سالم.

ثالثاً: عدم إدخال ذي العاهة على شخص سليم واحد، فما بالك بإدخاله إلى مسجد أو حارة أو جماعة.

يُستشفُّ من حديث الإمام الصادق عليه السلام الذي يصف فيه المرأة التي تسرّ زوجها بالسعيدة والتي تؤذيه بالملعونة أنَّ المرأة التي تؤذي زوجها ملعونة وإن كانت له مطيعة، في حين أنَّ التي تكرم زوجها وتسرّه سعيدة بدون الإشارة إلى طاعتها له. وهذا ما يؤيّد كلامنا في أنَّ مواساة الزوج في أحزانه أكثر أهمية من مشاركته في فرحه.

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب ٦٣.

(٢) أمالي الطوسي، ج١، ص٣٧٧؛ بحار الأنوار، ج٦٥، ص٨٢.

على مشارف نهاية الحياة

أيّتها المرأة المسلمة! مادمت شابّة ومادام زوجك شاباً عليك أن ترحمي شبابك وترحمي شبابه فإنّكما لن تمنحا الحياة من جديد. وقد ذكرت في بداية هذا الكتاب بأنَّ متوسط عمر النساء والرجال (كلاهما) يبدو أكثر في البلدان التي تقدّس فيها الزوجة زوجها ـ على حدّ تعبير اليابانيين ـ والأفضل من ذلك هو قول الرسول الكريم ﷺ: **«لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»**[1]. فأنت لا تعرفين قدر الشباب ما لم تهرمي. والذي لا يؤلمه سنّه لا يذكره، ومن يكون له قلب معافى لا يدري أنَّ لديه قلب. والشباب عادة لا يدركون ماهية ما لديهم فإذا آلمهم سن أو أصيب لهم قلب يعون حينذاك أنَّ لهم سن وقلب، وأنَّهم قد هرموا.

نحن نلاحظ أنَّ الكهول كثيراً ما يرددون بأنَّ خبز اليوم لا يحمل طعم خبز الأمس، واللحم الموجود في الوقت الحاضر أردأ من لحم الأمس، بينما الخبز هو ذات الخبز والحنطة هي ذات الحنطة واللحم هو ذات اللحم، ولكن العين بحاجة إلى نظّارة لترى جيّداً، والأذن إلى سمّاعة لكي تسمع جيّداً، وحاسة الذوق تحتاج إلى مذاق لكي تتذوّق طعم الأشياء جيّداً. ومادمت شابة عليك أن لا تعرضي عن الأحكام الإلهية فتفسدي على نفسك وعلى زوجك

(١) مستدرك وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب ٦٢.

وعلى أبنائك أسباب المودّة والرحمة وتشيبي أنت وزوجك مبكّراً. وإذا شبت وشاب زوجك على الإسلام كانت لكلّ واحد منكما حرمة كحرمة الأنبياء كما قال رسول الله ﷺ. وإذا كان زوجكِ فقيراً صابراً على الفقر له درجات يوم القيامة أعلى. فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**يوم القيامة يشفع الأنبياء والصالحون والأُمّ والأَب والشهداء والمعلمون والفقراء**». وهذا يعني أنَّ زوجك الذي شاب على الإسلام وأصبحت له حرمة الأنبياء، وصار من خلال تحمّله للفقر في مصافّهم وبمستوى الشهداء والصالحين، فانظري لو كان في بيتك رسولاً أو شهيداً ماذا تفعلين وكيف تتعاملين معه؟

إذا كان أحد أبناء الأُسرة مريضاً، من الطبيعي أنَّ الوالدين يدأبان على معالجته وتمريضه إلى أن يشفى. وهذا المعنى يصدق فيما لو أنَّ الشخص وقع في فراش المرض لمدّة قصيرة. ولكن ماذا لو كان مصاباً بمرض مزمن أو بعاهة لا شفاء لها. يلاحظ في كثير من الحالات بأنَّ الوالدين لا يقدّمون له في مثل هذه الحالة الرعاية والاهتمام المطلوب. بينما نرى أنَّ الإسلام، وعلى الرغم من الأهمية الفائقة التي يبديها للسجود والركوع، يأمر إمام الجماعة بالصلاة حسب حالة أضعف المأمومين؛ فإذا كان في المأمومين كهل لا يستطيع إطالة السجود أو الركوع، يجب على إمام الجماعة أن لا يطيلهما أيضاً. ورعاية المريض مشابهة لحالة الكهل وتوجب على الأبوين الاهتمام به.

بما أنَّ محبَّة الأُم للأولاد تعتبر بمثابة الحجر الأساس في إيجاد المحبّة والمودّة في كيان الأُسرة، ويقرّب الزوج والزوجة من بعضهما، حتّى لو تجسّدت تلك المحبّة على شكل وصية من الأُمّ للأَب بملاحظة درجاته في الشهادة المدرسية، والمشاركة في اجتماع أولياء الأُمور ومسؤولي المدرسة فهذه الأُمور تؤدّي إلى مسرّة الأَب وتعميق أواصر المودّة.

أؤكّد ثانية على وجوب مشاركة الزوجة زوجها في أفراحه وأحزانه، وخاصة في أحزانه. وسبقت الإشارة إلى أنَّ النساء لديهنّ تنوّع أكثر من

الرجال. ولو أريد تقسيم خمسين امرأة على صفات وسجايا متقاربة ووقعن على عشرة مجاميع، لا يمكن تقسيم عدد مماثل من الرجال إلى مثل هذا العدد من المجاميع. كما أنَّ النساء يتّصفن بعاطفة قوية تفوق عاطفة الرجال. ومع أنَّ المرأة أكثر عطفاً على ولدها وأكثر تأثّراً من الرجل على شؤون الأقارب والأصدقاء، إلاّ أنَّ عاطفتها العامّة أقلّ من الرجال، وهي أدنى منه اهتماماً بأحزان وأفراح المجموعات الأخرى من أبناء جنسها. وإذا شوهد رجل وامرأة يذرفان الدموع في مجالس عزاء الشهداء فإنَّ المرأة أكثر ما تذرف دموعها استذكاراً لمعاناتها الذاتية وأحزانها الخاصة. وهكذا الحال أيضاً في ما يخصّ المنفعة العامة، فهي لدى الرجال أكثر ممّا لدى النساء. وإذا كانت المرأة تفكّر بمصلحة عامّة خارج إطار بيتها تكون جديرة بالسماع أكثر من الرجل. وقد أشارت إلى هذه الحقيقة السيّدة «قدسية حجازي» في كتابها «إسلام وأطفال عقب افتاده» (الإسلام والأطفال المتخلفين) عند قولها: بأنّنا لو نظرنا إلى أوضاع الأطفال الذين يعيشون خارج محيط والديهم، قلّما يلاحظ أو يُسمع عن وجود مشاكل ذات شأن لدى الطفل الذي يعيش مع شخص غير أبيه، في حين قلّما يلاحظ وجود طفل يعيش مع امرأة غير أُمّه وهو يعيش حياة هادئة ولا يعاني من مشاكل. وخلاصة القول هي أنَّ عواطف المرأة خاصّة وعواطف الرجل عامّة. ولعلَّ هذه واحدة من الحكم التي جعلت ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1].

في ضوء ما مرَّ ذكره يجب أن تعلم المرأة بأنَّ زوجها لو كان ملاكاً لما تزوجها. وعليها أن تستذكر اليوم الذي جاءها به خاطباً فرضيت به. وعليها أن تكون على استعداد لسماع معاناته من أجل أن يكون ذلك تنفيساً له عن كربه؛ وأن تشاركه في أفراحه وأتراحه لكي لا تستحوذ عليه مشاعر الغربة

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.

والوحدة، لأنَّ الشعور بالغربة شعور قاتل يُفضي بالإنسان إلى الشيخوخة المبكّرة وخاصة بالنسبة إلى الشخص الذي يأتي إلى البيت متعباً ومرهقاً على أمل الاستراحة في البيت، وإذا به يجد البيت محكوم بذات الظروف التي ألجأته إلى البيت، فلا يجد أمامه مناصاً إلاّ بالهروب من البيت أيضاً واللجوء إلى ملاذ آخر ينال فيه قسطاً من الراحة. وهكذا يؤدّي به الشعور بالغربة إلى سأم الحياة، والسأم من الحياة يدفع المرء إلى تمنّي الموت. وما أكثر الأشخاص الذين كانوا غارقين في العمل أثناء وجودهم في الخدمة، ولكنهم ما أن يُحالوا على التقاعد بدون رغبة منهم حتّى يشعرون بالغربة. والغربة تدفعهم إلى طلب الموت وإذا بالناعي يصيح فجأة بأنَّ فلاناً قد مات.

اعلمي أيّتها المرأة بأنَّ مشاركتك زوجك في سروره وآلامه لها قيمة أكبر ممَّا تسمعينه منّي. واعلمي بأنَّ المودّة والمحبّة التي يجب أن تنال في ظلّ الزواج تتحوّل إلى حياة عدائية ونفاق من خلال فوات الفُرص.

جاء في القرآن الكريم أنَّ النبي موسى عليه السلام ذهب لمناجاة ربّه ثلاثين يوماً وزيدت عشراً. وعلى الرغم من وجود نبي آخر أثناء تلك المدّة كان يتولّى مهمّة الإشراف على شؤون بني إسرائيل وهو أخوه هارون، إلاّ أنَّ السامري صنع عجلاً من ذهب وجعل عليه تراباً من أثر جبرائيل، فخار العجل، وقال السامري لبني إسرائيل هذا إلّهكم. فاغترّ بمقالته رجال بني إسرائيل ونساؤهم. ونفهم من هنا إمكانية خداع الناس بثلاثة سُبل:

١ ــ **التمسّك بالتقاليد القديمة البالية والخرافات** أو ما يُسمّى بالعودة إلى دين الآباء، ورمزه في هذه الحادثة هو العجل. ومع أنَّ الناس كانوا يقدّسون كائنات أخرى كالدب والنسر والحصان أكثر من تقديسهم للعجل، إلاّ أنَّ ذكر اسم العجل في القرآن ينم عن معجزة أخرى وهي أنَّ عبادة البقرة بقيت شائعة مدّة طويلة وأبرز شاهد على ذلك هي عبادة البقر التي لازالت منتشرة في الهند حتّى الوقت الحاضر.

٢ ـ **الذهب والثروة**، ويمكن بهما أن ينحرف الرجل والمرأة عن الحق. وقد أوردهما القرآن الكريم مقرونتان مع العجل والخرافات.

٣ ـ **استغلال الأبعاد الغيبية**، وبدلاً من الاستفادة من وحي جبرائيل، استفاد السامري هنا من أثر قدمه، وقاد الإنسان بالخداع نحو اتجاه ومسلك معيّن.

لاحظنا هنا كيف استطاع السامري تحويل مدارين مغلقين إلى مدار مفتوح لخداع إنسان لا يريد لنفسه إلاّ العيش بحرية. فالبقرة قائمة على مبدأ تقديم الحليب واللحم، ومهمتها محصورة ضمن مدار مغلق بينها وبين الإنسان في ضوء ما يريده الإنسان منها. والذهب مدار مغلق آخر يمكن امتلاكه من خلال امتلاك تلك البقرة. ولكن الإنسان مهما كان ماديّاً لا يمكنه العيش ضمن المدار المغلق لأنَّ هذا المدار مدار ماديّ ولا ينسجم مع تركيبته وفطرته. ولهذا ربط بين المدار المادي المغلق والمدار المعنوي المفتوح ـ ولكنه مدار معنوي كاذب ـ وقاد الرجل والمرأة صوب هذا الانحراف العقائدي الفاضح.

وُجّهت الكثير من أساليب الزيف والخداع هذه ضد الكثير من القادة الدينيين على امتداد التاريخ. ومن الأمثلة على ذلك هي المصاحف التي رفعها معاوية يوم صفين على رؤوس الرماح، لكي يقنع الناس باسم الدين بأكثر الأعمال عداءً للدين وللقيم المعنوية.

إنَّ ما يريده الرجل أو المرأة لهذا المجتمع المصغّر المسمّى بالأُسرة لا يمكن أن يأتي على غرار عمل السامري أو عمل معاوية، بل يريد لهم كلّ الخير؛ فهو يرسل أولاده إلى أفضل المدارس ويربّيهم خير تربية. وسبب ذلك يعود إلى محبّته لهم. وهذا ما ينبغي أن يحصل ازاء المجتمع الكبير أيضاً، وأن يتحلّى الإنسان بالحرص على الناس جميعاً. وهذا المعلّم

الحريص هو ذلك الإنسان الذي يصفه القرآن بالقول: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾[1]. والذي يحبّ الناس لا يتركهم يدورون في مدار مغلق أو مدارات مغلقة لا يستطيعون خلالها معرفة شيء سوى البقرة أو الذهب أو المعنوية التي تجعل للعجل رغاءً وتقدّم لهم رغاء العجل بدلاً من كلام الله.

وقد أوردتُ هذا الكلام كمقدّمة من أجل القول بأنّ الأمّ وإن كانت تنطلق في تربيتها لأولادها من نوايا خيّرة، بيد أنّ الأولاد إذا لاحظوا وجود ظلم من جانب ضد أبيهم تنتقض في أذهانهم فكرة التربية ويشمئزون من المرأة وكلّ ما له صلة بالمرأة. إذاً فالمرأة التي لا تسعى لإسعاد زوجها لا يُرتجى منها خير لأبنائها. والأولاد يجب أن يتربّوا ضمن مناخ عائلي يضمّ الأَبَ والأُمّ على حدّ سواء. وإذا فقد أحدهما ولم تحتضنه يد أخرى مشابهة فإنّه يصبح بمثابة طابور خامس ضد مجتمعه.

أُعيد إلى الأذهان مرّة أخرى موضوع الجهاد الأكبر وأشير إلى قول الرسول الكريم ﷺ بعد العودة ظافراً من ميادين القتال: «**كان هذا جهاداً أصغر وعليكم بالجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس**». أجل ان مصارعة النفس أمر عسير وهو من أصعب أنواع الصراع، ولا يتسنّى للإنسان محاربة نفسه وذلك لأنّه يستمرىء كلّ ما له صلة بذاته؛ فهو يبيح لنفسه بخس الكيل، والنظر إلى النساء، والسرقة والقمار، والشراب، ولكنه يستقبح من غيره أن يبخسه الكيل أو ينظر إلى أخته وأُمّه. ولكن ما إن تنطلق أمواج الندم من ذاته ضد ذاته وتتغلّب عليها حتّى يبدأ بمجاهدة نفسه وتوقيع اتفاقية توبة مع الله. ويا لها من اتفاقية جميلة، وهي أنّ الإنسان إذا تاب يتوب الله عليه. وبعد التوبة يستشعر المرء حلاوة الانتصار كامنة في ذاته. ونستخلص من هنا أنّ أقصر طريق يمكن أن يختاره الإنسان للوصول إلى السعادة هو طريق الجهاد

---

(١) سورة النحل، الآية ٣٧.

الأكبر. وجهاد المرأة ـ كما قال رسول الله ﷺ هو حسن التبعّل لزوجها.

لا ينبغي للمرأة أن تكثر من الحديث عن أختها وأخيها وأقاربها. فكلّ من يكثر الكلام ولا يفسح للآخرين مجال التحدّث إنّما هو متكبّر بل مستكبر، والمستكبر خالٍ من الكبرياء وإنّما يدّعي الكبرياء لنفسه ادعاءً.

في بداية الزواج أكثر ما يشغل الزوج هو جمال زوجته ولكن بعد مضي مدّة قصيرة يركّز جُلَّ اهتمامه على كلامها. وإذا أصبح على استعداد للقول بأنَّ زوجتي وإن لم تكن جميلة إلاّ أنَّها نديمة جيّدة وكلامها جميل، فلتعلم الزوجة حينذاك بأنّها محبوبته ومعشوقته الدائمة.

إذا كنتِ تكثرين من قطع كلام زوجك فاعلمي أنَّ حلمه ووقاره لا يبيح له تكرار القول عليك بعدم مقاطعة الآخرين أثناء حديثهم، بل ويكون عملك هذا سبباً يدعوه إلى عدم الكلام في البيت. كما وأنَّ عملك هذا يدلّ على عدم اهتمامك بزوجك. والأسوأ من ذلك هو أن يشعر الرجل بأنَّ زوجته قد أكثرت من مقاطعته حتّى أوشكت على الدخول في جدال معه.

وأشير مرّة أخرى إلى موضوع مشاركة المرأة لزوجها في أحزانه وأفراحه وأؤكّد على أنَّ المشاركة في الحزن أكثر أثراً في نفسه. ومن جملة ما يدعو إلى إدخال السرور في قلب زوجك هو مشاركته في أفراحه، كالتحدّث عن يوم ميلاده أو شراء شيء له بهذه المناسبة؛ كأن يكون قميصاً مثلاً.

الخدمة في البيت

من جملة التعاليم الحياتية التي يجب أن تلتزم بها المرأة هي أنَّها يجب أن لا تقارن ما تؤدّيه من عمل في البيت كالطبخ والغسل والخياطة مع ما تؤدّيه النساء من أقارب الزوج من أعمال مشابهة. ولا ينبغي لها مقارنة زوجها برجل آخر والإيحاء إليه بأنَّه رجل فاشل. بل ولا داعي حتّى لمقارنة لون الثياب الذي يختاره مع لون ثياب رجل آخر ومجادلة الزوج حول هذا الموضوع. بل يجب تفضيل ما يقع عليه اختيار الزوج سواء من حيث الخياطة أم من حيث اللون.

نعود من جديد إلى الحديث بإيجاز عن موضوع الرضاعة وتقاضي الأُجرة عليها. فالمعروف هو أنَّ الزوجة يمكنها مطالبة الزوج بأجور لقاء إرضاع الطفل. وإذا امتنع الزوج عن دفع الأُجرة يمكنها الامتناع عن إرضاعه إلاّ في حالة عدم تقبّل الطفل لثدي امرأة أخرى غير ثدي أُمّه، أو في حالة عدم الحصول على مرضعة له، أو في حالة عجز الأَب عن دفع الأُجرة. ولكن الأُمّ ملزمة حتماً بتقديم الرضعة الأولى للطفل حتّى وإن كان الأَب قادراً على دفع الأُجرة، وحتّى إذا كانت هناك مرضعات كثيرات؛ وذلك لأنَّ حليب الرضعات الأولى يكون غنياً بالمكوّنات الوقائية، وإذا حرم منها الطفل يفقد مناعته ضد الجراثيم والبكتريا والسموم. والآية الشريفة التي تجسّد أهمية هذا المطلب هي: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[1]. وبقية الآية الشريفة تؤكّد

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٣.

على الأَب وجوب توفير الملبس والمأَكل للزوجة وتنبّه إلى وجوب مراعاة السعة المالية للوالدين، وتترك أمر قطع الرضاعة قبل إكمال الحولين إلى موافقة وتراضي الوالدين، وتتحدث عن أجرة الرضاعة.

وردت في الآية الشريفة كلمة الوالدات، وكلمة الوالد والوالدة تدلّ على الأَب الحقيقي والأُمّ الحقيقية؛ بينما لا تحمل كلمة الأَب وكلمة الأُمّ مثل هذه الدلالة. وهذه الجملة وإن كانت خبرية إلاَّ أنَّها تنطوي على حكم استحبابي لا وجوبي. بمعنى أنَّ الوالدات أولى بإرضاع أولادهنّ. وبإمكانهنَّ الاستمرار في الإرضاع لأكثر من سنتين أو الفطام لأقلّ من سنتين، ولكن المستحبّ هو الاستمرار من أجل إبراء ذمة الوالدة في الإرضاع. وإن كانت هناك حالات واجبة سبق شرحها.

تعتبر جملة المولود له ونسبة الولد إلى الأَب من جهة، ونسبته إلى الأُم من جهة أخرى، من دلائل الإعجاز القرآني الذي يعزو التوليد منذ أربعة عشر قرناً إلى كلّ من الوالدين على حدٍّ سواء. في حين أنَّ رأي أرسطو الذي بقي سائداً إلى ما يقارب مائة وخمسين سنة خلت يفترض الأُم مجرّد وعاء يلقي فيه الأَب بذوره.

وفضلاً عن ذلك فإنَّ نسبة الوليد إلى الوالد والوالدة تنطوي على جانب تكويني من جهة وجانب تشريعي من جهة أخرى. لو طلبت الأُمّ أجراً على الإرضاع، وتبرّعت امرأة أخرى لإرضاعه بالمجّان يجب على الأَب تسليمه إلى المرأة الأجنبية لإرضاعه سنتين أو أكثر أو أقلّ كما أشار القرآن. ولا يحقّ للمرأة المطالبة بأجر بعد سنتي الإرضاع. ويُستفاد من الآية الشريفة أيضاً أنَّ أي من الطرفين لا يحقّ له إيذاء الطرف الآخر أو إيذاء الطفل في ضوء قبول الإرضاع أو رفضه. ولا يجوز للمرأة الامتناع عن التمكين تحت ذريعة الإرضاع أو المطالبة بأجر يفوق الحدّ المتعارف أو إغضاب الزوج بالامتناع عن الإرضاع، أو إبعاد الطفل بعد ألفته على الثدي.

إذا كان الطفل ثرياً تقع أجرة الإرضاع عليه سواء في حياة الأَب أَم بعد مماته. ويقول البعض بأنَّ الأجرة تقع على مَن يصل إليه الإرث. وإذا لم يكن هناك من إرث ووارث للطفل على الأُمّ أن ترضعه.

يجب أن تكون المرأة ـ بناء على ما ورد في الآية الشريفة: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾[1] يجب أن تكون صالحة ومنزّهة من الرذائل والقبائح. وإضافة كلمة «قانتات» يعني صلاحهن لا بتصديق الأخلاقيات وإنَّما بحسب ما أراده الله تعالى. والحافظات للغيب لا يراد به حفظهن للظاهر والمشهود وإنَّما حفظ النطفة التي في الرحم، وحفظ الأسرار والكلمات التي تدور بينها وبين زوجها وأن تكون حارساً أميناً على أمواله وتربية أبنائه وحفظ الفرج. وأجمع المفسّرون كلّهم على أنَّ المراد الكلّي من هذا المعنى هو مداراة الزوج. والمعنى المراد من هذه الآية هو أنَّ المرأة الصالحة هي تلك التي تمتثل للأحكام الإلهية، وتكون مطيعة من جهة أخرى لزوجها.

يجب أن لا تنظر المرأة إلى الرجال الأجانب، ولا ينبغي أن تخفي حيضها وطهرها وحملها على زوجها.

جاء في تفسير روح البيان حديث عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**ثلاثة من أُمّتي في النار...**» إلى آخر الحديث[2].

ونقل عنه في موضع آخر أنَّه قال: «**إنَّ المرأة إذا ماتت وزوجها عنها راضٍ فهي من أهل الجنَّة**».

وروي عنه أيضاً أنَّه قال: «**لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**»[3].

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.

(٢) تفسير روح البيان.

(٣) الكافي، ج٥، ص٥٨.

المسألة التي يجب أن تعلمها المرأة هي مسألة الارتداد بعد الزواج. والارتداد معناه الرجوع عن العقيدة الإسلامية سواء عن طريق القول من قبيل إنكار ضروريات الدين، أو عن طريق الفعل كالسجود للصنم أو عدم احترام القرآن كإلقائه في النجاسة والقذارة أو حرقه أو إهانته، وعدم احترام من يوجب الدين احترامهم. وإذا حصل الارتداد قبل الدخول بالزوجة ينفسخ عقد النكاح تلقائياً ولا عدّة على المرأة، وعلى الرجل أن يدفع لها نصف المهر. وإذا حصل الارتداد بعد الدخول يفسخ النكاح بعد انقضاء العدّة ويدفع المهر كاملاً غير منقوص. وهذا كلّه في ما يخصّ المرتد الملّي، وأمّا المرتد الفطري وهو الذي كان على الفطرة الإسلامية وارتدَّ عنها، إذا وقع منه ذلك بعد الدخول بالزوجة يُفسخ عقد النكاح فوراً وعلى الزوجة أن تعتدّ عدّة الوفاة.

إذا سعت المرأة عن طريق تغيير سلوكها لينسجم مع رغبة زوجها فهي تكون بمثابة غنيمة للزوج وهذه حقيقة أكّدها رسول الله ﷺ بقوله: **«ما استفاد رجل بعد الإيمان بالله من زوجة موافقة»**[1]. ومن الطبيعي أنَّ موافقة الزوج على ارتكاب الحرام ينجم عنه نوع من التنافر وذلك لأنَّ الزوج حينما يلاحظ استعداداً من زوجته لارتكاب المعاصي تنعدم ثقته بها ويزول الانسجام والتوافق.

عندما نزلت الآية الشريفة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، قال رسول الله ﷺ: **«تبّاً للذهب والفضّة.** قالها ثلاثاً. فقالوا: أي مالٍ نتخذ؟ فقال: **لساناً شاكراً، وقلباً خاشعاً، وزوجة تعين أحدكم على دينه»**[3].

---

(١) مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٣٨.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣٤.

(٣) عوالي اللآلىء، ج٢، ص٦٧.

وروي عنه ﷺ أنّه قال: «**إنّما الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا الزوجة الصالحة**»[1]. وقال ﷺ أيضاً: «**أوحي إلى موسى** عليه السلام: **إنّي أعطيت فلاناً خير الدنيا والآخرة، وهي امرأة صالحة**»[2]. وقال أيضاً: «**من سعادة المرء: الزوجة الصالحة، والمسكن الواسع، والمركب الهنيء، والولد الصالح**»[3]، وقال أيضاً: «**أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: بدناً صابراً، ولساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة صالحة**»[4]، وقال أيضاً: «**خمسة من السعادة: الزوجة الصالحة، والبنون الأبرار، والخلطاء الصالحون، ورزق المرء في بلده، والحبّ لآل محمّد**»[5]. وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «**ثلاثة أشياء لا يُحاسب عليهنّ المؤمن: طعام يأكله، وثوب يلبسه، وزوجة صالحة تعاونه ويحصّن بها فرجه**»[6].

يمرّ الزوج والزوجة بنوعين من العلاقات الاجتماعية؛ الأولى هي عندما يكون أحدهما في مقابل الآخر وعندما تكون حقوقهما متبادلة بينهما. والثانية هي وجودهما سوية كعائلة في مقابل المجتمع. بمعنى أن تكون حقوقهما أمام المجتمع ثابتة على الدوام. فالمرأة والرجل إذا كانا يحترمان حقوق بعضهما البعض يستطيعان رعاية حقوق المجتمع أيضاً.

الزواج هو الصف الأول في مدرسة الحياة؛ لأنَّ المرأة تعرف فيه واجباتها أمام زوج يحميها وما يترتّب لها من حقوق عليه. والرجل يتعلّم ذلك أيضاً ويطبّقه تطبيقاً عملياً وينطلق من داخل الأُسرة لمعرفة ماهية المجتمع.

---

(١) دعائم الإسلام، ج٢، ص١٩٥.

(٢) مستدرك الوسائل، ج١٤، ص١٦٩.

(٣) دعائم الإسلام، ج١٤، ص١٦٩.

(٤) مستدرك الوسائل، ج١١، ص١٨٨.

(٥) دعائم الإسلام، ج٢، ص١٩٥.

(٦) مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٣٢.

ويبدو أنَّ الآية الشريفة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1] تتضمن مغزى عميقاً لأنَّ كيان الأُسرة يُلقي على المرأة والرجل مسؤوليات ويعوّدهما على أداء الحقوق الاجتماعية وتطبيقها في مجتمعهما المصغر وهو الأُسرة. ويتعلّمان من خلال ذلك رعاية الحقوق القانونية والأخلاقية في المجتمع العام.

فالحقوق القانونية إذا لم يلتزم بها المرء تُقدّم ضدّه شكوى إلى السلطات المختصة ويضطرّ القانون للتدخّل في بعض المسائل من قبيل حقّ نفقة المرأة. والجوانب الأخلاقية إذا لم تُراعَ يتدخّل ناموس الخلقة ويقلب معادلات الحياة.

كلّ ما جرى الحديث عنه حتّى الآن من شؤون الزواج لا يُعنى بمسألة التقاء جسدين فحسب، وإنَّما يعني الزواج الذي نتحدّث عنه التزاوج بين كلّ شيء من شخصين يريد أحدهما خير الآخر ويحقّق آمال الآخر ويشاركه في أحزانه وأفراحه. وكلّما كان الزواج أكثر سلامة حيث الكمّ والكيف فهو يقدّم للمجتمع أبناءً أكثر سلامة. والزواج الذي يعتبره القرآن مدعاة لإيجاد المودّة والمحبّة في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾[2]هو تزاوج جميع العناصر المادية للزوجين وجميع الكيفيات المترتبة عليها إلى الحدّ الذي يذوبان فيه ويصبحان كياناً واحداً ذا سور يحول دون دخول أي عنصر أو كيفية ثانوية فيه.

قبل أن يرتجي كلّ من الزوجين بأن تأخذ صفاته وسجاياه موضعها في ظلّ الزواج؛ يجب أن يعمل كلّ منهما على إزالة الحواجز والموانع التي تقف كحائل بينهما. فالرجل الذي كان يحلم بالزواج من فتاة بكذا قامة وكذا عينين وشفتين، والفتاة التي كانت تحلم بالزواج من شخص أقرب ما يكون في

---

(١) سورة التحريم، الآية ٦.

(٢) سورة الروم، الآية ٢١.

صفاته إلى الملاك، يجب عليهما التغاضي عن كثير من أمانيهما. فما من أحد في هذه الحياة ينال كلّ ما يتمنّى. ومن هنا يجب أن لا تتصوّر المرأة ـ إذا لم تحصل على زوج بكلّ المواصفات المطلوبة ـ بأنَّ حظها تعيس، ولا يظنّ الرجل بأنَّ الحظ لم يحالفه ولم يحصل على ما كان يتمنّى.

إذا أساء الإنسان لا يلتفت عادة إلى إساءته أو قد لا يصدق بأنَّه قد أساء. ولكن إذا أساء شخص آخر يلتفت سريعاً إلى تلك الإساءة ويعتريه الغضب. وهذا هو مصدر الشقاء. وإذا أرادت المرأة أن يكون زوجها على هواها، وإذا أحبَّ الرجل أن تكون زوجته طبقاً لرغبته، يصعب على كلّ منهما نيل هذه الأمنية بناء على السبب المذكور أعلاه. ومن هنا يجب أن يقلب كلّ واحد منهما طباعه، ويرجّح المصلحة على الميول والأهواء. وإذا أحبت الزوجة أن يتخلّى زوجها عن أنانيّته ويعمل بواجباته، عليها أن تبدأ بنفسها، ولا تتوانى عن أداء حقوق زوجها، كما أشار رسول الله ﷺ إلى عكس هذا المعنى بقوله: «**من صبر على سوء خُلق امرأته أعطاه الله من الأجر ما أعطى أيوب** عليه السلام **على بلائه**»[1]. وهكذا أيضاً بالنسبة للمرأة. وقال بهذا المعنى أيضاً: «**أيّما امرأة لم ترفق بزوجها وحملته ما لا يقدر عليه وما لا يطيق لم تُقبل منها حسنة وتلقى الله وهو عليها غضبان**»[2].

يُروى أنَّ امرأة تزوجت ولكنها لم تجد في بيت زوجها ما كانت ترجوه. فجاءت إلى رسول الله ﷺ وشكت له أمرها فقال لها رسول الله ﷺ: «**لعلّك تريدين أن تختلعي فتكوني عند الله أنتن من جيفة حمار**»[3].

---

(١) مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٦٢.

(٢) مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٦٣.

(٣) مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٦٣.

إنَّ ما يجب أن يسود في البيت هو أصل البراءة لا أصل التهمة، وأصل الطهارة والتزكية لا أصل الخبائث والضلالة. وأكرر القول بأنَّ التحمّل أسهل من الإنكار. ولكن ليس المقصود هو التحمّل الذي ينتهي بالإنسان إلى المظلومية؛ فهذا النوع من التحمّل الذي يؤدّي إلى المظلومية غير مقبول بتاتاً ويؤدّي إلى إفساد شخصية الأولاد التي تأتي صياغة حوالي ٧٥ بالمائة منها في الأُسرة. وإذا كان أصل البراءة هو السائد في الأسرة ينعدم عند ذاك أصل الاتهام الذي يؤدّي إلى إيجاد المظلومية، وخاصة إذا طُبّق هذا الأصل من قبل المرأة وحملت كل عمل يصدر من الرجل محملاً حسناً. فمثل هذا العمل يحكّم بناء الأُسرة. وقد سبقت الإشارة إلى القول المنقول عن الإمام علي عليه السلام في هذا المعنى: «**إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظنّ برجل لم تظهر منه حوبة فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل الظن برجل فقد غرّر**»[1].

وعلى المرأة أن لا تُسيء الظنّ بزوجها لمجرّد أنَّه رفع سمّاعة الهاتف وردّ على سلام امرأة كانت تتحدّث عبر الهاتف، ولا ينبغي لها اتّخاذ هذا الموضوع كذريعة لتنكيد المعيشة على نفسها وعلى زوجها. أو أن تأخذ بالرجل الظنون لمجرّد أن زوجته أجابت رجلاً بجواب فيه شيء من المجاملة. وإذا ساد هذا الأصل في حياة الأُسرة فهو يزيد من رغبة الأَب والأُم والأولاد على المجيء إلى البيت ويكون مدعاة لاجتماعهم سوية. وليس هناك في العالم كلّه مجلس أكثر دفئاً وقيمة من مجلس الأُسرة الواحدة. وقد سمعتُ أحدهم يقول: إنَّ الزيت الذي تستهلكه المصابيح في الإضاءة لا يذهب هدراً فيما لو كان نورها سبباً في أن يرى أحدنا وجه الآخر في اجتماعاتنا الليلية التي تضمنا وباقي أفراد الأُسرة.

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ١١٤.

الأهواء فداء للحياة

أيّتها المرأة، وأيّتها السيّدة، وأيّتها الزوجة، وأيّتها الأُم التي خضعت لأهوائها ورغباتها من أجل بضعة مثاقيل من معدن ثمين أو من أجل بضعة أمتار من قماش فاخر، ما الذي جعلك لا تدركين هل ذلك المعدن أو القماش أكثر أهمية أَم تربية الأولاد تربية سليمة وملء أرجاء البيت بالمودة والرحمة؟ ولو أنَّك أدركت مدى أهمية وقدسية أحد هذين الجانبين ووعيت أرجحية أحدهما على الآخر لخرجتِ قطعاً من مبدأ الشكّ وسلَّمتِ بأصل البراءة.

على المرأة أن تدرك حقيقة مشاعل العشق الكاذب المتوقّدة في قلوب الرجل فيما إذا كانت تلك المرأة من بائعات الهوى، فهي تحصل على ثناء الرجال كيلاً بالمجّان، ولكنها لو عرضت نفسها للزواج لما تزوّجها أي من رجال الشرق أو الغرب؛ وذلك لأنَّ كلّ رجل يضع أمام عينيه أنَّ هذه المرأة ستمارس ـ بعد أن تصبح زوجته ـ كلّ هذه الأعمال والحركات مع الرجال الآخرين.

أريد أن أسترعي انتباه المرأة إلى مسألة كبرياء كلّ من الرجل والمرأة، وهي أنَّ لكلّ من الرجل والمرأة كبرياؤه. وأكثر ما يعنيه كبرياء المرأة هو جمالها ومقدرتها على اجتذاب الرجل. وأمَّا كبرياء الرجل فيتلخص في رغبته في التفوّق والنجاح في الحياة. ومن جملة ما يجرح كبرياء الرجل هو أن تقول له المرأة ما يوحي له بفشله في الحياة. ولو أنَّ المرأة خاطبت زوجها بعبارات

القبح والجمال لما أعارها أهمية كبيرة لأنّها لم تنل من أسباب نجاحه. ومن هنا يجب على المرأة أن تتحرز بشدّة من الكلمات التي تجرح كرامة الزوج وتوحي له بعدم الكفاءة وعدم المقدرة على إيجاد حياة أفضل. وهذا مصداق واضح على قول الرسول ﷺ: «**أيما امرأة قالت لزوجها: ما رأيت من وجهك خيراً قطّ فقد حبط عملها**»[1].

أمَّا بالنسبة إلى كبرياء المرأة فهو جمالها ولو قال الزوج لزوجته: إنَّك قبيحة لشعرت على الفور بانهيار كرامتها ولذهبت بها الظنون إلى فشلها في الحياة ولتصوّرت وجود امرأة أخرى في حياته. وفي ضوء هذه الرؤى يأمر الإسلام الرجل بالتعبير عن محبّته لزوجته. وقد ثبت بأنَّ الرجل إذا أعرب للمرأة عن محبّته لها تشعر بالطمأنينة. وبالعكس إذا أعربت المرأة عن حبّها للرجل لا يأبه لها كثيراً حتّى وإن كانت صادقة، وإنَّما يحبّ الرجل من المرأة أن تقول لقد فعلت خيراً عندما اشتريت الجهاز الفلاني، أو أنَّها تشعر بالراحة لمدى التطوّر الحاصل في حياتهما المشتركة، أو أنَّ هذا الموضع من الدار أصبح أفضل بفضل ما جرى فيه من بناء وترميم؛ لأنَّ كلامها هذا ينطوي على نوع من التشجيع للرجل وإعلاناً عن نجاحه في الحياة ووصوله إلى الحياة التي يصبو إليها. والمرأة الذكية متى ما كانت بحاجة إلى شيء معيّن يمكنها أن تعرضها على زوجها بدون أن تجرح كرامته، كأن تقول له مثلاً ـ إذا كانت بحاجة إلى غسّالة ـ لو كان لديَّ غسّالة لكنتُ أكثر راحة، ولكان لديَّ وقت أكثر أتفرّغ فيه لشؤون الأولاد.

إذا كان الرجل مواظباً على امرأته ويقول لها لماذا فعلت هذا ولماذا كنت كذا، فتلك دلالة على محبّته لها وتعلّقه بها. وإذا كان القرآن قد أمر الزوج بضربها بخشب المسواك في آخر مرحلة التمنّع من التمكين، فتلك

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٤، ص١١٥.

واحدة من معجزاته. ولكن لو كانت المرأة مواظبة على الرجل فمعنى ذلك أنّها تسلبه حريّته وتسبّب له نوعاً من عدم الارتياح.

ذكرنا أنَّ كبرياء المرأة بجمالها، والرجل مغرور بكماله. وهذا يعتبر بمثابة امتياز للمرأة وذلك لأنَّ الرجل يفتن بجمال المرأة؛ بمعنى أنَّه يفتتن بشيء زائل، وشغف المرأة بكمال الرجل شغف بشيء ثابت لا زوال له. ولهذا السبب يلاحظ عدم الوفاء عند الرجال أكثر من النساء، ولهذا السبب نفسه تكون العفة والشرف لدى النساء أكثر، ويكون لفسقها إثم أكبر من إثم الرجل على فسقه.

أعود هنا للحديث عن رأي الإسلام في تزويج الفتاة للشاب من أجل ثرائه، وأشير إلى أنَّ الإسلام يستقبح مثل هذا النمط من الزواج. فالعالم يسير نحو الله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[1] ويتّجه نحو مزيد من القوّة والتكامل والجمال. وحتّى الورود والأزهار يلاحظ فيها أنَّ ورود القرن الحالي أكثر جمالاً من نفس نوع الورود والأزهار الموجودة في ألبومات صور ورود القرن الماضي. بمعنى أنَّ العالم يسير نحو الكمال والتكامل ويسير نحو الله. بمعنى أنَّ وجود الكمال والجمال يجعل السبيل نحو الله مفتوحاً على مصراعيه. وأيّ عمل مخالف لذلك يعتبر قطعاً لسبيل الله. وإذا زوّج الرجل لثرائه حتّى وإن لم يكن له جمال وكمال وقوّة وعلم ودين، فهنا تصبح الثروة كحجاب لقبائحه ونواقصه، ويكون تزويجه بمثابة قطع لسبيل الله.

على الرغم من أنَّ الشهرة الشائعة بأنَّ بعض الأعمال كالخياطة والتطريز والطبخ والتجميل والتوليد تعتبر أعمالاً خاصّة بالنساء، إلاّ أنَّ أفضل من يجيدون الخياطة والتطريز والطبخ والتجميل والتوليد هم الرجال. وهذه الظاهرة تجعل المرأة التي يحترف زوجها واحدة من هذه الأعمال تتجنّب

---

(١) سورة النور، الآية ٤٢.

التفاخر بزوجها أمام النساء الأخريات، وكأنَّ الرجل يجب أن يجيد أعمالاً بعيدة عن أعمال المرأة مثلما أنَّ الزوج لا يروق له أن تمارس زوجته عملاً رجالياً حتّى وإن كان دقيقاً مثل التسبيح بالمسبحة مثلاً أو غيره من الأعمال الأخرى الثقيلة كالحمالة وقيادة الشاحنات والعجلات الضخمة بل وحتّى ركوب الخيل الذي يثير شهوة المرأة يقلّل ـ كما هو الحال بالنسبة لقيادة السيارة الصغيرة ـ من رغبة المرأة في التمكين. وهذا هو السبب الذي يمنع الرجل من التفاخر بمهارة زوجته العالية في القيادة. وأمّا إذا داعبت الزوجة الأطفال فذلك أمر يدلّ على عمق عطفها وهو أمر محمود وجدير بالثناء. وعلى هذا الأساس فإنَّ المرأة تفهم الرجولة في ضوء مقدرة الرجل على التمييز بين ما هو رجولي وما هو أنثوي. والرجل يفهم الأنوثة في ضوء اختلاف صفات وسجايا المرأة عن الرجل.

وما دمنا قد تحدّثنا عن الخياطة فلا بأس بالإشارة إلى أنَّ خياطة الثياب وفقاً للموضة السائدة عمل ناجح في استقطاب اهتمام الرجل، وتزداد أهمية هذا العمل تبعاً لزيادة سنّ الرجل. وعلى العموم فإنَّ الرجل في أي سن كان يرغب في أن ترتدي زوجته الثوب الذي يظهر كلّ عضو من أعضائها على نحو معتدل ويبرز حجمه. وقد تحدّثت في موضع آخر عن الثياب وعلاقتها بالصحّة، وعن الحجاب، وعن نوعية الثياب التي يجب أن ترتديها المرأة أمام زوجها وأمام الأجنبي. ولكن على العموم يجب أن تلتفت المرأة إلى نوعية الثياب التي تروق للزوج. ومن هنا نفهم السرّ الذي جعل الإسلام يحرّم ثياب المرأة على الرجل وبالعكس.

الإسلام لا يجيز للمرأة أن تطلب من زوجها ما لا طاقة له على توفيره لها. ولكن يجب على المرأة أن تطلب من الرجل بين الحين والآخر شيئاً في حدود طاقاته وإمكاناته. لأنَّ مثل هذا الأمر يعدّ كأسلوب لإيجاد الألفة والمحبّة ويؤدّي إلى توطيد أواصر الرحمة. وفضلاً عن ذلك فإنَّ شعور الرجل

بحاجة المرأة إليه يرضي طموحه ويرى فيه نوعاً من الاعتبار لشخصه ولاهتمام المرأة به. ونستنتج في ضوء ما مرَّ أعلاه أنَّ المرأة الذكية تعرف كيف ومتى تطلب من الرجل بعض المال لنفقاتها الخاصَّة.

انتخاب الأفضل

لو التفتت المرأة إلى مسألة معيّنة لعاملت زوجها بنقاء ومودّة، وتلك المسألة هي أنَّ الشاب يمضي مدّة من عمره في البحث عن الفتاة المناسبة للزواج ويظلّ يبحث هنا وهناك إلى أن يقع خياره على واحدة من الفتيات الكثيرات اللاتي قد يعرضن له في حياته. بل وكثيراً ما يرفضون طلبات من فتيات أخريات بالزواج منهن. ويفهم من هذا أنَّ الرجل رأى عدّة أنواع من الجمال والمواصفات الأخرى ولكنه ظلّ يبحث عن شيء آخر لم يجده إلاّ في هذه المرأة. وهنا يجب على المرأة أن تسأل نفسها ما هو الشيء الذي طلبه الرجل فيها ويجب عليها حالياً أن تؤدّيه له؟ وهذه المسألة قد تكون مصدراً للاختلاف وسوء التفاهم؛ وذلك لأنَّ المرأة قد تقول بأنَّها هي أيضاً رفضت طلبات الكثير من الخاطبين إلى أن رضيت بأحدهم، وإنَّها ترجو من زوجها مثلما يرجوه منها. في حين أنَّها مخطئة في تصوّرها هذا.

من جملة الفوارق بين الإنسان والحيوان هو أن ذكور الحيوانات أجمل من إناثها. ولذلك فإنَّ الأنثى هي التي تختار الذكر الذي تريد. وإذا لم يكن هناك اختلاف بين الذكر والأنثى فلا تفاوت في الاختيار. بينما القضية تختلف بالنسبة إلى الإنسان، إذ أنَّ المرأة أجمل من الرجل، والرجل هو الذي يطلب يد المرأة. وهذا التقليد موجود لدى جميع الأُمم والشعوب بجميع أديانهم وألوانهم.

وبناءً على ما مرَّ ذكره لا يمكن القول بأنَّ اختيار الشاب للفتاة جاء مجرّد صدفة وبلا أي تدقيق واختيار. وإنَّما هو خيار وانتخاب للأفضل. كما وأنَّ للدين موقفه ازاء هذه المسألة وهو أنَّ الرجل يجب أن لا يتعلّق بحلاوة لسان المرأة بدون معرفة ما في قلبها. وإنَّما يجب أن يختار الفتاة المتديّنة على أن تكون في الحدّ المتعارف من الجمال، بحيث يمكن أن يكون الدين كرادع أمام الانحرافات المحتملة. وقلتُ إنَّ الجمال يجب أن يكون في الحدّ المتعارف لأنَّ الزوج والزوجة يشعران بعد مدّة من الزواج بأنَّ الجمال له أهمية من الدرجة الثانية في الحياة. بل وأنَّ الكثير من الجمال الباهر يحوّل المرأة إلى دمية فارغة من فن إدارة شؤون البيت ومداراة الزوج، بسبب ما أحيط به من اهتمام وبسبب مثالية أحلام المرأة الجميلة وآمالها المستقبلية. وما أكثر الجمال الذي يوقع الرجل في قيود العبودية الذليلة بدل أن يكون زوجاً كريماً.

الحالة السائدة في هذا الكتاب وفي جميع كتبي الأخرى هي انعدام الترتيب، إذ لم تؤاتني الفرصة لإعادة تنظيمه على النحو المطلوب. وعلى كلّ الأحوال انَّ الأُمّ الراغبة في زواج ابنتها قد يأتيها طالبون كثيرون يرغبون في الزواج من ابنتها، ويجب عليها أن لا ترفض طلب الخطيب المتديّن. وعليها أن تحذر من الشاب الذي وعد عدّة فتيات بالزواج ونكث؛ لأنَّ مثل هذا الزواج حتّى لو تمّ فلن تُكتب له السعادة وستذهب الفتاة في كلّ يوم غضبانة إلى بيت والدتها، أو قد يغضب الشاب ويذهب إلى دار أبيه أو قد يتّجه إلى خليلته. أو حتّى إذا بقيا في بيت واحد ولم يكن لديهما مكان آخر يذهبان إليه، تكون علاقتهما الجنسية ضعيفة.

وعلى الرغم من كثرة ما تكلّمت به حول التمكين أعود هنا للكلام مرَّة أخرى عن مسألة مهمة فيه وهي أنَّ المرأة إذا تمنّعت في بداية الأمر بشدّة ثم استسلمت فإنَّ الأذى الذي يلقاه الرجل في بداية الجماع يجعله لا يشعر باللذّة وإنَّما يحصل الإنزال فقط ويتبعه شعور بالنحول لدى الرجل. وهكذا الحال

أيضاً فيما لو أنهت المرأة عملية الجماع بمجرّد تأهّب الرجل لها، فهذه الطريقة غير محبّذة أيضاً لأنّها تُشعر الرجل بأنّه مارس جماعاً كسفاد الطيور؛ يُفعل بسرعة وينتهي على الفور.

ينبغي للشاب والشابة أن يعلما بأنَّ الزواج يجب أن لا يكون مدعاة لتحررهما من جميع القيود، بل يجب أن يحترم كلّ واحد منهما الآخر وخاصة أمام الآخرين. وهذه المسألة يجب أن تُراعى بشدّة في بداية الزواج. وعلى الزوج والزوجة أن يُعامل أحدهما الآخر كصديق. وبعد ذلك كلّما تقدّم بهما السنُّ يتعلّمان تلقائياً كيف يجب أن يعامل كلّ واحد منهما الآخر. وإذا حصل بينهما سوء تفاهم فأغلب ما يُعزى ذلك إلى عدم التعقّل وعدم تصديق كلّ واحد منهما بأنّه يعيش ضمن حياة مشتركة بل لأنَّ كلّ واحد منهما يتصوّر بأنّه يعيش بمفرده، فيتصلّب في رأيه، فينشأ على أثر ذلك سوء التفاهم. وعدم التعقّل هذا غالباً ما يطغى عليهما كليهما، وإلاّ فلو كان أحدهما عاقلاً لكان ذلك كفيلاً بحلّ المسألة عن طريق التغافل.

كان الجاحظ أديباً وفيلسوفاً وقد نقل في أحد كتبه حديثاً عن الإمام الباقر عليه السلام قال فيه: «**صلاح الدنيا بحذافيرها في كلمتين: إصلاح شأن المعاش ملْء مكيال ثلثاه فطنة وثلثه تغافل**»[1]. والذي يملك الثلثين الأولين يمكنه استخدام الثلث الأخير. وهذا هو الرأي الذي يؤكّده علماء النفس، ولكنهم يشيرون إلى التغافل فقط فيقولون: إنَّ قبول طباع أي شخص أسهل من رفضها. وكلّ من لا يستطيع نكران طباعه الذاتية، وحتّى ما يتعلّق منها باللذّة، لا يمكنه التأثير في الآخرين من خلال التظاهر وحده. ولا شكّ في أنَّ للأَب والأُمّ دوراً مهماً وكبيراً. ونحن إذا أدركنا هذه الحقيقة ندرك أهمية دور الدين في موضوع الزواج.

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٩، ص٣٨.

إذا تأملنا في معنى هذا الحديث الشريف ندرك مدى عظمته وذلك لأنّه يعطي زمام القيادة للحب ويجعل له الهيمنة على العقل، وعلى اعتبار أنَّ التغافل ما هو إلاّ نوع من تفكير الحبيب والمحبوب ببعضهما الآخر. بل ويمكن اعتبار ترك هذه الخصلة هي السبب الأساسي في تعاسة بعض الأزواج والزوجات الأثرياء، والتمسّك بها هو السبب الكامن وراء سعادة بعض الأسر الفلاحية الفقيرة. ونفهم من ذلك أنَّ الإمام عليه السلام لخّص معنى الحياة في هذه العبارة الوجيزة من أجل تقريب قلوب الأفراد نحو بعضهم الآخر. وهذا العمل يعدّ بحدّ ذاته بمثابة تكريم للإنسان. ويمكن اعتبار التغافل كنوع من العزم على الامتثال للأوامر الإلّهية المستخلصة من مفاد الآية الكريمة: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾(١).

يشير علماء النفس المختصون بالشؤون الجنسية إلى أنَّ الرجل وإن لم يكن متمسّكاً بالأصول الأخلاقية إلاّ أنَّ رغبته في احترام مشاعر زوجته، تدفعه إلى اختيار شريكة جنسية ـ إذا أراد اختيار شريكة جنسية ـ ذات مكانة اجتماعية أقلّ من زوجته كأن تكون امرأة ساقطة أو خادمة أو أرملة كان لها بعل أقلّ منه مكانة. ولهذا فإنَّ هذه الميزة متوفّرة لنساء الشيعة، وهي أنَّ زوجها إذا حاول إخفاء أمر الزوجة المؤقتة، فلتكن على ثقة بأنّه قلّما يتّخذ الزوج شريكة جنسية ذات مكانة اجتماعية مرموقة.

أشير هنا إلى مسألة أخرى تتعلّق بالتقاليد الغربية في ما يخصّ العلاقة المتحررة بين الفتى والفتاة قبل الزواج، وهي بما أنَّ للحبّ الأول تأثيراً نفسياً فائقاً على الإنسان قلّما ينمحي من الذاكرة سواء كان حسناً أَم سيّئاً، فلا ينبغي للفتاة والفتى بذل تلك المشاعر الجيّاشة إلاّ مع الشخص الذي يبقى شريكاً لحياته إلى آخر العمر. بمعنى أنَّ وجود الفتى والفتاة سوية ليس أمراً صحيحاً

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٤.

حتّى وإن كانت علاقتهما لا تتعدّى الحبّ الطاهر العفيف، وذلك لأنَّ المشاعر الانفعالية لكلّ منهما وخاصة بالنسبة للفتاة ـ للسبب الذي مرَّ ذكره سابقاً ـ يجب أن تُقدّم في سبيل الزواج الدائم.

إذا كان الفتى والفتاة يعيران شيئاً آخر اهتماماً أكثر من اهتمامهما باللذّة الجنسية، يجب أن لا يعيشا كأصدقاء قبل الزواج. وخاصة بالنسبة للفتاة إذ يجب عليها الحذر من سماع صوت الفتى الذي يدّعي حبّها؛ لأنَّ سماع هذا الصوت لا يقلّ خطورة عن سماع صوت الشيطان الماكر.

إنَّ وصف القرآن الكريم للرجل بأنَّه لباس المرأة، والمرأة كلباس له يصدق في جميع الأحوال حتّى على الفتى والفتاة. فليس هناك من فتاة أو فتى يجب أن يرتدي لباساً زاهياً ثم يضطرّ إلى خلعه بعد حين بمجرّد أن يلاحظ بأنَّه فقد لونه وبريقه. وإنَّما الذي يختار لباساً يختاره عادة كلباس متين وثمين وموافقاً لحجمه، وإذا كان أحد أقسامه غير مناسب فإنَّ جميع أقسامه تفقد مزاياها. وفي ضوء هذه الرؤية يجب على المرأة والرجل أن ينظرا بعين الاهتمام إلى كلّ مطالب ذي عنوان عريض في الحياة ويستهدف توفير حياة أفضل للإنسان. ولكن ما هو المطلب الذي يتّخذ عنواناً عريضاً في الحياة؟ نستطيع القول بكلّ جرأة بأنَّه ما أشارت به الأحاديث الشريفة والقرآن الكريم.

إنَّني أفكّر بموضوع التزاوج العقلي بين الرجل والمرأة قبل التفكير بموضوع التزاوج البدني. أي إنَّ التقاء الجسدين يكفي لنيل اللذّة الحيوانية. ولكن كل ما يمكن أن يقترن بينهما باستثناء الجسدين، يمكن أن يعطي لزواجهما بُعداً إنسانياً ويجعل بينهما حياة مشتركة بل ويجعل منهما كياناً واحداً. أمَّا إذا كان زواجهما مجرّد اقتران جسدين وأصبحت العين واللسان والأُذن والقلب تبعاً له لا يرتجى منه أن يكون منطلقاً للحبّ؛ لا حبّ الأُسرة ولا حبّ الناس ولا حبّ الله. والمرأة والرجل اللذان لا يعرفان كيفية التعامل بينهما بحيث يمكن اعتبار كلامهما وسلوكهما منبثقاً من عقلهما.

وانطلاقاً من هذه الرؤية فإنّني كتبتُ هذا الكتاب والكتب الأخرى التي تعالج موضوع الزواج ليس من أجل التزاوج الجسدي ولكن من أجل ذلك الزواج الإلّهي الذي يوجب المودّة والرحمة، ويصدق عليه قول رسول الله ﷺ: **«لا يحلّ لامرأة أن تنام حتّى تعرض نفسها على زوجها؛ تخلع ثيابها وتدخل معه في لحافه فتلزق جلدها بجلده. فإذا فعلت ذلك فقد عرضت»**[1]. وإذا نامت وزوجها عليها ساخط لا تُقبل لها صلاة، وهذا ما صرّح به الإمام الصادق عليه السلام بقوله: **«أيّما امرأة باتت وزوجها عليها ساخط في حقّ لم تتقبل منها صلاة حتّى يرضى عنها»**[2]. وفي ازاء ذلك كلّه فإنَّ للمرأة أجراً عظيماً لقاء خدمتها زوجها، إذ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«ما مِن امرأة تسقي زوجها شربة من ماء إلاَّ كان خيراً لها من عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها»**[3].

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب ٩١.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب ٨٠.

(٣) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب ٨٩.

الفهرس

الطبعة الثانية

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م



هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ ـ ٠٣/٨٩٦٣٢٩ ـ فاكس: ٥٤١١٩٩ ـ ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري ـ بيروت ـ لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com